شرح الشيخ شاه ولى العنينتابى الخلوتى الرومى على ورد الستار
والذى سماه " غنية السالكين لما يغنى ما فيه للشاكين "

***

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أور الورد من واردات الأولياء، وأجزى ألستنا بتلاوة بعض الأوراد، والأسماء، والصلاة على من اصطفاه الله بالاصطفاء سيدنا محمد همام جميع الناس والأنبياء، وعلى آله وصحبه الأتقياء، رؤساء الخلائق والأولياء.

وبعد فيقول العبد الفقير إلى الله الملك الغنى شهولى بن أويس بن شهولى الخلوتى غفر الله لهم، وأحسن إليهم، وإلى أماتهم وجميع إخوانهم.
لما سألنى بعض إخوان الطريق من السالكين أن أشرح ورد الستار المعروف بين التالين، جامعًا لبعض العظة والنصيحة، شائعًا فى الشريعة والطريقة، دافعًا لشبهة عن من عرضت من كثرة طعن المنكرين، قاطعًا بالجواب على ما أفرطوا بالطعن على الذاكرين، وليس هذا إلا بحسن ظنهم بى، ولست كذا، أجبتهم بعدم الاستطاعة أولًا، هيهات هيهات أن تصطاد العنقاء بالعناكب، مع ما بى من العوائق، وعدم الرأى الصائب.

ثم أُمرت من طرف مَنْ أمرُهُ لى فى مقام فرض العين، ولا يمكن رد قوله إلا بعلى الرأس والعين، الذى هو شيخى، ومرشدى، ومنزلة روحى فى جسدى القطب العارف بالله العلى الشيخ إخلاص أفندى ذو القدر العالى من نور الله، نور الله مرقده ومرقد من بالإخلاص وَدَّه.

فأجبت بالشروع معتمدًا على ما دعا لى وسلم، ومتوكلًا على الله الذى علم الإنسان ما لم يعلم، وإن وقع فيه سهو وهو عادتى فمن شؤم الآثام، وإن اتفق شىء وهو نادر منى فرميته من غير رام، وسميته ب " غنية السالكين لما يغنى ما فيه للشاكين ".
فيا الله المتعالى، ويا عالمًا بحالى عليك اتكالى فى جميع مآلى.

وسبب هذا الورد : أنه روى عن بعض الثقات من صلحاء أهل الطريق وقدماءهم :
أن بعض المنكرين افترى على الشيخ سيدى يحيى -قدس سره- كذبًا، وأسندوه إلى الرفض، ترب الله أفواههم.

فاغتم لذلك فرأى النبى -صلى الله عليه وسلم- فى منامه، وعلمه ذلك الورد، وأمره بتلاوته بعد صلاة الصبح، فقام، وامتثل ذلك الأمر أيامًا، فلما سمع المنكرون ذلك الورد من لسان اشيخ، خجلوا عن مقالتهم الكاذبة.

فإن فحوى ذلك الورد أنه روى عن بعض الثقاة من صلحاء أهل الطريق اثبات وحدانية الله تعالى، وهو على ثلاثة فصول :
الأول : ثناء ومناجاة واثبات الوحدانية، والثانى : تصلية على النبى -صلى الله عليه وسلم-، ومدحه، واثبات نبوته، والثالث : ترضية على الصحابة ومدحهم.

فتكون المواظبة عليه بعد الصبح سنة من سنن الأولياء، ومن قرأه بعد صلاة الفجر نال ثوابًا جزيلًا لما روى عن أنس -رضى الله عنه- أنه قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- :
« من صلى الفجر فى جماعة ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس، ثم يصلى ركعتين كان له كأجر حجة وعمرة تامة تامة تامة (ثلاث مرات).

وعنه أنه قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- :
« لأن أقعد مع قوم يذكرون الله من صلاة الغداة حتى تطلع الشمس، أحب إلىَّ من أن أعتق أربعة من ولد إسماعيل ».
كذا فى " المصابيح ".

وفيه أيضًا فى باب الضحك، عن جابر بن سمرة -رضى الله عنه- أنه قال :
كان النبى -صلى الله عليه وسلم- لا يقوم من مصلاه الذى صلى فيه الصبح حتى تطلع الشمس ».

واعلم أن هذا الوقت وقت شريف، وأن للمواظبة على الذكر فيه أثرًا عظيمًا فى النفوس.
وفى قوله -صلى الله عليه وسلم- : « ثم قعد يذكر الله » دلالة على استحباب الذكر فى هذا الوقت.
ويؤيده ما ذكر فى " الغنية " : من أن الصلاة على النبى -صلى الله عليه وسلم-، والدعاء، والتسبيح، أفضل من قراءة القرآن فى الأوقات التى نهى عن الصلاة فيها.

وفى " المحيط " : يكره كلام الدنيا بعد صلاة الفجر إلى طلوع الشمس، وقيل : إلى ارتفاعه. انتهى

ولهذا جرت العادة بين المشايخ والقوم فى تلاوة سورة يس : بأن يتلوها بعد الأوراد بناء على أن الشمس لا تطلع إلا بعد تمام الأوراد غالبًا، وهذا الإنباء فى تلاوة بعض الآيات التى تشيد الدعاء والثناء إذا كان على قصد الدعاء والثناء فى ذلك الوقت.

فالحاصل : أن من استأنس بهذا الورد فى هذا الوقت، يخرجه عن إيقاع الكراهة، ويوجب له الفضيلة، ويقهر نفسه الأمارة، وينور قلبه ووجهه، ويبعد عن الوسوسة قلبه، ويبغض الشيطان، ويذكره الله تعالى بالخير، ويشفع فيه النبى -صلى الله عليه وسلم-، ويُدخله الجنة، ويحيى قلبه، ويرحم أمواته، ويوده أحبابه، ويبعد عن كلمة السوء لسانه، ويكتب القلم خيره لا شره ما دام قارئه، ويدخل فى أجر المعتكفين قدر جلوسه، ويحفظه الله تعالى من سوء العاقبة.

فإن هذا الورد ظاهره قليل، جامع لمعنى جزيل، ولا تَسَتَقِلَّ تلاوته أيها السالك، فإن الله تعالى يكثره بلطفه، لما فى صحيح البخارى فى رواية أبى هريرة -رضى الله عنه- أنه قال : قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- :
« إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهَّ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللهَّ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِّ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ ».

قالوا فى معناه : أن العبد ليتكلم بكلمة خير يظنها قليلة، وهى عند الله جليلة فيرضى الله عنه بها.

وفضائل هذا الورد لا يسع تحريها فى هذه الرسالة ؛ لأن فيه جمع الدعوات المختارة التى دام على تلاوتها أسلاف الصالحين، وأتباعهم من السالكين أكثر من أن يحصى.

وتوجه على ذلك الورد قلوب المشايخ السالفة، فلتاليه من أهل الطريق المأذون فيض إلهىٌّ جرِّب مرارًا فى نظم دعواته، ومناجاته، وترتيب ما فيه مناسبة ظاهرة، وباطنة، نذكر بعضها إن شاء الله تعالى فى محلها على قدر الإمكان، ويكون لتاليه مَلكة تحيى بها قلبه إذا كان مأذونًا، وإلا فيجد أجره لا فيضه.

فإن قلت : بأى دليل يرى المريد ورود الإذن من المرشد ؟
قلت : دليلهُ أنه علماء أهل الدين لا ينقلون التفسير والحديث بعد التكميل فى جلوسهم للتدريس للعامة، إلا بعد الإستئذان من أَساتيذُهُم، فاقتبس المريدون ورود الإذن بين المريد والمرشد، باتفاق صلحاء أهل الطريقة، وعُبَّادها، وزُهَّادها .

حيث ذكر فى " جواهر الفقه " و " المهمات " وأكثر الكتب المعتبرة ؛ كالمظهر وغيرها :
أن العمل بإذن المرشد أفضل، وأرجح من ثلاثين سنة من تلقاء النفس.

وقال محمد الغزالى فى كتاب " المنقذ من الضلال " :
وقد انكشف لى فى الخلوات أمور وأحوال لا يمكن إحصاءها، فعلمت بها يقيناً أن طريقة الصوفية أقوم الطرق، وأن سيرتهم أحسن السير.

وقال الإمام السيوطى فى نقاده فى باب الاعتقاد :
ونعتقد أن الطريقة الجنيدية حق مؤسس بالكتاب والسنة.

وقال الإمام الشعرانى فى " اليواقيت والجواهر " :
وأن طريقة الإمام أبي القاسم الجنيد أقوم الطرق كلها .

وقال محمد البرسا فى " فصل خطابه " :
إن المشايخ الصوفية هم الفرقة الناجية من الفرق الإسلامية، وأن لهم اصطلاحًا لا يعرفه إلا من استلذ منهم.

وقال الفاضل البركانى فى كتابه المسمى ب " الطريقة المحمدية " :
من أنكر الطريقة فعليه أمر عظيم.

وعلى تحقيق ذلك أقوال من كبار الأئمة ما لا يحصى، مثل عبد الرحمن الجامى حيث ذكر كثيرًا فى " نفحات الأنس من حضرات القدس" ، وسراج الملة، وشيخ الإسلام عز الدين، وشيخ الإمام السمرقندى، وغيرهم من الذين لا يجتمعون على الضلالة.

وذكر فى " المهمات " :
استأذن الشافعى -رحمه الله- من شيبان الراعى ليجلس بين يديه كما يجلس الصبى فى المَكْتَبُ، فسئل عن ذلك فقال : فيه علم ما لم أعلم.

وفيه أيضًا : وكان أكابر علماء الظاهر مقرِّين بفضل علماء الباطن.
وقالوا : أن العلماء العاملين وإن كانوا ورثة الأنبياء، إلا أن العلماء الربانيين ذو حظين من العلم فى النصيب ؛ لأنهم ورثوا العلمين من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الظاهر والباطن.

وفيه أيضًا : فكما يجب للعلم الظاهر من أستاذ يعلمه، فكذا يجب للعلم الباطن من مرشد يرشده.

ومن المشهور : أن أبا حنيفة -رحمه الله- لم يتجتهد إلا بعد تخلية نفسه بخدمة جعفر الصادق -رضى الله عنه-، وتعلم علم التصوف من جعفر الصادق.

وقال " الضياء المعنوى " : مشايخ الصوفية يجتمعون وحدهم فى مكان، فيقرأ أحدهم شيئًا من القرآن، ويحدو حاديهم بذكر الجنة والنار والشوق إلى العزيز الغفار، فهذا لمثلهم لا يقابل بإنكار.

وقال فى " شرح الكنز المسمى بالزمر " :
ويجوز تقبيل يد الورع، ويد الشيخ الذى أخذ منه.

وقال فى " جواهر الفقه " :
قد ضل أكثر المتقين إلا المتشبثين بأذيال المرشدين.

وفيه قال أبو يعلى : من صحب طوائف الناس كلها، وجمع العلوم كلها، لا يبلغ مبالغ الرجال إلا بالعمل بأمر شيخ مرشد.
كذا فى الإحياء والعوارف.

وقال فى " الفتاوى التاترخانية " :
المراد من العلم فى قوله -صلى الله عليه وسلم- : « اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » علم الباطن.

وقال شارح " الكشاف " :
أن الشيخ المرشد قد يأمر المبتدئ برفع الصوت لتنقلع من قلبه الخواطر الراسخة.

قال فى قوله -صلى الله عليه وسلم- : « أيها الناس أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً ».
قاله فى سفر وكانوا يجهرون بالتكبير.

قال شراحه : وفى الحديث استحباب الإخفاء فى ذكر الله.
لكن ذكر شارح الكشاف : أن هذا بحسب المقام، والشيخ قد يأمر المبتدئ بالجهر.

قال فى شرح المصابيح : " من قال لشيخه لِمَ لَمْ يفلح ".
أى : لأنه ضعيف الاعتقاد فى الشيخ.

فإن قلت ما فائدة الإذن وثمرته ؟ قلت فيه فوائد كثيرة :

١- منها : قوله -صلى الله عليه وسلم- حيث قيل :
« يا رسول الله كيف نفعل إذا جاءنا أمر لم نجده فى كتاب الله، ولا فى سُنَّتك ؟
فقال : سلوا الصالحين، واجعلوه شورى بينهم ».
فالمراد من هذا الحديث فيما نحن فيه :
تفويض المشورة والإستئذان منهم دون غيرهم.

٢- ومنها : أن المريد لا يعرف تحمل نفسه فى وظائف العبادة، فربما يشتغل بنافلة، ثم ييأس فيتركها، وترك ما اعتاد من النوافل بغير عذر من السيئة.
والمرشد يعرف تحمّل كل أحد، فيأمر مقدار تحمله ثم فثم بالتدريج ،والترتيب إلى أن تكون الأعمال طبعًا للمريدين، فيشكين بعد ذلك ترك ما ائتلف من وظائف الطاعات.
لقوله -صلى الله عليه وسلم- :
« عليكم من الأعمالِ بما تُطيقونَ ، فإنَّ اللهَ لا يمَلُّ حتى تَمَلُّوا ». رواه مسلم.
وقوله -صلى الله عليه وسلم- :
« سَدِّدوا وقارِبوا واعلموا أنه لن يُدخِلَ أحدَكم عملُه الجنَّةَ وأنَّ أحبَّ الأعمالِ إلى الله أدومُها وإن قَلَّ ». رواه الشيخان.

وقال فى " شرح المشارق " لابن الملك :
" إنما كان العمل الذى يداوم أحب لأن النفس تألف به، ويدوم بسببه الإقبال على الله، ولهذا ينكر أهل التصوف ترك الأوراد، كما ينكرون ترك الفرائض "٠اه

٣- ومنها : أن المرشد يعرف أسباب قهر النفس الآمارة، والمريد لا يعرفها، والطبائع مختلفة، وكل ما يصلح لطبيعة لا يصلح لطبيعة أخرى٠
كما قال الشاعر :
لا تَحسَبِ النَّاسَ طَبْعاً واحِداً فَلَهُمْ * غرائـزُ لسْتَ تُحصِيـهن ألـوانُ
ما كُـلُّ مـاءٍ كصَـدّاءٍ لـوارِدِه * نَعَمْ ولا كُـلُّ نَبْتٍ فهـو سَعْـدانُ

فيأذن المرشد بما يصلح لطبيعة المريد وحاله بأسباب تقهر النفس٠
كما أن الله تعالى أمر للمفطر عمدًا كفارة بعتق الرقبة إن وُجدت، وإلا فبصوم شهرين متتالين إن قدر، وإلا فبإطعام ستين مسكين٠

٤- ومنها : كون التأثير فى إذنه أشد وأبلغ على نفس السالك، لصدور النصيحة من ناصح عامل، فإن ناصح الفعل نافذ كلامه، وناصح القول ضائع كلامه، والمرشد أكثر وأشد عملاً من سائر الناصحين٠

٥- ومنها : حصول التعاون والتعاضد فى دقائق الأعمال بين الإخوان الذين أُسِّسُوا على المحبة النائشة من الجمعية عند المرشد المأذون، حتى إذا ترك أحدهم عملاً ينكرون عليه، ويعينون على إتيانه٠
عملاً بقوله -صلى الله عليه وسلم- : « المؤمن للمؤمن كالبنيان »٠
كما إن جماعة الخمس شرِّعت للوفاق والمحبة والألفة بكثرة المشاهدة٠

٦- ومنها : كون المريد مأمونًا وعاملاً بسنة المشاورة، فإن المشاورة سنته فى أمور الدين والدنيا٠
لقوله -صلى الله عليه وسلم- : « المستشار مؤتمن »٠

٧- ومنها : أن الإستئذان يفيد توقير المشايخ المسنين خصوصًا مشايخ الدين٠
لقوله -صلى الله عليه وسلم- : « من لم يوقر كبيرنا، ولم يرحم صغيرنا فليس منا »٠
وقوله -صلى الله عليه وسلم- : « الشيخ فى قومه كالنبى فى أمتها »٠

٨- ومنها : أن المشايخ عارفون مداخل الشيطان فى أمور العبادة، إما برؤيا السالك، أو لكثرة توغلهم ووفرة دوامهم على النوافل.

فالحاصل :
أن الإذن من العارف لشىء أولى من غير عارفة، وفيه فوائد أخرى تجرى بين المريدوالمرشد " من ذاق يعرف ومن لم يذق لم يعرف ".

وإن قيل ما الفيض فى الأعمال ؟
قلت : الفيض فى الأعمال : أن يتلذذ السالك فى طاعته، ويستغرق فيها، ويجد حلاوتها، ويسلب الكونين من قلبه، ولا يشق عليه العبادة، ويشق عليه غير العبادة، ويشتاق إلى عبادة أخرى.

قال الله تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ }
وقال الله تعالى { وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ }.

ومعنى الخشوع والقنوت عند أهل التصوف :
هو الفيض المذكور، وبذلك الفيض يتجلى نور التجلى، وينكشف له أحوال نفسه، فيتخلص من شره، ويستوحش من خدمة نفسه، ويقدم فى خدمة ربه، ويرى ما لم يرى قبل فيكون من قبيل " من عرف نفسه فقد عرف ربه ".

وإن قيل كيف يوجد المرشد، وهو ليس بموجود فى زماننا ؟
قلت : ما أمرنا الله تعالى بطلب المحال فى قوله : { فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ }
وقوله تعالى : { وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ }
وقوله تعالى : { وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ }.
فلو كان وجود المرشد محالاً، لما أمرنا الله تعالى بطلبه، وحكم الآية عام، وباق خيره فى كل الأزمان.
وقال الله تعالى : { وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ }.

وقيل : فكلُّ عالمٍ مصباحُ أهل زمانه فيستضئ به أهل عصره .
ومن طلب وجدَّ وجد.

فلا يجوز لطالب الآخرة أن يقعد فى بيته فارغًا عن طلب المرشد، فوجدان المرشد وإرشاده يتوقف على قدر سعى السالك، لقوله تعالى : { وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى }
وقوله تعالى : { وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْواهُمْ }.

كما أن جميع السلف كانوا يهتمون فى طلبه، ورأينا وشاهدنا رجالاً جاؤوا من أقصى البلاد، وأخذوا من شيخنا، ووصلوا إلى ما وصلوا.

.

وأما ما قيل : " أن المرشد أعز من الكبريت الأحمر ".
فمبنى ذلك على جهالة أكثر الناس، وغفلتهم، وعدم مبالاتهم بهذا الفن غالبًا.
أو على تشبيه المرشد مطلقًا إلى الكبريت، بدون تصور الفقدان.
كما صرَّح قائل ذلك القول فى كتابه ـ وهو محمد الغزالى ـ فإنه قد طلب المرشد بعد ذلك، فوجد واستفاض.
وقد طلبه أكثر الناس فوجدوا واستفاضوا.

.

فلا تلتف أيها السالك إلى ما قالوا فى زماننا من الإنكار لأهل الطريقة، فإنهم لا يروا أصلح من أنفسهم، بدليل ما تعرض إليه علماء السلف، وهتكوا أعراض أكثر الصلحاء، الأسلاف، والأخلاف.
فإن قلوبهم قد تجمَّدت ببرودة الشوق إلى الله، فصاروا كالشجر اليابس لا يتحرك بريح، ولا ينتفع بشمس ولا زمهرير، وإن قيلهم، وقائلهم من مجهولاتهم لا من معلوماتهم.

فإن رجلاً لو جمع جميع العلوم كلها، ولم يتخذ مرشدًا يربيه لم يبلغ شمة من العلم، وتصير مجهولاته أكثر من معلوماته.
قال تعالى : { وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً }

ورأيت أبى السعود رحمه الله يقول حين سئل عن رقص الصوفية :
" إن العلوم بحر لا ينتهى، والمشايخ غواصون، والعلماء أهل الساحل، فكيف يعرف أهل الساحل كيفية الغوص ".

فالحاصل :

لا تبحث عن أهل القيل والقال لئلا يحصل لك عوق وشك، والسكوت خير لك ولهم، واشتغل باصلاح نفسك، ولا تغفل عن الأعمال والأوراد والأذكار.
قال الله تعالى : { وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا }.
ومما يجب أن يُعلم :
أن صاحب الورد لا يجوز له أن يتلو ورده على سبيل العادة، خاليًا عن حضور قلبه وخضوعه، وعن تهيج عقله، وصدق نيته، فإن ذلك يكون عادة لا عبادة فرضًا أو نفلاً.

كما قال أبو سعيد : الذكر على ثلاثة أوجه :
ذكر باللسان والقلب غافل : فذاك ذكر العادة.
وذكر باللسان والقلب حاضر : فذاك ذكر طلب الثواب.
وذكر يملأ القلب ويكل اللسان : فلا يعلم قدره إلا الله.

وعلى هذا قيل : " صاحب الورد ملعون، وتارك الورد ملعون ".
أى : صاحب الورد الخالى عن الخضوع، وصدق النية ملعون.
وتارك الورد المشتمل عليهما ملعون : يعنى مطرود من الثواب.

ومن هذا حكى : أن الشيخ العسكرى -رحمه الله- قد يترك أحيانًا ما وظف عليه من أعمال الطريق، احترازًا عن العادة.

فيجب على السالك :
أن يجتهد فى عمله بأن لا يضيعه بإدخال المفسدات والمنهيات، وبالغفلة على قدر الطاقة، كيلا يحرم من الأجر والفيض، و { لاَ يُكَلِّفُ اللهُّ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا } والطاعة بحسب الطاقة.

وإذا تكلف المريد فى أعماله، ولم يقدر على الخشوع الحقيقى، فتكلف بالتقليد، والاقتداء إلى من له خشوع حقيقى يرجى أن يلحقه، فإن التباكى عن عدم البكاء يجوز فى الشرع، وأن تقليد الصالحين فى بعض الأعمال مشروع بدليل « من تشبه بقوم فهو منهم ».

وأن الموافقة من آداب الصحبة والمعاشرة بين الإخوان، وأن الله تعالى يغفر للعصاة برجل صالح، كما قال تعالى فى الكتب المنزلة : [لولا الشباب الخشع لهلكتم كلكم]
وقال -صلى الله عليه وسلم- : « هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إلا بِضُعَفَائِكُمْ » .
وقال تعالى : { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ }.
.
والمريدون أولاد المشايخ فى المعنى والرجاء، لقوله -صلى الله عليه وسلم- :
« الآباء ثلاثة أب ولدك، وأب علَّمك ، وأب ربَّاك » .
بَدَّل الله تقليدنا إلى التحقيق، كما بدل السيئات إلى الحسنات، كما وعد فى قوله تعالى :
{ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ }.

وأما إذا لم يستطيع السالك أن يتلو ورد الستار :
فله أن يستمع وينصت، وله ما للتالى من الأجر، لقوله تعالى : { فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ }.
وقوله -صلى الله عليه وسلم- : « كن عالمًا أو متعلمًا أو مستمعًا » .

وأما وجه التسمية " بورد الستار " :
فإن فى أوله يبتدئ باسم الستَّار مرتين، كما قاله أولاً :
[اللَّهُمَّ يَا سَتَّارُ يَا سَتَّارُ]
.
واعلم أن من آداب الدعاء :
أن يذكر أولاً مَنْ دعاه بألفاظ المحاسن، والثناء الجميل الذى يتعلق على قصده، ثم يسأل ما قصد، وبذلك جرت العادة بين الداعين والسائلين.
ولهذا قال أولا : [يا ستَّار يا ستّار] إلى آخر الثناء.
.
ثم قال : [إلهى واغفر ذنوبنا] إلى آخر الدعاء.
وإنما كرر اسم الستَّار : إما للسجع، أو لأن المقام مقام السؤال، ومن دأب السائلين التكرار فى الخطاب.
كما قيل : من لجَّ وَلَجَ.
وكذلك سائر الأسماء الآتية بعده، لتعظيم البارئ.
.
وإنما صدره " بيا " المحتملة بالقرب والبعد والتوسط، إما اظهار الكمال بتقصيره الذى بعد نفسه بذلك عن قرب الحضرة إن كان للبعيد، أو اشعارًا برجاء كونه قريبًا بتيقن ألطافه وعفوه عن التقصيرات من كرمه، ببشارة قوله تعالى : { وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ } وقوله تعالى : { فَإِنِّي قَرِيبٌ } إن كان للتقريب، أو إيماء على بقاء العبد الداعى بين الخوف والرجاء إن كان للمتوسط.

ما قيل فى معنى الستَّار :
أما الستَّار بمعنى الغفار : فلذا لم يؤت به فى الأسماء الحسنى.

وقيل فى معنى الستَّار : أن الله يستر ذنوب المذنبين غير مرة بلا إحصار بذيل رحمته وسجّال لطفه، حتى لا يطلع عليها أحد من الخلائق، وقيل من الحَفظة، ولا يؤاخذه أبدًا .
.
وفى معنى الغفار : أنه تعالى يغفر الذنوب أعمَّ من أن يغفرها بعد المعاتبة، أو قبلها .
.
وقيل الستَّار : ستر عيب فى الدنيا والآخرة، لا يطلع عليه أحد فيهما .
والغفَّار : ستر عيب فى الآخرة سواء اطلع عليه أحد فى الدنيا أو لا.
.
وليعلم أن الله تعالى ستَّار، ويُحب له هذه الصفة، وباستتار عيوب نفسه وغيره، فإن ذلك من مكارم الأخلاق، ومن جهد استتار العيب لا محالة استعد استتار عيب نفسه من حضرة الرَّب.

ويؤيد ذلك ما روى عن النبى -صلى الله عليه وآله وسلم- أنه قال :
« من ستر مسلمًا فى الدنيا ستره الله تعالى فى الدنيا والآخرة ».

وقال -صلى الله عليه وآله وسلم- :
« من اطلع على عورة أخيه المسلم فسترها عليه، أدخله الله تعالى بها الجنة ».

وقال -صلى الله عليه وآله وسلم- :
« ما من امرىء مسلم يرد عن عرض أخيه المسلم، إلا كان حقًا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة ».

وقال -صلى الله عليه وآله وسلم- :
« من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته، ومن طلب الله عورته فضحه ولو فى جوف بيته».

وقال -صلى الله عليه وآله وسلم- :
« من ذكر عنده أخوه المسلم فنصره، نصره الله تعالى فى الدنيا والآخرة ».

وقال -صلى الله عليه وآله وسلم- :
« ما منَ امرئٍ مسلم يخذُلُ امرَأً مسلمًا في موضعٍ ينتَهكُ فيهِ حرمتُه ويُنتَقصُ فيهِ من عرضِه إلَّا خذلَه اللهُ تعالى في موطِنٍ يحبُّ فيهِ نصرتَهُ، وما منَ امرئٍ مسلم ينصُرُ مسلمًا في موضعٍ يُنتَقصُ من عرضِه وينتَهكُ فيهِ من حرمتِه إلَّا نصرَه اللهُ في موطنٍ يحبُّ نصرتَه »٠

وقال -صلى الله عليه وآله وسلم- :
« من أذل عنده مؤمناً وهو يقدر على أن ينصره فلم ينصره، أذله الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الخلائق »٠
انتهى كذا فى المصباح٠

فهذا يدل على وجوب استتار العيب من غيره، وترك التتبع والتجسس، وحسن الظن بالمسلمين٠
كما قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا }٠

وقال تعالى : { وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ }٠
وقال عز وجل : { وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ }٠
فانظر أيها السالك كيف صار زماننا، فإن أكثر الناس غافلون عن ذلك، بل لا يعدونه اثمًا٠

قال -صلى الله عليه وآله وسلم- : « إنما الأعمال بالخواتيم »٠
وأنت فى دعوى أنا خير من فلان قولاً وفعلاً، ومع هذا تظن نفسك من المقربين٠
ألا ترى هل نفعت هذه الدعوى إبليس مع كونه كان مقربًا، كما قال لآدم -عليه السلام- : أنا خير منه٠

ولا تنال منال المقربين إلا بقلع شوك وجود الكبر من قلبك، ولا ينقطع هذا الموجود من قلبك، إلا بتسليم نفسك إلى المرشد " كالميت بين يدى مغسله "٠

واعلم أن اسمًا من أسماء الله تعالى إذا احتمل معانى مختلفة التى لا يكفى معتقده، ولا يضل فمن قال بذلك الاسم نال ثواب جميعها٠

من أسمائه عز وجل : الغافر، والغفور، والغفار للمبالغة، ولكن الغفَّار أبلغ٠
وأصل الغفر : الستر والتغطية٠
٠
والمغفرة من الله تعالى : عبارة عن ستر الذنوب، وعفوه عنها بفضله ورحمته، لا بتوبة العباد وطاعتهم٠
وقال بعض أهل الحقيقة : إن الله تعالى غفار الذنوب جليلها وقليلها، فلولا الذنوب لما اتضحت سلطنته، فلابد من وجود الذنوب لإظهار مكارم غفار الذنوب٠
٠
ولذلك ورد فى الحديث : « لو لم تذنبوا وتستغفروا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون ويتسغفرون فيغفر الله لهم »٠
قال الله تعالى : { نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ }٠
٠
وقال ثانيًا : [يَا جَلِيلُ يَا جَبَّـارُ]
الجليل : هو المستحق لأوصاف العلو والرفعة٠
وقيل الجليل : الُمحْسِن٠
وقيل : بمعنى العظيم الذى لا عظيم فوقه، المخصوص له تعالى٠
فإنه يقال : شىء عظيم، ولا يقال شىء جليل٠

والجبار : اسم من أسمائه تعالى٠
معناه فى حقه تعالى : أنه لا يناله يد جابرة، ولا ينازعه معارض، فيكون من صفات ذاته٠

وقيل الجبار : المتكبر من حيث المعنى، والجبروت : التكبر٠
إلا أن التكبر فى وصفه تعالى محمود، وفى وصف الخلق مذموم٠

وقيل الجبار المجبر : وهو المكرم٠
فمعناه فى حقه : أنه لا يوجد فى خلقه إلا ما يريد شاؤوا أم أبوا، فيكون من صفات الفعل٠
٠
وقيل الجبار : المصلح، من جبرت الكسر أى : أصلحته، وجبرت الخواطر : أى أصلحتها، فيكون المعنى فى حقه تعالى : أنه يصلح قلوب المنكسرة٠
كما قال فى الحديث القدسى : [أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى]
فيكون أيضًا من صفات الفعل٠

خلاصة الكلام :
أنه تعالى نافذ الحكم، ويفعل ما يريد، لا يزاحمه شىء شاؤوا أم أبوا٠
ويجبر من جبر، ويقهر الجبارين، وتعاظم بذاته عن تعظيم الحوادث، وجل وعلا عن علو المكان والمكانة ؛ لأنه خالق الإجلال والتعظيم، والعلو الذاتى، والصفاتى فى جميع موجوداته٠

جبار قلوب المنكسرة من أجله، ولا تعرف أنت أنه جليل جبار، حتى تعرف نفسك أنك حقير ذليل، كما عرفت " أن من عرف نفسه فقد عرف ربه "٠
أى : من عرف نفسه حقيرًا، فقد عرف ربه جليلاً٠
٠
وأنت فى إدعاء : أنا أجل من فلان بالعلم، أو الحسب، أو المال، فكيف تعرف ربك جليلاً٠
كما أن إبليس قال : أنا أفضل من آدم بالعلم والعبادة والقدم والأصل، فصار من الكافرين٠

وإذا أردت أن تعرف نفسك حقيرًا، وربك جليلاً :
الزم نفسك فى مقام الفناء فى الله، ولا تصل إلى هذا المقام إلا أن تذوق مذاق السالكين مع المرشدين٠
كما قال أبو على : لو أن رجلاً جمع العلوم كلها، وصحب طوائف الناس لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة بأمر شيخ مرشد، ومن اشتغل بالسلوك بلا مرشد ؛ كمن شهد معركة القتال بلا سلاح٠

ثم قال : [يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ وَالْأَبْصَارِ]
قيل فى معناه : يا من بيده لزمة بواطن الأسرار، وسرائر الأفكار سميت " بالقلب " لأنها محل الخواطر المختلفة، الحاملة على الإنقلابات٠

وقيل : يا من ينجى المؤمنين يوم القيامة من الهلاك، وإتيان الكتاب من الشمال٠
كما قال تعالى : { يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ }
أى : تتقلب القلوب من توقع النجاة، وخوف الهلاك٠
والأبصار : أى من ناحية يؤخذ بهم، ويوفى كتابهم٠

وقال أهل الظاهر فى معناه : يا من بيده كيفية تحويل القلب، ودرك البصر، وإنما خصَّت الإضافة إليهما ؛ لكونهما أشرف الجوارح.
أو لكون كيفية انقلاب القلب منحصرًا له تعالى، لا مدخل فيها للعبد أصلاً مثل سائر الأعضاء التى فيها جزء اختيارى.

كما قال الإمام نصر الدين : ومن كمال رحمة الله على عباده، أنه تولى بنفسه أمر القلوب، ولم يكِل ذلك إلى أحد من الملائكة.
كذا فى شرح المشارق.
فالإضافة للتخصيص، وحمل البصر على القلب ؛ لكونها منبعثة من القلب.
كما قيل : " العين تدرك، والقلب يبصر ".

وقيل الأبصار من البصيرة : وهى إدراك القلب وفهمه.
فعلى هذا يكون من عين القلب.

فالحاصل :
أن تحويل القلب من حالة إلى أخرى، لا يكون باختيار العبد وإرادته، وكذلك حركة الجفنين، ودرك العينين.
حكى : أن رجلاً وقع بصره على امرأة فحول وجهه، فوقع رأسه فى جدار وشُجّ، فجاء إلى النبى -صلى الله عليه وسلم- وذكر أحواله، فقال -صلى الله عليه وسلم- :
« ذلك إشارة عليك، وبشارة لك ».
يريد أن عقوبة الشيخ « إشارة عليك »، وتنبيه على رفض الغفلة، فإن تعجيلها فى الدنيا دون الآخرة « بشارة لك ». انتهى

فكذلك تجاوز الله تعالى عما خطر بالقلب، إذا لم يكن باعتقاد أو إظهار، لعدم إمكان دفعه من العبد إذا لم يدفعه الله تعالى.
لقوله -صلى الله عليه وسلم- : « إن الله تجاوز عن أمتى بما تُحدِّث به أنفسهم، ما لم يتكلموا، أو لم ينقلوا ». رواه الشيخان.

لكن المحققين وأهل الظاهر : أجمعوا على الكفر، والبدعة، والشك، والنفاق، والكبر، والرياء ليس بمعفو، وإن لم يظهر.
وأما غيرها من الآفات القلبية، إن لم يظهر بالقول أو العمل، ولم يصر عليها فمعفو.
وإن ذهب البعض إلى عدم العفو.

فلذا يدعوا الصالحين فى جميع الأقوات لإصلاح القلب بقولهم :
" يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلوبنا على دينك ".

وكان النبى -صلى الله عليه وسلم- يكثر أن يقول : « يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبى دينك »
فقلت يا رسول الله : آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا ؟
قال -صلى الله عليه وسلم- : « نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ».
وقال -صلى الله عليه وسلم- : « مثل القلب كريشة بأرض فلاة تقلبها الرياح ظهرًا لبطن ».

فالقلب أشرف الجوارح والأعضاء فإنه موضع المعرفة، وهو أمير على الأعضاء فلذا قُدم فى الدعاء على الأبصار.

ومن قال : يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلوبنا على دينك بالضراعة والإبتهال.
يرجى أن يثبت الإيمان فى قلبه فى الدنيا والآخرة، لأنه حينئذ يصير خائفًا من زواله، والخائف من زوال الإيمان، يُبشر بالثبوت بعون الله تعالى.

كذا قال الفقيه أبو الليث -رحمه الله- : " عصمنا الله تعالى من زواله، وأحيانا وأماتنا بكماله آمين ".

ثم قال خامسًا : [وَيَا مُدَبِّرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَار]
قيل فى معناه : يا من بيده تدبير تعاقب الليل والنهار بجميع أمورهما فى الأزمان كلها.
والإضافة للتعظيم ؛ لأنهما آيتان عظيمتان تدلان على صانع واحد البَتَّةَ، فإنه خلق كل واحد منهما عقيب الآخر.

أظلم الليل وأضاء النهار، كما قال عز وجل :
{ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ }.
يُتِم الليل، وينقص النهار فى الشتاء، ويعكس فى الصيف، ويعتدلهما فى الخريف والربيع، واستمر ذلك على هذه الحالة من يوم خلقا إلى يوم الوقت المعلوم لم يتخلفا أبدا.

ففى ذلك دلائل على وحدانية الله تعالى، لأن الأمر لو كان بتدبير اثنين أو أكثر، ليختلف فى التدبير، ويختل الأمر باختلافهما، فدبرهما الله تعالى على حكمة خفية، لم يبلغ كنهها علم أحد.

وهذا التدبير من أعظم الأمور وأجلها، فلذا أمر أولوا الألباب بتفكر ما فيهما، فى قوله تعالى : { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ }

وقال -صلى الله عليه وسلم- : « ويل لم قرأها ولم يفتكر فيها ».

وإنما قدم الليل على النهار ؛ لكون الليل أصلاً، ولكونه أحب إلى الله تعالى من النهار ؛ لما فيه استتار العيوب، وكثيرًا ما لا يعصى فيه أزيد من النهار بسبب النوم.

وأسرى بنبينا -عليه الصلاة والسلام- فيه، وقربة الأولياء فيه، والداعين فى الليالى أحق قبولاً، وأسرع استجابة خصوصًا فى الأسحار، وللعبادة فيه أجرين ؛ أجرًا لترك النوم، وأجرًا للعبادة.

وأن الليل وقت سكون الجوارح، فإذا توجه القلب إلى جناب القدس يصير متوجهًا بالظاهر والباطن.

وأن الليل يشبه الجنة فى اندفاع الهموم والغموم بالنوم.

كما قال أهل التفسير :

" إذا تعارض الألم والغم لرجل فنام، يندفع غمه فى الجملة بإذن الله تعالى ".

قال بعض العلماء : من قام فى الليل ونظر الكواكب وحركتها، والسموات ودورانها، وتفكر فى عجائب خلق الله تعالى، واعتبر من هذا، وقال : " يا مدبر الليل والنهار "

صار كأنه عبد ربه سنة كاملة.

لقوله -صلى الله عليه وسلم- : « تفكر ساعة خير من عبادة سنة ».

وقال الله تعالى : { وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }.

قال أهل التصوف : الليل سبب لقربة الأبرار والمقربين ؛

أما الأبرار : فإنهم لا يعصون فيها بسبب النوم.

والمقربون : يعبدون فيه أكثر من النهار.

لكن أعمال الأبرار سيئة عند المقربين، وإذا كانت حسنة فيما بينهم بعدم العصيان، فإن النوم مثلاً حسنة للأبرار لعدم تمكن العصيان، وسيئة للمقربين لكون النوم يمنع تحصيل الدرجات، وكل ما يؤدى إلى حرمان الدرجات فهو سيئة عندهم.
لقوله -صلى الله عليه وسلم- : « حسنات الأبرار سيئات المقربين ».

ثم إذا نظر السالك بتدبير الليل والنهار، وتفكر فيما يعتبر من هنا، ويستفيد إزالة ظلمة ليل القلب بتعاقب ضياء النهار، ثم يشتغل بأعمال الطريق بإذن مرشده.

ولا ينظر إلى شيخه، فإنه إذا نظر يكون غافلاً، بل إذا نظر وتجسس على أعمال مرشده وأحواله يعوق ويضل.
كما قال الجنيد : " من رآنى الآن صار زنديقًا، ومن يرانى قبل صار صدِّيقًا ".

حيث كان فى نهايته يقتصر من العبادات الظاهرة ؛ على الفرائض والواجبات والسنن، ويأكل ويشرب وينام كالعوام.
وفى بدايته يجتهد ويرتاض، فمن رأى اجتهاده يجتهد كاجتهاده حتى يصير صدِّيقًا، ومن رآه فى نهايته ينكر الاجتهاد والطريقة، فيخاف عليه الكفر.
.
كذا قال الفاضل البركلى فى كتاب المسمى " بالطريقة المحمدية " :
وقال علىٌّ -رضى الله عنه- : " أنظر إلى ما قال، ولا تنظر إلى من قال ".
.
وحكى :
أن راهبًا هرب من قومه لشىء وقع منه، وجاء إلى جماعة فى بادية فى هيئة المسلمين، وهم يبكون لأن شيخهم قد مات.
فعزاهم الراهب، ونصحهم بما يعرفه من موعظة من الإنجيل والتوراة.
فقالوا : هذا مرشدنا قد أرسله الله تعالى إلينا، واجتمعوا عليه، واعتقدوه، وحسنوا الظن به، واستمعوا إليه، حتى وصل إلى أعلى المراتب من السلوك، ثم رأوا فى مكاشفتهم أن شيخهم هذا قد شد الزنار، وعرضوا ذلك إليه.
فقال : صدقتم فى ذلك أنتم على طريق حق، وأنا على باطل، فأسلم ثم تعبد، ووصل بعد ذلك إلى أعلى المراتب.
فهذه الهداية للراهب، ومزية القوم بالتقرب ببركة حسن ظنهم واعتقادهم التام.

روى أن شيخًا اجتمع عنده مال لعمارة بعض الرباطات ـ الرباط : ملجأ الفقراء من الصوفية ـ، فعلم به قوم من اللصوص فتشبهوا بزى الصالحين، وأخفوا سلاحهم، واستضافوه.
فلما قدم إليهم الطعام وغسلوا أيديهم، وكانت له ابنة زينة فشربت من تلك الغسالة تبركًا بالضيوف، فشفاها الله تعالى فى وقتها.
فجاء الشيخ وأكرمهم، وقال : إنكم مباركون، وقص عليهم القصة.
فندموا وقالوا : إنا حضرنا لغير هذا، ولكن بعدما أحسن الله إلينا هذا الإحسان، وأسبل علينا هذا الستر، فقد تبنا، وحسنت توبتهم.
فهذه الهداية ببركة حسن الظن، وحسن الإعتقاد.

فأما أكثر أهل الطريق فى زماننا، ينظرون أعمال مرشدهم، ويتجسسون أحواله، فلذا لم يبلغوا المقصود، بل صاروا فى إنكار لجهالتهم.

فالحاصل :
إن أغفل السالك عن الاعتبار، والتفكر، وصرف جوارحه إلى ما لا فائدة فيه، وهو متعرض يوم التغابن، ولا يرى فى سلوكه فيضًا، فبالغفلة تُسرق طاعته، وتضيع فلا يرى الفيض.
.
مثل السالك فى هذا الطريق، كمثل تاجر بين الخلائق فيهم لصوص منكرون، متى غفل عن متاعه يسرق اللص شيئًا من متاعه ثم فثم فلا تبقى الفائدة فى تجارته، بل يضيع رأس المال.
واللصوص :الشياطين.
والبضاعة : الأعمال.
والتاجر : السالك.

يعنى أن الشيطان يجهد السالك بإتيان عمل باطل من قلبه، أو لسانه، أو جوراحه، فينهدم بذلك ثواب عمله الصالح، مثل ؛ إعتقاد باطل، وكذب، وغيبة، وفحش، وغير ذلك ..
كل ذلك بسبب الغفلة.

وعلاج إزالة الغفلة :
أن يدوم على ذكر الله باللسان والقلب، فإن بذكر تطمئن القلوب، تصرع الشياطين.

ثم قال : [خَلِّصْنَا مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَالنَّارِ] إنما قدم القبر إما للسجع، أو لأنه أول منازل الآخرة.
وإنما قدم هذا الدعاء على سائر الدعوات، وتوسطه بين الثناء والدعاء :
لكون النجاة من عذابهما مقصود أصليًا، لما أنه من نجى من عذاب القبر نجى مما بعده.

ولكون عذاب القبر : أول العقوبات، ولكون القبر : واسطة بين الدنيا والآخرة.
أو لكونه : أعظم دهشة، وأشد وحشة، وأصعب وحدة.

ولذا كان سيدنا عثمان بن عفان -رضى الله عنه- : إذا وُصف عنده أحوال القيامة أو النار، لا يبكى، وإذا وُصف القبر يبكي كثيرًا .
فسئل عن ذلك، فقال : قال النبى -صلى الله عليه وسلم- :
« إن القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر، وإن لم ينج فما بعده أشد منه » .
ثم قال : ما رأيت منظرًا قط إلا والقبر أهول منه.
ثم قال : إذا كنت فى النار أكون مع الناس، وإذا كنت فى القيامة كذلك، وإذا كنت فى القبر لم يكن معى أحد، طوبى لمن عمر قبره قبل أن يدخله.

روى : أن أبا بكر -رضى الله عنه- رأى رجلاً يحفر قبرًا لنفسه.
فقال : لا تعد لنفسك قبرًا، وأعد نفسك للقبر.

وقد مدح النبى -صلى الله عليه وسلم- من يتفكر فى القبر، وقال -صلى الله عليه وسلم- :
« بئس العبد عبد بغى وعَتَا ونسى القبر والبلى » .

وقال -صلى الله عليه وسلم- : « ما من مسلم يمر على المقابر إلا قال أهل القبور : يا غافل لو علمت ما نعلمه نحن، لذاب لحمك وجسدك كما يذوب الثلج فى النار » .

وقد جاء فى الأخبار : " إن أرواح الأموات تخرج من قبورهم فى يوم العيد، ويوم الجمعة، ويقومون على أبواب بيوتهم فيقولون :
هل من أحد يذكرنا، هل من أحد يترحم علينا، هل من أحد يذكر غربتنا، يا من سكنتم بيوتنا، ويا من سعدتم بما به شقينا، ويا من استخدمتم أيتامنا، ويا من نكحتم نسائنا، هل من أحد يتفكر فى غربتنا وفقرنا، كتبنا مطوية وكتبكم منشورة ". انتهى

ويكون القبر على الميت مشتدًا، وعذابه صعبًا، وسؤاله مهيبًا.
فلذلك قال الداعى فى أول الأمر [خَلِّصْنَا مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَالنَّارِ] لأول ما عرض له من أحوال القيامة.

ومن لم يتفكر أحوال القبر كل يوم يموت قلبه، وإذا تفكر السالك فى عذاب القبر فكرًا صحيحًا، يتداركه بالعمل الصالح البتة.
.
ولا يتمكن الفكر الصحيح :
إلا بنفى الخواطر، وإزالة الوحشة القلبية الراسخة فيه بسيف الأسماء المأذونة من المرشد، إن كان اعتقاده للمرشد تامًا، فإن الإرشاد يوجب الإعتقاد، وإن لم يكن اعتقاده صافيًا فلا يستفيد.
لما روى أنه قيل : لو اعتمد أحدكم على حجر لنفع ».
وعلى هذا قوله -صلى الله عليه وسلم- :
« إن الله يلقن الحكمة على لسان الواعظين بقدر همم المستمعين ». انتهى
.
وقيل فى معناه : خلص نفوسنا من موجبات عذاب القبر والنار.
أى : من جميع الخطايا والسيئات.
.
والسالك إذا ناجى ربه بدعاء [خلصنا من عذاب القبر والنار] ويعتبر من هذا، ويتدبر تخليص قلبه الميت فى ظلمة الجسد من عذاب آفاته بأنوار الأعمال الصالحة، والرياضة، والمجاهدة.
فإذا نجا قلبه منها، يوفقه الله بتخليص عذاب القبر بلطفه.

وإنما قال : خلصنا، ولم يقل احفظنا :
استكثارًا لذنوبه التى لا محالة سبب بوقوع العذاب، فصار كأنه كالواقع فيه، إلا أن يرحمه الله بالتخليص.
ففيه فائدة الإعتراف بالذنوب، والتقصيرات.

.

والسالك إذا فعل عيبًا يجتهد فى استتاره بالأعمال الصالحة، والتوبة، والرجاء، والخوف.

.

وقال أهل التصوف :

العيب : عبارة عن ميل الخاطر إلى ما سوى الله ولو لحظة، وعن فعل يخالف الأدب.

.

كما حكى :

أنه سرق متاع جار رجل صوفى، فقال الصوفى : علىَّ الضمان لأنى لبست سراويلى البارحة قائمًا، فبشؤم نفسى سرق متاع جاراى.

.

وحكى أيضًا :

أنه شكى صوفى من كثرة الفار فى داره، فقيل له : لو اقتنيت هرة لكان أحوط.

فقال : أخشى أن يسمع الفار صوت الهرة، فيهرب إلى دار الجيران، فأكون قد أحببت ما لا أحبه لنفسى.

وإنما قال ذلك بناء على ما قاله -صلى الله عليه وسلم- : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ».

وهذا الحديث عمادهم، وأساسهم، ومرآتهم فى جميع الأحوال.

.

ثم قال : [وَاغْفِرْ ذنُوبَنَا] هذا مناسب لقوله : يا غفار.

والغفران : عبارة عن تجاوز الخطايا قليلها وجليلها، سواء كان قبل الحساب أو بعده، أو قبل العذاب أو بعده، ولا يكون إلا فى القيامة.

.

وفى بعض الأخبار : « عبدى لو أتيتنى بقراب الأرض ذنوبًا أتيتك بقراب الأرض مغفرة ما لم تشرك بى ».

ومن هذا قيل :

" ليس العجب من السيارة إذا طلبوا ماء فوجدوا مثل يوسف، وإنما العجب من عاصٍ طلب المغفرة فوجد الله تعالى ".

واعلم : أن العارفين لما تفكروا فى أحوال آدم -عليه السلام-، وإبليس، وردهما بزلة واحدة، ولم يعرفوا أحوال العاقبة بالغوا فى الإحتياط، وإن كانوا عارفين سعة الرحمة، وحذروا عن أن يردوا بسبب العجب والحسد والكبر والرياء، وغيرها.

.

ومن هذا قيل : إن المخلصين على خطر عظيم، وإن قرب السلطان محرق كالنيران٠
ومهما زاد تقواهم زاد خوفهم، حيث أن الخلفاء الراشدين مع كونهم أفضل الأمة، وكونهم مبشرين بالجنة كانوا يخافون أشد الخوف٠
٠
حتى قال بعضهم : " ليتنى إنى كنت تبنًا ولم أكن إنسانًا "٠
وقال بعضهم : " ليتنى مت طفلاً "٠
وقال بعضهم : " ليت أمى لم تلدنى "٠
وسائر الصحابة والعظماء العارفون قالوا هكذا٠
٠
فالإنسان كلف بحمل ما لم يستطع على حمله السماوات والأرضين والجبال٠
٠
فى قوله تعالى : { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا }٠
٠
وقوله تعالى : { لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ }٠
٠
فإذا تفكر السالك بهاتين الآيتين فكرًا صحيحًا، لذاب من خوفه٠
وأما أنت أيها السالك تقرأ القرآن بلسانك، دون قلبك وروحك وسرك، فلا تسرى إلى قلبك الخشية، ولا تكون من الذين { تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ }٠
٠
فالقرآن أنزل للعمل به، والإتعاظ بمواعظه، فإن لم يحضرك حزن وبكاء عند قرآتك القرآن، كما يحضر لأرباب القلوب الصافية، فليبك على فقدان الحزن والبكاء، فإن ذلك من أعظم المصائب٠
ومن أشراط الساعة : أن يتخذ دراسة القرآن عملاً، ولا يبادر إلى العمل بما فيه٠
(((فالسالك يعمل ويجاهد ويتمنى رحمة الله وكرمه)))٠

قال -صلى الله عليه وسلم- : « الأحمق من اتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الرجاء »٠
وقال -صلى الله عليه وسلم- : « إن الغرور سيغلب على آخر هذه الأمة »٠
وقال -صلى الله عليه وسلم- : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله تعالى »٠

.

فطالب الآخرة ينبغى أن يكون فى الحذر دائمًا، كما يحذر طالب الدنيا فى كسبه أو تجارته.

.

قال فى " المهمات " كذا فى سائر كتب المحققين :
إن العاصى الغافل إذا كان لا يخاف الخلود فى النار بسبب معصية، كالصحيح المنهمك فى الشهوات والمأكولات المضرة، لا يخاف الموت بسبب صحته، ولا يتفكر أنها تضر على بدنه، فيمرض وربما يموت المريض.

.

والعاقل لا يتناول السم لأنه يعلم أنه مضر ببدنه فيهلكه، وكذلك سموم الدين هى الذنوب تضر بالدين، ومتناول السم يجب عليه أن يتقيأه ويخرجه عن المعدة على الفور، ويشرب الدواء، وكذلك متناول الذنوب يجب عليه أن يخرجه بالندامة والرجوع عنها .

.

وقال بعض أهل التحقيق :
" من ترك أدبًا يعاقب بترك السنَّة، ومن ترك السنَّة يعاقب بترك الفريضة، ومن ترك الفريضة يعاقب بسوء العاقبة ".

.

فظهر من هذا : إن الإتباع بالمرشد أمر لازم، فإنه طبيب حقيقى دوائه الصبر، وأن الصبر بمرارة على ما أمر سبب لصحة القلب، كما أن المريض إذا صبر على أمر الطبيب ومرارة أدويته، يشفى فى قليل من الزمان، وأنت فهيم أيها السالك.

ثم قال : [وَطَهِّرْ قُلُوبَنَا] هذا مناسب لقوله : يا جليل يا جبار.

كأنه قال : يا جليل يا جبار طهر قلوبنا عن منكراتها، ومفسداتها، وما يضلها من الأفكار الدنيوية، والوسوسة الشيطانية، ونور قلوبنا بأنوار الإخلاص، وآثار المحبة, وآثار المعرفة، وتمكن ذكرك بمعاينتك إلى قلبى، واجعلنى من المتطهرين المخلصين.

.

ولا يقدر أحد أن يزيل ذلك من القلب، إلا من له الجلال والجبروت.

وعلى ذلك قوله -صلى الله عليه وسلم- : « الطهور شطر الإيمان ».

فيكون شطر الإيمان الكامل.

.

قال شارح المشارق : المراد من الطهور تزكية النفس عن الأخلاق الرديئة، فيكون شطر الإيمان الكامل.

.

وقيل فى معناه : بشرنا تبشير { أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا } حتى يطمئن قلبى، ويطهر عن الأفكار العظيمة التى هى الخوف فى الخاتمة.

.

ثم اعلم أن التطهير يعم أنواع الطهور :

فإن الله تعالى يطهر عقول الموحدين عن دنس الشرك والكفر.

ونفوس المؤمنين عن الشكوك والظنون.

وقلوب المتقين من محبة الدنيوية ووساوسها.

وسرائر المخلصين عن الرياء.

وأفئدة العالمين عن خباثة الجهل.

ومعرفة العارفين عن الخطأ فى واردتهم.

وألسنة المحترفين عن كلمة الفحشاء والسوء.

وغير ذلك.

.

وقيل فى معناه : طهر قلوبنا عن لوث الأفكار الغيرية بماء الأزلية، وطهارة الحياة الأبدية.

ثم اعلم أيها السالك إن أردت أن تطهر قلبك :

—

١- شمر بالجد والمواظبة أن تطهر قلبك أولاً بقلع محبة الدنيا، ووساوسها بأصلها عن قلبك، فإن محبتها رأس كل خطيئة٠

ومثل السالك فى هذا العمل، كمثل عالم يطالع درسه تحت شجرة عليها العصافير الملحنون، فيشوشون البتة، فيمنعهم بالعصا والحصا، ثم يجيئون عليها٠٠ هكذا ثم فثم٠

فإن شجرة محبة الدنيا قد نبتت فى القلب وعليها عصافير وساوس الدنيا، ولا يمكن للقلب أن يطالع مراقبة معرفة نفسه، إلا بقطع هذه الشجرة بفأس منع النفس عن مألوفاته٠

٠

٢- ثم بمطالعة الأعمال والرياضة بإذن المرشد كما قال الله تعالى :

{ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ }٠

وقال تعالى : { وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ }٠

٠

وقال -صلى الله عليه وسلم- : « من أطاع هواه باع دينه بدنياه »٠

فإن جميع المنكرات الظاهرية والباطنية، تتولد من محبة الدنيا٠

٠

كما أن الله تعالى قال لنبينا -عليه الصلاة والسلام- فى ليلة المعراج :

[لو هام عبدى مثل هيام جميع عبادى، وصلىَّ مثل صلاتهم، ثم وجدت فى قلبه محبة الدنيا بمثقال ذرة لم ينل المراد، ولا يجد الحلاوة فى طاعتى]

ثم قال :

[يا محمد تجوَّع ترانى، تجرَّد لتصل إلىَّ]٠

وقوله -صلى الله عليه وسلم- : « حب الدنيا رأس كل خطيئة »٠

وقوله -صلى الله عليه وسلم- : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر »٠ رواه مسلم٠

وقوله -صلى الله عليه وسلم- : « لا تجالسوا الموتى »٠

وقوله -صلى الله عليه وسلم- : « مت فقيرًا ولا تمت غنيًا »٠

وقوله -صلى الله عليه وسلم- : « يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام »٠

وقوله -صلى الله عليه وسلم- : « الدنيا دار من لا دار له، ولها يجمع من لا عقل له »٠

وقوله -صلى الله عليه وسلم- : « إن الله لم يخلق خلقًا أبغض إليه من الدنيا، وأنه منذ خلقها لم ينظر إليها »٠

.

وقوله -صلى الله عليه وسلم- : « الدنيا حلالها حساب، وحرامها عذاب »٠

وقوله -صلى الله عليه وسلم- : « إذا أحب اللهُ عبدًا حماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمى سقيمه الماء »٠

.

وقال أبو هريرة -رضى الله عنه- : " خرج النبى -صلى الله عليه وسلم- من الدنيا، ولم يشبع من خبز الشعير "٠

.

وقالت عائشة -رضى الله عنها- : " ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين، حتى قبض رسول الله -صلى الله عليه وسلم- "٠ كذا فى المصابيح٠

.

وعلى هذا قوله تعالى : { مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ }٠

.

قال بعض الحكماء : ما ألهاك عن مولاك فهو دُنياك٠

.

حكى : أن قومً شكوا إلى أبى يزيد -رحمه الله- من وساوس الشيطان٠

فقال : هو يشتكى منكم٠

قالوا : بماذا ؟

قال : يقول أن الله أعطانى الدنيا، وأعطاهم الدين، ثم أنهم يتعرضون لما لى، فأنا أتعرض لما لهم، وإذا خلوا سبيلى أخلى سبيلهم، كما وعدنى الله تعالى فى قوله :

{ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ }

فإنهم طلبوا منى الدنيا فأعطيتها، وأبقيت عندى قلوبهم رهنًا، ثم لم يتلذذوا بالطاعات لعدم تملكهم قلوبهم، وإن أعطوا لى مالى، أعطى لهم قلوبهم فيتلذذوا بعد ذلك بالطاعات٠

.

وحكى : أن عبد الرحمن بن عوف -رضى الله عنه- لما أُخبر بقدوم قافلته بأموال كثيرة، وهو فى الصلاة استمر إلى آخر الصلاة تفكرًا فى قافلته٠

ثم جاء إلى عثمان وسلم جميع قافلته إلى بيت المال، وقال :

لا يفيد لى مال خطر عند الصلاة ببال٠

فانظر أيها السالك :

كيف يكون طالب الآخرة، مع أن له حجة فى دخول الجنة، وأنت دائمًا فى جدال ونزاع مع الخلق كالكلب، أو فى تملق كالثور لجمع فلس أو فلسين، بل تترك المعروف وتأتى المنكر لأجل تحصيل الدنيا، فضلاً عن أن تخشع فى الصلاة !!

•

ثم تقول فى نفسك : إنى صوفى أو سالك ! هيهات.
وإذا تعبدت بمنكرات القلب، لم تر فيضًا إلهيًّا، ولا تكون صوفيًا.
فلبس العباء الأبيض، وإرخاء العمامة، وحلق الشارب، وحفظ السواك فى وسط العمامة.
بدون تزكية القلب، بل إنما هو تغيير الشكل لأجل الأكل.

•

قال الله تعالى فى الحديث القدسى : [لا يغنى المصباح فوق البيت وداخله مظلم].

•

وقال محمد الغزالى -رحمه الله- : " من لم يكن صدره مشكاة الإلهية، لم يفض على ظاهره جمال آداب النبوة ".

•

وقال الفاضل الشاعر :
وما زهد الفتى بحلق رأس * ولا بلبس أثواب غلاظِ
ولكن بالهدى قولاً وفعلاً * وادمان التخشع فى اللحاظِ

•

وقال -صلى الله عليه وسلم- : « إِنَّ اللهَّ لا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ و لا إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ ».

•

وأجمع المشايخ على : أن التصوف لا يَحصُل إلا بقبول الفقر، وترك الغنى.
فالله تعالى يعفو عن كثير بفقير واحد، وكذا الضعيف كما روى البخارى عن سعد أنه قال :
« هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إلا بِضُعَفَائِكُمْ ».

•

قال شراح الحديث : يعنى إنما يحصل لكم النصر على الأعداء، والرزق ببركة الفقراء، فينبغى رعاية قلوبهم، والسعى لمطلوبهم. كذا فى شرح المشارق.

فثبت من هذا :

(((أن طلب المرشد واجب لتنقمع الآفات القلبية، ويعرف طريق الفقر المحمدى، ويستلذ منه، وبذلك يكون قلبه سليمًا من الآفات، فينفع له.
لقوله تعالى : { يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ }.

.

ثم قال : [وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا، وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرار] هذا يناسب قوله : يا مدبر الليل والنهار.
كأنه قال : يا مدبر الليل والنهار بدل سيئاتنا حسنات، كما بدلت الليل نهارًا، وكما بشرت بقولك : { يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ }.

.

أو معناه : استر سيئاتنا بالفضل والكرم، كما سترت الليل بالنهار، واحشرنا مع زمرة الصالحين فى الدنيا والآخرة.

.

وقوله : وكَفِّر : من التكفير، ومن الكفارة ؛ وهى ما به يتخلص من ذنبه.

.

واعلم : أن لهذه المناجاة فضائل كثيرة ذكرها يورث التطويل، فلو دعى بها السالك مع الخلوص باللسان والقلب، مع زمرة الإخوان قام مغفورًا له.
لقوله -صلى الله عليه وسلم- :
« ما جلس قوم يذكرون الله تعالى إلا ناداهم مناد من السماء : قوموا فقد بدلت سيئاتكم حسنات، وغفر لكم جميعًا .. » الحديث.
لا سيما هذه دعاء وثناء.

ويشترط الإقبال على ما دعى، والرجاء من الله تعالى على إجابته.
كما قال عز وجل : { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ }.

.

وقال النبى -صلى الله عليه وسلم- : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله تعالى لا يستجيب الدعاء من قلب غافل لاهٍ ».
أى : معرض عمن سأله.

.

فعلم منه : أن وثوق الداعى بالإجابة من جملة شروطه الدعاء، أما عين المدعوُّ به، أو بعضه، إما فى الدنيا أو فى الآخرة، وفى تأخير إجابته حكمة من الله تعالى تكون أصلح منه للعبد، لا بخلاً، ليبالغ العبد ويجاهد فى دعواته، ولا يستريح، وغير ذلك.

كما روى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال : « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها اثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله تعالى منها أحدى ثلاث ؛ إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له فى الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها »٠

٠

وحكى عن الرقَّاشى أنه قال :

إذا كان يوم القيامة ، عرض الله تعالى كل دعوة دعى بها فى الدنيا فلم يجب بها، فيقول له دعوتنى يوم كذا وكذا فأمسكت عليك دعوتك، فهذا الثواب مكان ذلك الدعاء، حتى يتمنى أن لو لم يكن له إجابة فى دعائه قط٠

٠

فينبغى أن يلح ويواظب على الدعاء ويواليه، لما روى أن الله تعالى يحب الملحين فى الدعوات، أن ارتفا ع الأصوات فى بيوت العبادات بحسن النيات، وصفاء الطويات، يحل ما عقدته الأفلاك الدائرات٠

قال الله تعالى : { إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ }

فالنداء : الدعاء بقرينة { فَاسْتَجَبْنَا لَهُ } كذا فى " شرح شرعة الإسلام "٠

٠

ويجب على السالك : أن يستجمع شروط الدعاء ويجتهد٠

كما قيل : لا تنفع سبعة بلا سبعة ؛ الخوف بلا حذر، والدعاء بلا جهد، والرجاء بلا طلب، والنية بلا قصد، والإستغفار بلا ندم، والعلانية بلا سريرة، والعمل بلا إخلاص٠

٠

وروى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :

« الداعى بلا عمل كالراعى بلا وتر »٠

وقال أيضًا : « اللهم إنى أعوذ بك من لسان يذكرك بالكسل »٠

٠

وقيل : للدعاء جناحان ؛ أكل الحلال وذكر المقال٠

وروى أن إبراهيم ابن أدهم -رحمه الله- قد اجتمع عنده أناس فى سوق البصرة٠
قالوا له : قال الله تعالى { دْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } ، فندعوا فلم يستجب دعائنا٠
قال إبراهيم : لعل قلوبكم ماتت من عشرة أشياء :

٠

أولها : عرفتم الله، ولم تؤدوا حقه٠
وثانيها : زعمتم أنكم تحبون الرسل، وتركتم سنتهم٠
وثالثها : قرأتم القرآن، ولم تعملوا بما فيه٠
ورابعها : أكلتم نعم الله، ولم تشكروه٠
وخامسها : قلتم أن الشيطان عدوكم، فوافقتموه ولم تحاربوه٠
وسادسها : قلتم أن الجنَّة حق فلم تَتَعملوا لها٠
وسابعها : قلتم أن الموت حق، ولم تستعدوا له٠
وثامنها : قلتم أن النار حق، فلم تهربوا منها٠
وتاسعها : دفنتم أمواتكم ولم تعتبروا بهم٠
وعاشرها : إن انتبهتم من فوقكم اشتغلتم بعيوب الناس، ونسيتم عيوبكم٠

٠

وروى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- ، أنه قال حين سأل سعد من عدم استجابة الدعاء :
« يا سعد اجتنب الحرام، فإن كل بطن دخل فيه اللقمة من الحرام لا يستجاب دعاءه أربعين يومًا »٠

٠

ونعم ما قيل : " الدعاء مفتاح الحاجة، وأسنان المفتاح لقمة الحلال "٠

٠

وعن عبد الله بن عباس -رضى الله عنهما- قال : كنت راكبًا خلف النبى -صلى الله عليه وسلم- يومًا، فقال : « يا غلام احفظ الله فى الخلوات يحفظك فى الفلوات »٠

٠

فظهر من هذا :
أنه لا يتسجيب الدعاء إلا بتطهير القلب عن جميع منكراته٠
ولا تزال المنكرات من القلب، إلا بالمجاهدة والسعى بإذن مرشد، وتربيته بعون الله تعالى٠

ويجب أيضًا على الداعى السالك :
إذا عمل عملاً صالحًا ، أو دعى بدعوات أن يجعله معدومًا فى اعتقاده، بناء على التقصير، فيبذل جهده، وينوى اتيان عمل آخر على وجه الكمال، ويعده كالأول ثم فثم٠
فإذا فعل ذلك يرجى القبول إن شاء الله تعالى٠

٠

ثم قال : [سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ يَا مَعْبُودُ]
مصداق هذه التسبيحات الثلاث، قوله -صلى الله عليه وسلم- :
« لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »٠

٠

ففيه إظهار عجزه فى عبادة الملك القدوس عن إتيانها بما يستحق له، ودلالة على كمال تقصيره، وعدم لياقة عبادته حضرة الرب٠
ومعناه : أعتقد نزاهتك من كل عن كل نقيض٠

٠

ما عبدناك على ما يليق بمجدك ؛ فى فرض أو نفل يومًا أو ليلة، وما جعلناه عبادة هى مردودة لكونها غير مستحقة أن تكون هدية لجنابك، فإنك معبود بالحق يا معبود، فكيف حالنا إذا خاصم علينا ما نعده عملاً٠

٠

وهذه التسبيحات الثلاث تسبيح الملائكة لما يرون جلال الله٠
فمن سبح بهذه التسبيحات بعد كل طاعة، يرجى أن تكون طاعته مقبولة، لأن إظهار العجز من أمارات القبول٠

٠

واعلم : أن العبد لا يخلو من أن يكون مطيعًا أو عاصيًا ، ومن أن يكون ذا نعمة أو ذا شدة، فإذا ذكر ربه وسبح يكون رجاء لقبول طاعته، واستغفارًا لمعصيته، وشكر النعمة، وصبر للشدة٠

٠

فينبغى للسالك إذا سبح بتسبيح أن يتفكر بقلبه معناه، لتخشع جوارحه٠
وأن لا يكون كمن يتكلم بلسانه، ولا يسمع أذنه ما تكلم، فإن القلب إذا لم يعرف ما يقول اللسان، لا تحصل له الخشية٠
كما قال عز وجل : { إِنَّمَا يَخْشَى اللهَّ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء }٠

والجنة والثواب وعد للخاشعين، لقوله تعالى :
{ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ }٠

.

فالعالم إذا لم يخش من الله، فهو ليس بعالم عند أهل الحقيقة٠

ويؤيد ذلك ما روى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :
« مَثَلُ العالِمِ الذي يُعلِّمُ الناسَ الخيرَ ويَنْسَى نفسَهُ كمثلِ السِّراجِ يُضيءُ للناسِ ويَحرقُ نفسَهُ »٠

.

وقال -صلى الله عليه وسلم- :
« علماء هذه الأمة رجلان ؛ رجل أتاه الله علمًا يطلب به وجه الله، فذاك يستغفر له حيتان البحر، ورجل آتاه الله علمًا، يأخذ عليه جعلاً فذاك يلجم بلجام من نار يوم القيامة »٠

.

وقال -صلى الله عليه وسلم- :
« من ازداد علمًا ولم يزدد هدى، لم يزدد من الله إلا بعدًا »٠
وقال -صلى الله عليه وسلم- :
« أشد الناس عذابًا يوم القيامة، عالم لم ينفعه علمه »٠

.

وروى : أنه مكتوب فى التوراة :
" إن كل عالم لا يعمل بعلمه، فهو وإبليس سواء "٠

.

وقال الله تعالى : { أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ }
وقال تعالى : { كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ }
وقال تعالى :
{ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ }٠

.

وغير ذلك من الوعيد فى شأن علم مجرد عن العمل٠

وأقوى العمل وأهمه : أن يقطع شجرة المنكرات القلبية بالكلية، ثم يحلى نفسه بالأعمال، والمجاهدة، ولا يتمكن من تلك المجاهدة إلا بعد ترك ما تتمناه النفس.

.

قال الله تعالى :
{ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ }.
ولا يصل الرجل إلى هذه المرتبة، إلا بالعمل بأمر شيخ مرشد.

.

كما قال أهل التحقيق :
إن العمل بالعلم لا يصلح إلا بمذاق العلم اللدنى، الذى لا يحصل إلا بالإرشاد، لقوله -صلى الله عليه وسلم- : « قليل العلم مع العمل كثير ».

.

وقوله -صلى الله عليه وسلم- :
« من أخلص لله أربعين صباحًا، ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه إلى لسانه ».

.

وقالوا أيضًا : إن المراد من العلم والحكمة فى هذه الأحاديث :
العلم اللدنى الذى لا يكون إلا بالإرشاد.
كذا قال صاحب " المهمات ".

.

وقالوا أيضًا : إن إبليس لو استرشد جبريل لأرشده، فلما لم يسترشد حيث عجب بعلمه وطاعته، واعترض بسُؤالات، فضلَّ وهلك.

.

وأما آدم -عليه السلام- فقد استرشد جبريل حيث قال : { ربنا ظلمنا أنفسنا }
فدله جبريل على طريق قبول التوبة، فاهتدى.
فنفع آدم علمه لعدم تكبره، ولم ينفع إبليس علمه لكبره.

.

وقالوا أيضًا : العلم حليب، والعمل به طبخه، والإرشاد تلبينه، ولا خيرية إلا فى اللبن.

كما حكى :

أن محمد الغزالى -رحمه الله- لما اجتهد ثلاثين سنة فى العبادة، وعلم أنه لا فيض إلا فى الإرشاد، فجاء إلى مرشد فعرض أحواله.

.

فقال الشيخ : لن تقدر على ذلك إلا برفض شرفك.

فقال : نعم.

ثم أمره الشيخ بقيم الكنيف.

فقال : سمعًا وطاعة، فقام يكنسها بالسرور.

.

فوسوس له الشيطان بأن هذه الرذالة لسيت من الفرائض، ولا من النوافل، فهل تليق أنت لهذه الخدمة الخبيثة.

فعلم أنها من الشيطان ببركة العلم والعمل.

فقبض لحيته وأراد أن يكنس الكنيف بها.

فرآه شيخه ومنعه عن ذلك ، وقال :

قد أتممت السلوك، وتجاوزت طريق الضلالة.

.

فرجع لرشده فى قليل من الزمان، ووصل إلى ما وصل إليه، ثم قال :

" ما رأيت قبل الإرشاد فى عمل ثلاثين سنة، ما رأيته بعد الإرشاد ساعة بإذن مرشدى ".

كل ذلك ببركة العلم والعمل.

وأما العمل بغير علم : فضلالة لقوله -صلى الله عليه وسلم- :

« مثل الذى يعمل بغير علم، كمثل الحمار فى الطاحونة ».

يعنى : أنه يدور فلا يبرح مكانه.

فعليك أيها السالك تحصيل علم الفرض بالجد، ثم العمل به، وإن لم تستطع على ذلك بمرور الأزمان، وموانع التوبة، فعليك بالاستماع من أهله.
كما قال -صلى الله عليه وسلم- :
« كن عالمًا، أو متعلمًا، أو مستمعًا، ولا تكن رابعً فتهلك ».
.
ولا يضرك كونك أميًّا إن كنت دائم الاستماع من الناصحين العالمين.
واحترز أشد الاحتراز من عالم لا يعمل بعلمه، فيفسد عليك، فإن ما أفسده أكثر مما أصلحه.
.
واصحب العالم الذي نبه عليه -صلى الله عليه وسلم-، وهو ما قال :
« لا تَجْلِسُوا عِنْدَ كُلِّ عَالِمٍ ، وَلا تَجْلِسُوا إلا عِنْدَ عَالِمٍ يَدْعُوكُمْ مِنْ خَمْسٍ إِلَى خَمْسٍ : مِنَ الشَّكِّ إِلَى الْيَقِينِ ، وَمِنَ الْكِبْرِ إِلَى التَّوَاضُعِ ، وَمِنَ الرِّيَاءِ إِلَى الإِخْلاصِ ، وَمِنَ الْعَدَاوَةِ إِلَى النَّصِيحَةِ ، وَمِنَ الرَّغْبَةِ إِلَى الرَّهْبَةِ ».
.
ثم قال : [سُبْحَانَكَ مَا ذَكَرْنَاكَ حَقَّ ذِكْرِكَ يَا مَذْكُور]
وإنما خص الذكر والشكر، وأن اشتملهما لفظ ما عبدناك سابقًا، لشرفيتهما على سائر العبادات :
أما الذكر : فلأنه أقدم العبادات، وأشد تأثيرًا على النفوس، وهو رأس جميع العبادات.
وعلى هذا قوله -صلى الله عليه وسلم- :
« من ذكر الله فقد أطاع، وإن لم يصم ولم يصل نفلاً، ومن نسى الله فقد عصى الله، وإن صام وصلى ».
.
وفى الحديث القدسى أن الله تعالى يقول :
[إن الله تعالى يقول : عبدى اذكرنى بعد الصبح ساعة، وبعد العصر ساعة أكفك ما بينهما].

وعن أبى الدرداء -رضى الله عنه- عن النبى -صلى الله عليه وسلم- ، أنه قال :
« ألا أنبئكم بخير الأعمال، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها فى درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ٠
وفى رواية أنس : وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربون أعناقهم، ويضربون أعناقكم٠
قالوا : بلى يا رسول الله٠
قال : ذكر الله تعالى »٠
٠
وقال النبى -صلى الله عليه وسلم- : « ذاكر الله فى الغافلين كالحى بين الأموات »٠
وفى الصحيحين : أنه قال -صلى الله عليه وسلم- : « سبق المفردون٠
قالوا وما المفرودن لا رسول الله : قال الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات »٠
٠
وقال -صلى الله عليه وسلم- : يقول الله : [أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه إذا ذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملاءٍ ذكرته فى ملاءٍ خير منهم]٠
٠
وقال -صلى الله عليه وسلم- : « لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، وأنزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده »٠ رواه مسلم٠
٠
قال الله تعالى فى سورة الأحزاب : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا }
قال العلماء فى هذه الآية :
لم يفرض الله تعالى فريضة إلا جعل الله حدًا معلومًا، ثم عفا عن أهلها فى حال العذر، غير الذكر فإنه لم يجعل له حدًا ينتهى إليه، ولم يعذر أحد فى تركه إلا مغلوبًا على عقله، أو زنديقًا، وأمرهم به فى الأحوال كلها٠
والذكر لا يرفع عن المؤمن فى الدنيا والآخرة، بخلاف سائر الطاعات٠
٠
وقال الله تعالى فى سورة النبأ : { فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }٠
وقال تعالى فى سورة الشعراء : { وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرً }
وفى سورة الأحزاب : { وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا }
وقال تعالى فى سورة الأحزاب أيضًا : { وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ }٠
وقال تعالى فى سورة البقرة : { فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ }٠

والمراد من الذكر الكثير : دوام الذكر.
وقالوا : أن الذكر يمنع الذاكرين عن المنكر.
كما قال الله تعالى : { إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ }
أى : أكبر مقتًا عن المنكر مع الصلاة، فكيف يتصور المنكر مع الذكر.
.
مع أن « من قال لا إله إلا الله مخلصًا، كفرت عن أربعة آلاف كبيرة ».
وفى رواية : « أربعين كبيرة » كما سيجىء فى شرح [ولكل هول] إن شاء الله تعالى.
.
وقالوا أيضًا : أن الصحابة لم يقاتلوا لشىء إلا لإظهار كلمة التوحيد، وإعلانها.
وأما الآن انتهت النوبة إلى قوم قاتلوا قائلها جهرًا.
.
قال أكابر العلماء، قال الله تعالى :
{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا }
هو : كلمة لا إله إلا الله، باتفاق جميع العلماء.
.
ونهانا الله تعالى عن كتمان الشهادة بقوله تعالى : { وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ }.
وأعلى مراتب الشهادة : الشهادة على وحدانية المعبود.
كما قال تعالى : { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ }.
والشهادة : لا تكون إلا باسماع الحاضرين، وعليه الجمهور.
.
قال القاضى فى تفسير قوله تعالى : { وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى }.
إن الجهر بالذكر ليس لإعلام الله تعالى، بل لتصوير النفس بالذكر ورسوخه فيها، ومنعها عن الاشتغال بغيره، وهضمها بالتضرع.
.
ثم أن أبا يوسف ومحمدًا -رحمهما الله- قالا : إن الذكر الجهرى أفضل.
وإن أبا حنيفة -رحمه الله- قال : الذكر الخفى أفضل.
وبقولهما أخذ علماء العصر، وعلماء الروم.

قال فى " شرح المشارق " : قال القاضى عياض :
" الذكر نوعان ذكر بالقلب، وذكر باللسان ؛ وهو المراد من الذكر المذكور فى الأحاديث.
واختلف فى أيهما أفضل :
قال بعضهم السر أفضل، وقال بعضهم الجهر أفضل.
والصحيح : هو الثانى.
كذا فى شرح مسلم.
.
لأن فى زمن النبى -صلى الله عليه وسلم- تجلى أنوار الدجى من سماء الرسالة، وزاد كل يوم نوره وضوؤه إلى أن ختم النبوة والرسالة، فلا يبعد أن يكون الجهر بالذكر فى زمان الرسالة والصحابة، بدعة.
كما قيل : إذا طلع الصباح استغنى عن المصباح.

ولما قست القلوب فى هذا الزمان، وصارت كالحجارة أو أشد قسوة، وران على القلوب حب الدنيا والجاه والشهوات، فلابد من رفع الصوت بذكر لا إله إلا الله، لتجلى القلوب، وتتخلص من القسوة بنور " لا إله إلا الله ".
خصوصًا لأهل الغفلة والسهو.
.
وقال النبى -صلى الله عليه وسلم- :
« سيأتى زمان على أمتى لا يذكر الله أحدًا إلا حالفًا ».
فمن قال فى هذا الزمان أن الجهر بالذكر بدعة، فقد أراد أن يطفئ نور الله.
والحاصل أن الجهر بالذكر جائز وحسن، إذا لم يعمل فيه ما يخالف الشرع ". انتهى
.
قال الله تعالى :
{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ }.
.
قال أبو الليث فى تفسيره : قال المفسرون :
يعنى : سعى فى منع المسلمين عن الصلاة وذكر الله فيها، لأن عمارة المساجد بالصلاة وذكر الله فيها، وخرابها فى منع ذلك. انتهى

وأما فى زماننا ظهر أقوامًا منقطعون عن الخيرات، يمنعون الذاكرين عنه فى المساجد، أو فى بقعتهم، ولم نكن نسمع ذاكرًا يذكر الله من أجل ذلك، ويتذلون بالأغلوطات، ويغرّون أنفسهم بادعاء نحن الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر.

.

ويقولون : ذاكر الله جهرًا فاسق أو كافر، فانظر كيف زيفوا قول المجتهدين وسائر المميزين.

.

وإن قالوا : أنهم يقصدون بالذكر غير الذكر.
قلنا : قال أبو حنيفة -رحمه الله- : " الذكر لا يتغير بالقصد ".
ذكره فى الشرح الكبير فى آواخر باب ما يفسد الصلاة.

.

قال شارح " المشارق " :
للنهى عن المنكر شرائط منها : أنه مختص بمن علم أن ما رآه منكر بالنسبة إلى الفاعل.
لأن الجاهل ربما يرى شيئًا منكرًا فى مذهبه، ويكون جائزًا فى مذهب الفاعل.
فعلم منه :
(((إن الناهى يجب أن يعلم جميع المسائل ؛ اتفاقها واختلافها، ليكون نهيه صحيحًا لا منكرًا، فكيف يجوز نهيه عن الذكر الجهرى الذى فى أفضليته قول الحنفية))).

.

ثم اعلم : أن الحركة فى الذكر، والاضطراب إن كان بغير اختيار، فلا كلام فيه، وإن كان باختيار فإن تكلف وتشبه نفسه بمن له وجد صحيح، ففيه اختلاف، والأصح الجواز لمشروعية تقليد الصالحين فى الأعمال، ولأن الموافقة بين الأحباب من شرط الإخوة، وانعقاد المحبة، ولجواز التباكى عند عدم البكاء الحقيقى عند قرآة القرآن، بل وجوبه، هكذا صرحوا.

.

وإن لم ينوى شيئًا من ذلك بل اتبع هواه، فهو منهى عنه، جاز منعه إذا ظهرت نيته الكاذبة، وإلا ترك على حاله لأن المنكر إذا لم يظهر عيانًا، لا يجب نهيه بل يحمل على الصلاح.
فلا يجوز تجسس ما فى الضمير، هذا إذا لم يؤدى إلى الفتنة، أو إلى التنفير، وإلى رفض عمل من أعمال الصالحات.

ثم اعلم أيها السالك :
أن العلماء الربانيين، والمشايخ الواصلين أجمعوا على أن الذكر إذا تمكن من القلب، صار الشيطان يصرع إذا أدنى من الذاكر، كما يصرع الإنسان إذا أدنى من الشيطان، فتجتمع عليه الشياطين، فيقولون : ماله٠
فيقال : إنه دنا من الذاكر فصرع٠
٠
وأجمعوا :
على أن القلب لطيف جاذب خيرًا أو شرًا، فإذا تمكن فيه المنكرات لم يتمكن الذكر فيه، فوجب على السالك أن يتكلف بإخراج منكراته، حتى يتمكن الذكر مكانها، لإمتناع جمع الضدين، فإذا تمكن الذكر لم يدنه الشيطان أصلاً، وإذا دنا يصرع٠
٠
كما حكى الله تعالى عن إبليس بقوله :
{ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ }
٠
وعلامة تمكن الذكر فى القلب :
أن يرى الله مؤثرًا فى الأشياء كلها، ثم لا يضطرب فى خلاف مطلوبه٠
٠
وأجمعوا : على أن السالك إذا أجمع عشرون أدبًا، يحصل له ذلك الفتح، وإن نقص واحد لم يحصل : منها خمسة سابقة على الذكر، واثنى عشر حال الذكر، وثلاثة بعد الفراغ من الذكر ٠
٠
فأما الخمسة السابقة :
—
أحدها التوبة النصوح، وثانيها الغسل والوضوء مع التعطير، وثالثها السكوت وغمض العينين وشغل قلبه وفكره بلفظه الله، ورابعها أن يشخص بين عينيه همة شيخه مع اعتقاد أن همة شيخه إستمداد من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وخامسها أن يخلص نيته٠

وأما الأثنى عشر :

—

فالأول جلوسه مثل جلوسه فى التشهد، والثانى أن يضع يديه على فخذيه مستقبلاً القبلة إن كان منفردًا، وإلا تحلقوا، والثالث تطيب مجلس الذكر بالطيب، والرابع أن يلبس حلالاً، والخامس أن يختار الموضع المظلم، والسادس أن لا يطلع على أحوال أحد، والسابع أن يراقب نفسه بعدم لياقته ذكر ربه مع منكرات القلب وغيره، والثامن الصدق أى : تسوية السر والجهر عنده، والتاسع العزيمة على إزالة منكرات القلب، وتمكن ذكر الله فى قلبه، والعاشر أن يختار من صيغ الذكر كلمة " لا إله إلا الله " فإن لها أثرًا عظيمًا فى إفناء الشهوات، والحادى عشر إحضار معنى الذكر بقلبه، والثانى عشر نفى كل موجود من الخلق عند القلب حال الذكر سوى الله.

.

فإذا فعل ذلك يسرى الذكر فى القلب، وتفنى شهواته ومنكراته، ثم يسرى معنى الذكر إلى سائر الجسد، ثم إلى الروح، فصار الجسد والقلب مع الروح روحًا بواسطة الذكر، بعد أن يكون بين الذاكر والذكر معارفة.

.

وأجمعوا : على أنه يجب على السالك أن يذكر بقوة تامة، حتى يشعر من فرقه إلى قدمه، ويصعِّد كلمة " لا إله إلا الله " من الجانب الأيمن برأسه، من فوق السرة من النَفسَ التى بين الجنبين، ويوصل كلمة " إلا الله " بالقلب اللحمى الكائن بين عظم الصدر والمعدة، ويجعل رأسه إلى الجانب الأيسر، مع حضور القلب.

.

فإن الذكر إذا سرى فى القلب، يزيل المنكرات لقوله تعالى :
{ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ }.

.

واحترز أيها السالك : من اللحن والتحريف من كلمة " لا إله إلا الله " ، حتى لا يتولد من لفظك حرفًا آخر، كما سيجئ بحثه إن شاء الله تعالى فى شرح [لكل هول].

وأما الثلاثة التى بعد الذكر :

—

أولها السكوت والخضوع بعد الذكر زمانًا، وثانيها أن يذم نَفَسَه مرارًا، وثالثها منع شرب الماء عقب الذكر، فإن الذكر يورث حرقة وهيجانًا وشوقًا، وشرب الماء يطفئ تلك الحرارة.

.

وأجمعوا : فى معنى قوله -صلى الله عليه وسلم- يقول الله تعالى :
[لا إله إلا الله حصنى فمن دخل حصنى أمن من عذابى] الحديث.

.

على أن الحصن لا يعتبر إلا بالصور الأعظم والأصغر والنوافل والمجانيق :
فالفرائض : الصور الأعظم، والسنن : الأصغر، والنوافل : الخندق، وآداب الطريق : المجانيق، والدعوات والأوراد حجارها.

فإذا قال العبد " لا إله إلا الله " بجمع هذه الإعتبارات :
ينهزم الشيطان، ولا يظفر الحصار.

.

ثم أجمعوا : على أن الذكر لا يمكن بهذه الشرائط، إلا أن يكون مأذونًا من مرشد، وذائقًا مذاق السالكين من آداب الطريق بإذنه.

.

فظهر من ذلك :
أن الذكر لا يتمكن من القلب بتحسس عيوب الناس، وغيبتهم، وسوء الظن بهم، والحضور فى مجالس الحكام والقضاة خوفًا من الوظائف والجهات، أو طمعًا لما فى أيديهم، أو تخويفًا للناس بانتسابه إليهم.

.

وأنت فهيم أيها السالك إذا لم يتمكن الذكر فى قلبك، لا تسرى إليه الخشية الإلهية، ولا تكون مؤمنًا كاملاً، ولا تنبت ثمرة الذكر فى القلب بتحقير الغير، وتحميقه، وتزكية النفس.
قال الله تعالى :
{ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى }.

.

وإن لم تزك نفسك أيها المسكين تصريحًا، لكن تزكيه تعريضًا.
نفعنى الله بذكره وفكره وشكره آمين.

[سُبْحَانَكَ مَا شَكَرْنَاكَ حَقَّ شُكْرِكَ يَا مَشْكُور]
أَخَر الشكر عن الذكر ؛ لكون الذكر أصل العبادة.

.

اعلم أنه روى عن ثقات السالكين من أهل الطريق : أن الشيخ العسكرى -رحمه الله- منع أن يقال : [سُبْحَانَكَ مَا عَرَفْنَاكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ يَا مَعْرُوفُ]

.

إما إستحياء وأدبًا من إتيان قول ورد فى حالة الإستغراق، لما قيل أنه ورد عن النبى -صلى الله عليه وسلم- عند إستيلاء جذبة رحمانية، فيكون ترك أدب فى إتيانه فى حالة البسط من بين عادة المشايخ.

.

أو لأن لهذا القول معنيين ظاهر وباطن :
أما المعنى الظاهر : فلا يجوز أن يقول ذلك بناء على ما قال علماء أهل الحق :
" معرفة الله حق معرفته بما وصف نفسه فى كتابه بجميع صفاته واجب ".
كما قال أبو حنيفة -رحمه الله- فى وصيته على الإعتقاد :
" وتعرف الله حق معرفته كما وصف نفسه فى كتابه بجميع صفاته، وليس يقدر أحد أن يعبد الله حق عبادته كما هو أهل له، ولكنه يعبده بأمره كما أمر ". انتهى

.

وأما المعنى الباطن : ما قال أهل التحقيق ؛ أن معرفة الله بكنه ذاته أمر محال، والبحث عنه ضلال، وعلى هذا يستقيم المعنى.

.

وأما فى زماننا لما اندرست المعارف فى القلوب، ولم يفهم الناس موارد أهل التصوف، وفتنت القلوب بحب الدنيا، وصارت جليدًا جامدًا ، فمنع -قدس سره- من أن يقال مثل هذا القول فى ملاء الناس، لئلا يضل الناس باستماعهم وطعنهم، لأن تكليم الناس على قدر عقولهم من أمر لازم.

.

فإن التصوف وأهله كان نادرًا فى هذا الزمان، وليعلم أن الكمل من أهل الحقيقة لم يتكلموا فى المعرفة بأكثر من الاعتراف بالعجز عنها .

أما من دونهم فقد تكلم فيها، ولهذا قال بعضهم : " الحق لا يعرفه أحد سواه، ومن عرَّفه فيه عرفه "٠

ويريد هذا القول قول أبى بكر الصديق -رضى الله عنه- حيث قال :

" الحمد لله الذى لم يجعل للخلق سبيلاً إلا بالعجز عن معرفته "٠

٠

وقال أبو يزيد أيضًا عن المعرفة :

" إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها "٠

أى : إذا نزلت المعرفة بالقلب، خربت أوطان البشرية٠

٠

وقال -صلى الله عليه وسلم- : « لو عرفتم الله حق معرفته، لزالت الجبال بدعائكم »٠

وفى الخبر : [أوحى الله تعالى إلى داود : ما عرفنى من لم يحبنى، وكيف لا يحبنى من يعرفنى]٠

٠

وقال ذو النون : " أعرف الناس بالله أشدهم فيه تحيرًا "٠

وقيل : " من كان بالله أعرف، كان له أخوف "٠

٠

وقال حسين الحلاج : " إذا بلغ العبد إلى مقام المعرفة، أوحى إليه بخواطره، وخرس سره عن أن يمر به غير خاطر الحق "٠

٠

وقيل فى قوله تعالى : { مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ } أى : ما عرفوا الله حق معرفته٠

وقيل : لا يكون العارف عارفًا حتى يكون لو أعطى ملك سليمان، لم يشغله طرفة عين٠

٠

وقال محمد بن الكتانى : " لا يعرف الله عارف، وكل عارف جاهل "٠

وقيل : ما عرف الله بالحقيقة سوى الله تعالى٠

٠

وعلى هذا يقال : [سُبْحَانَكَ مَـا عـرَفْنَاكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ]

وإدراك هذه الكلمات وفهمها لم يتيسر لأحد، إلا لمن له ذوق سليم مستقيم من علم التصوف، وذلك فى زماننا فى غاية الندرة٠

وقالوا فى معنى : « من عرف نفسه فقد عرف ربه »٠

—

أى : من عرف نفسه بالفناء، فقد عرف ربه بالبقاء٠

فمن سعى فى عمارة الدنيا، فهو كاذب فى دعوى معرفة الله بالبقاء فى الحقيقة٠

٠

ومن عرف نفسه بالفقر، فقد عرف نفسه بالغنى، فإذا لم يستغن السالك عن الخلق، فهو كاذب فى دعوى معرفته بالله٠

٠

ومن عرف نفسه عاصيًا، فقد عرف ربه رحيمًا، فإذا لم يعرف السالك نفسه أحقر من جميع المخلوقات، لا يعرف ربه رحيمًا٠

٠

ومن عرف نفسه عبدًا، فقد عرف ربه معبودًا، فإذا غفل السالك عن طاعته، لا يعرف ربه معبودًا٠

٠

ومن عرف نفسه عاجزًا، فقد عرف ربه قادرًا، فإذا لم يكن ذليلاً متواضعًا لا يعرف ربه قادرًا٠

٠

ومن عرف نفسه سائلاً، فقد عرف ربه مجيبًا، فإذا تمنى من الناس لا يعرف ربه مجيبًا٠

٠

ومن عرف نفسه محبًا، فقد عرف ربه محبوبًا، فإذا آثر الدنيا على الآخرة لا يعرف ربه محبوبًا٠

٠

إلى غير ذلك من تعظيم أسماء الله تعالى، ومعرفة معانيها الحقيقة٠

ثم رجعنا إلى فضائل الشكر :

روى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :
« الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر »٠
وقال -صلى الله عليه وسلم- : « نعمة لا تشكر خطيئة لا تغفر »٠
٠
فالشكر : ما يعم جميع البدن٠
كما قال الجنيد : " أدنى الشكر أن لا تعصى الله تعالى بنعمته، وذلك أن جوارحك كلها نعم من الله تعالى عليك، فلا تعصى الله بها "٠
٠
وقال السرى -رحمه الله- :
" ما فرحت بنعمة الله قط، فقيل له : ولم قُلتَ ؟
قال : لأنى لا أطيق شكرها "٠
٠
وروى : أن الجنيد قد أمر أصحابه أن لا يأكلوا خبز الحنطة، لعدم القدرة على أداء شكرها٠
٠
وفى هذا المعنى قال الله تعالى : { وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ }
٠
فالواجب على السالك : أن يشكر الله تعالى على الكمال، فكيف يقدر على إتيان ما أُمر به ؟
لكن السالك إذا علم تقصيره عن أداء الشكر، واعترف على ذلك، كان كمن أدى الشكر بالتمام ٠
عما روى :
أن داود -عليه السلام- قال : إلهى كيف أشكرك، وشكرى لك نعمة من عندك ؟
فأوحى الله تعالى إليه : الآن شكرتنى٠
ولقوله -صلى الله عليه وسلم- : « من عرف نفسه (أى بالعجز) فقد عرف ربه (أى بالقدره على القبول) »٠
كما قيل : " العجز عن الإدراك إدراك "٠
ولهذا قال السرى -رحمه الله- : " الشكر إقرار العبد بأنه عاجز عن الشكر "٠
فمن قال هذا التسبيح [سُبْحَانَكَ مَا شَكَرْنَاكَ حَقَّ شُكْرِكَ يَا مَشْكُور] فقد شكر ربه شكرًا تامًا, لأنه أقر عجزه٠ انتهى٠

وهنا بحث : وهو أنه هل الذكر أفضل أم الفكر، على موجب قوله -صلى الله عليه وسلم- :
« تفكر ساعة خير من عبادة سنة ».

.

قلنا : الذكر اشتغال بالله، والفكر اشتغال بغير الله.
لأن التفكر مصروف إلى خلق الله لا إلى ذاته، فإن التفكر فى ذاته ممنوع، فيكون الاشتغال بالله أفضل من الاشتغال بغير الله.

.

وعلى هذا قوله تعالى :
{ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ }.
حيث قدم الذكر على الفكر، وخص الذكر فى ذاته، والفكر فى خلقه.

.

ثم لما اعترف الداعى بتقصيره فى عبادته، وذكره، وشكره، ناسب له أن يلتمس عفوها فضلاً من الله ورحمة، فلذا قال : [فَضْلاً مِنَ الله وَرَحْمَةً]

.

أى نرجو فضلاً من الله ورحمة، لعفو تقصيراتى فى عبادتى وذكرى وشكرى، بأن يتقبلها بعذرها، ولا ينظر زلاتها وقصورها، بفضله ورحمته.

.

وإنما حذف قولنا " نرجو " لتعينه بقرنية أن هذا المقام مقام الرجاء، ولأن الاختصار مطلوب.
أو للأدب فيما بين السالكين فى مثل هذا القول.
كما قرر فى تفسير قوله تعالى :
{ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ }.
ولم يقل : ارحمنى، لأنه حفظ أداب الخطاب لحضرة الرب.

.

ومثل هذا الأدب يجرى بين الأنبياء والصديقين والأمثل.
لأنه إذا صحت المحبة : تأكدت على المحب ملازمة الأدب .

قال يحيى بن معاذ -رحمه الله- :
" إذا ترك العارف أدبه فقد هلك مع الهالكين "٠

وقيل : " من أساء الأدب على البساط رد إلى الباب، ومن أساء الأدب على الباب رد إلى سياسة الدواب "٠

٠

وحكى : أن سفيان الثورى قدم إلى المسجد، وابتدأ برجله اليسرى ساهيًا، فنودى من الهاتف : هذا فعل الثيران لا فعل الإنسان، ومن هنا سمى سفيان الثورى فى رواية٠

٠

وحكى : أن الجنيد -رحمه الله- زار زاهد قد سمعه، فلما رآه بَزَقَ تجاه القبلة انصرف من زيارته، وقال : هذا ليس من الصالحين لأنه لم يراع أدبًا من الآداب٠

٠

وحكى : إنه لما احتضر الشبلى -رحمه الله-، أشار إلى خادمه أن يوضئه، ففعل٠
فنسى تخليل لحيته، وقد أمسك على لسانه، فقبض على يديه وأدخلهما فى لحيته، ثم مات٠
فبكى من حوله فقالوا :
ما تقولون فى رجل لم يفته إلى آخر عمره سنة من سنن الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وأدب من آداب الشريعة٠

٠

وحكى : أن حاتم الأصم قدم رجله اليسرى عند دخول المسجد، فتغير لونه ورجع مذعورًا وقد رجله اليمنى، فقيل له فى ذلك٠
فقال : لو تركتُ أدبًا من الآداب، خِفتُ أن يسلبنى الله جميع ما أعطانى٠ انتهى٠

٠

(وأنت أيها السالك تترك آدابًا كثيرة، وسننًا عظيمة، بل تترك فرائض ووجبات، ثم تظن نفسك من الصالحين والأتقياء، ولا تراعى آداب الشريعة، فكيف تراعى آداب الطريقة ؟؟)

٠

وأن الرحمة : عبارة عن الأنعام، فالعفو مقدم عن الأنعام فى دخول الجنة٠

ولما أقر العبد فضل الله ورحمته، والتمسهما أولاً، عُلم أنهما نعمتان جليلتان من الله للعبد٠ فالتمس أن يرزقه الله الشكر على هاتين النعمتين الكائنتين من فضله ورحمته٠

٠

فقال : [شُكْراً مِنَ الله وَنِعْمَةً]

أى : نرجو من الله تعالى أن يرزقنا شكرًا عليها نعمة، ثم على نعمه دنيوية وأخروية كما يرضاها٠

وإنما قال : ونعمة عقيب الشكر :

لكون النعمة موعودة عقيب الشكر، كما فى قوله تعالى : { لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ }٠

٠

مع أن النعمة على العبد سابقة جدًا، غير متناهية، فالشكر واجب عقيب كل نعمة٠

وعلى هذا قال أهل التحقيق : أن نعمة الله علينا كثيرة لا تحصى٠

كما قال الله تعالى : { وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا }٠

وقال تعالى : { وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً }٠

٠

وأول النعمة علينا نعمة الوجود، ثم صيرنا من البشر، ثم من العقلاء، ثم من المسلمين، ثم من أهل السنة والجماعة، ثم من الذكور الفحول، ثم من الأحرار، ثم من صحيحى الأطراف والباطن، ثم من الفقراء العاجزين، ثم ممن يمتثل بفرائض الله تعالى، ثم من طريق العلماء، ثم من محبى جميع العلماء والمشايخ، ثم من أهل الطريقة، ثم من المكتسبين الطيبين، وهلم جرا إلى غير ذلك٠

٠

بل فى كل يوم وليلة أربعة وعشرون ساعة، فى كل ساعة آلاف نَفَس، وفى كل نَفَس عشر لحظة، وفى كل لحظة آلاف نعمة، بل فى كل إنسان آلاف عضلة، وفى كل عضلة حكمة من واحد إلى عشرة، كلها للنفع لا للعبث، لا يعرفها إلا أولوا الألباب٠

٠

فالحاصل : أن كرم الله تعالى ولطفه كثيرٌ علينا٠

قال تعالى : { وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً } من غير استحقاق منا، ولا سابقة خدمة وطاعة٠

٠

وكذا يمن علينا فى الآتى إن شاء الله تعالى، بغير استحقاق منا ، ولم يهلك من عصاه جوعًا بمعاصيه كلها من سجال لطفه، وكمال رحمته٠

فينبغى للعبد : أن يشكر الله تعالى بكمال التذلل، والتخشع، واظهار العجز والتقصير، بعد أن يبذل جهده فى آداء شكره٠

٠

فإنه لو جمع عبادات جميع المخلوقات من الإنس والجن والملك، من أولها إلى أخرها، وجعل كلها لنفسٍ واحدة مثلاً، لا يكون مؤديًا نعمة الوجود فقط٠

٠

كما قال أهل التصوف :
" إلهامه لنا أن جميع الأعمال الصالحات التى هى سبب لسعادتنا، وهدايتنا، من جملة أنعامه، وفضله، ورحمته علينا "٠

٠

فعلمنا أن الأعمال الصالحة المقربة إلى حضرته التى بها نهتدى إلى طريقه المستقيم : هى من كمال جوده، وكرمه، ورحمته علينا، حيث خلق الأعمال الصالحة، وخلق فينا التوفيق والاستعداد لقبولها، وأوجد فينا قوة القيام بها، ثم جازانا عليها خير الجزاء، وفهمنا كيفية تأبيدها لدوام مزيد الأنعام والإحسان علينا٠

٠

فقال تعالى : { لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ }٠
فبالشكر تدوم النعم والتوفيق والقبول٠
والشكر الموجب لدوام الفيض والجود : من جملة أنعامه وجوده وتفضلاته علينا٠

٠

ثم أنه أتم نعمته علينا ؛ بأنه ما طلب منا إلا شهود العجز والافتقار٠
فالشكر واجب علينا فى كل حال، كما أن العجز لازم لنا فى كل حال٠
فإلهامه لنا حقائق هذه الأشياء نعمة لنا ورحمة٠ انتهى

٠

فإن قيل : الإيمان لا يزيد ولا ينقص، والشكر يوجب الزيادة عليه ؟
قلنا : زيادة الإيمان عند النزع، أو إزدياد الأعمال الصالحة٠

فيجب على السالك : أن يصبر على ما جاء بقضائه وقدره ؛ من بلية وشدة، كما يشكر عند نعمه، لما جاء في الحديث القدسي :
قال الله تعالى : [مَنْ لَمْ يَشْكُرْ عَلَى نَعْمَآئِي وَلَمْ يَصْبِرْ عَلَى بَلآئِي وَلَمْ يَرْضَ بِقَضَآئِي فَلْيَتَّخِذْ رَبًّا سِوَآئِي]٠
٠
فإذا شكوت لما يلائم نفسك ويوافقها، وجزعت لما لم يلائم نفسك، كنت كاذبًا في دعوى العبودية٠
ومن شرائط الإيمان : أن يؤمن بالقدر خيره وشره٠
٠
ومن شرائط تصديقه : الصبر على القضاء، كما إذا كان لرجل عبد متى أنعمه يشكره، ومتى شدده لا يصبر ويشكى إلى الغير منه، ونسى ما أنعمه عليه٠
فهل يصير العبد مقربًا عنده، بل لا يقبله ولا يحبه٠
٠
والله تعالى خالقك ليس لك سبيل في أحوالك ومبدأك ومنتهاك، والكل له يتصرف في ملكه كيف يشاء٠
٠
والشكر على نعمة الصحة والمأكل دون غيرهما : شكر الحمار فإنه إذا شبع يتمرغ، وإذا أصح تبع صاحبه ويُسَخر٠
وأما شكر الرجال : أن يشكر ويصبر على بلائه، كما يشكر على نعمائه، ويبذل كل عضو محله فيه طاعة ربه٠
٠
كما قال أهل الحقيقة :

" الشكر : الاعتراف بنعم الله تعالى بالجنان، والثناء عليه باللسان والأركان٠
ولكل عضو شكر :
فشكر اللسان الذكر والثناء، وشكر النفس الجهد والعناء، وشكر الجسد التسليم والرضا، وشكر الروح الخوف والرجاء، وشكر القلب الصدق والوفاء، وشكر العقل الفكرة والعبرة "٠
انتهى٠

وإذا قال السالك : ذلك التسبيح باللسان والقلب، مع الخضوع والخلوص متذللاً متفكرًا، ودام على ذلك، دخل الجنة٠

٠

لما روى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :
« ينادى مناد يوم القيامة ليقم الحمادون، فيقوم زمرة فينصب لوآء، فيدخلون الجنة قيل : ومن الحمادون ؟ قيل : الذين يشكرون على كل حال »٠

٠

ولما اعترف الداعى أن الفضل والرحمة والشكر والنعمة من الله سبحانه، أثبت الحمد والنعمة له تعالى ، فقال : [للهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ]

٠

أى : المحامد الجميلة اللائقة لأوصاف الربوبية، والنعمة المتوالية لجميع أحوال المخلوقات، كل ذلك ثابت لجناب الملك القدوس لا لغيره٠
كما أن مبدأ كل ذلك منه، قوله تعالى : { وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِّ }٠
فإنه منعم لجميع الخلائق، فلا مستحق للحمد والمنة غيره٠

٠

فلما اعترف العبد، وأقر باستحقاق الحمد له تعالى عقب الحمد٠
فقال : [الْحَـمْدُ لله عَلَى الطَّاعَةِ وَالتَّوفيقِ]
أى : الحمد لله الذى جعلنى من أهل الطاعة والتوفيق٠

٠

والطاعة : من أعظم النعمة وأجلها لإيجابها النعمة الدائمة٠
والحمد على أعظم الأشياء : يوجب تعظيم المنعم٠
والتوفيق : أعظم من الطاعة، ولا يطلب التوفيق إلا بالطاعة٠

٠

فلذا قدم الطاعة فى الحمد على التوفيق، فصارت الطاعة مع التوفيق متلازمين٠
كما قال تعالى : { إِن تَنصُرُوا اللهَّ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ }٠
وقال تعالى : { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا }٠

٠

فالبداية : بالجهد من العبد، والجزاء بالهداية : من الله تعالى٠

وقال أهل التحقيق : " الذنب بعد الذنب عقوبة، والحسنة بعد الحسنة توفيق، فمن أذنب يعاقب بذنب آخر لازدياد العقوبة، ومن أحسن يوفقه بحسنة أخرى لازدياد الأجر "٠

٠

كما قال الله تعالى : { فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى }٠
{ وأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى }٠

٠

قال أهل التفسير المراد من اليسرى : الحسنة الأخرى٠
ومن العسرى : السيئة الأخرى٠

٠

وعلى هذا قيل : الشر يدعوا إلى الشر، كما أن الخير يدعوا إلى الخير٠
فلذلك قيل : لا يفوت أحد صلاة جماعة إلا بذنب٠

٠

وكان بعض الصالحين : إذا لم يقرأ حزبه، وترك ورده لمانع، يبكى ويقول :
" وما ذاك إلا بذنب أذنبته "٠

٠

كما روى عن سفيان الثورى، أنه قال : حرّمت علىَّ قيام خمسة أيام بذنب٠
قيل : ما ذلك ؟
قال : رأيت رجلاً يبكى، فقلت فى نفسى : هذا مُراءى٠

٠

ويؤيده قوله تعالى : { إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ }٠

٠

وروى أن رجلاً قال للحسن : إنى أبيت معافًا، وأحب قيام الليل، وأعد طهورى، فما بالى لا أقوم ؟ قال : ذنوبك قيدَتك٠

٠

قال أهل التفسير : حسنة الرجل وسيئته تؤثر فى نفسه وأولاده، كما أن حسنته تؤثر فى أهله٠

والدليل على تأثير الحسنة فى أولاده، قوله تعالى :
{ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ }

.

وقوله تعالى : { وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ }.

وقوله تعالى : { جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ }.
وهذا دليل على تأثير الحسنة فى الأصل والفرع معًا.

. .

وقوله -صلى الله عليه وسلم- : « إن الله ليصلح بصلاح الرجل أهله وولده ».
وقوله -صلى الله عليه وسلم- : « إن الله يرفع ذرية المؤمن فى درجته، وإن كانوا دونه فى العمل ».

.

فعلم من هذه الأقوال السابقة :

إن أهل الطريقة إذا أهملوا فى أعمالهم الموظفة، ليس ذلك إلا من شؤم أنفسهم، ومخالفة رضاء مرشدهم، فيجب عليهم الرجوع والتوبة حتى يوفقهم الله تعالى إلى أعمال الطريق تسهيلاً.

.

وأما إذا فات ما وظفه بسبب المرض، أو مشقة السفر، فليس من هذا القبيل لما فى صحيح البخارى، أنه قال : « إذا مرض العبد أو سافر، وفاته عنه ما وظفه فى النوافل، كتب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحً ». الحديث.

.

وأما إذا فات بسبب أشغال الدنيا، والغفلة أو النوم، فليس له ثواب ما فات.
وبعض المشايخ كانوا يقضون ما فات من وظائف بسبب النوم والمرض.
بناء على ما قاله -عليه الصلاة والسلام- :
« من نام عن حزبه من الليل، وعن شىء منه، فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كتبت له كأنما قرأه من الليل ». رواه مسلم. .
فالحاصل : ترك النوافل بسبب من الأسباب الغير مانعة شرعًا وعرفًا، إنما هو من شؤم نفس السالك، وعقوبته.

وإذا قلت أيها السالك : إن الزمان فسد، والمنكرون يطعنون علينا فنخاف من الفتنة.
قلنا : هذا من شؤم أنفسكم أيضًا، لأنكم إذا كنتم صادقين فى هذه الوظائف، لا يسلطون عليكم.
كما قال الله تعالى : { وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا }.
وقال تعالى : { إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ }.
وقال تعالى : { وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ }.
.
إن العبادة فى مثل هذا الزمان أفضل، لقوله -صلى الله عليه وسلم- :
« العبادة فى الهرج كهجرة إلىَّ ». الحديث.
فيجب عليكم التوبة، والجد فى أعمال الطريق كى يدفع الله عنكم إساءتهم.
.
قال كمل أهل الحقيقة : " إذا سألت التوفيق فابتدأ بالعمل ".
.
قال يحيى -رحمه الله تعالى- : " أغلق باب التوفيق على بعض عباده بستة أشياء :
أولها : تعلموا العلم، ولم يعملوا به.
والثانى : أكلو النعم، ولم يشكروا لها.
والثالث : صحبوا الصالحين، ولم يقتدوا بهم.
والرابع : أذنبوا الذنوب، ولم يتوبوا.
والخامس : دفنوا الأموات، ولم يعتبروا.
والسادس : وزنوا الأموال، ولم يتزودوا ".
.
فالواجب على السالك : أن يشكر الله على طاعته التى أدّاها، ليوفقه الله تعالى إلى طاعة أخرى.
كما قال أبو حنيفة -رحمه الله- لتلاميذه : " اشكروا على ما تفهموا من العلم، كى يزداد عملكم ".

ثم قال : [وَنَسْتَغْفِرُ الله الْعَظِيمَ] وإنما وصفه " بالعظيم " للمناسبة فى أنه لا يقوى الضعفاء إلا القوى العظيم، ليس لغيره حاجة.
لأن العظيم : من له قدرة كاملة على المغفرة وغيرهما.

.

[مِنْ كلِّ ذَنْبٍ] كبيرة كانت أو صغيرة، نعلمه أو لا نعلمه.
الذى وقع منا [عَمْدٍ] : وهو ما قصد فعله مع علمه أنه ذنب.
[وَسَهْوٍ] : وهو ما علم أنه ذنب لكن فعله بغفلة.
[وَخَطَأ] : وهو ما ظن أنه ليس بذنب ففعله ثم علم أنه ذنب.
[وَنِسْيَانٍ] : وهو ما علم أنه ذنب فنسى كونه ذنبًا ففعل.

.

[وَنُقْصَانٍ وَتَقْصِيرٍ] : وهما ما يقع فى الطاعات من ترك المستحبات والآداب والسنن المستحبة، وذلك من الصغائر والبدعة فى العبادة عند أهل الحقيقة، لكون تاركها محرومًا من الفضيلة، وكل ما يؤدى إلى حرمان الفضيلة فهو سيئة عندهم.
بدليل : " حسنات الأبرار سيئات المقربين ".

.

قال فى الشرح الكبير : " التفكر فى الصلاة بغير ما يتعلق بها
إن كان دنيويًا : فهو مكروه أشد الكراهة، بل مفسد عند أهل الحقيقة ؛ لفوات الركن الأصلى المقصود بالذات.
وإن كان أخرويًا : فهو ترك الأولى، فإن الإشتغال بالصلاة أولى من الإشتغال بغيرها من أمور الآخرة ".

.

وقال أيضًا : " التفات المصلى بقلبه الذى هو محل نظر الحق منه إلى شيئًا آخر، هذا غاية فى سوء الأدب معه سبحانه وتعالى ".

.

وعلى هذا يكون التقصير بدعة عند أهل الظاهر أيضًا، فيجب الإستغفار عقيب الصلاة.
كما قال فى " الوجيز " :
" إذا فرغ العبد من صلاته يجب عليه ثلاثة أشياء : الشكر، والعذر، والخوف.
الشكر : من وجه التوفيق، والعذر : من وجه التقصير، والخوف : من وجه الرد ". انتهى.

قال الله تعالى : { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ }.
وقال تعالى : { إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ }.
إلى غير ذلك من الأيات.
.
وروى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :
« لا ينظر الله إلى صلاة لا يحضر المصلى فيها قلبه مع بدنه ».
.
وقال -صلى الله عليه وسلم- :
« كم من قائم حظه من صلاته التعب ».
.
وقال -صلى الله عليه وسلم- :
« من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزدد بها من الله إلا مقتًا ».
.
وقال -صلى الله عليه وسلم- :
« من لم يخشع قلبه بطلت صلاته ».
.
وقال -صلى الله عليه وسلم- :
« ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل ».
.
يعنى لا ثواب فى الصلاة التى لا يحضر القلب فيها.
فعلم من هذا : إن القلب إذا لم يحضر عند الصلاة، ولا يحصل له الخشوع، فلا يكون لتلك الصلاة ثواب.
.
وقالوا : إنما يحصل الخشوع فى الصلاة :
إذا صلى بتمام شرائطها، وفرائضها، وواجباتها، وسننها، وآدابها، وتفكر معانى ما تلاه فيها، وبالعلم أنه لمن يصلى، وكيف يصلى، وسلب الكونين عن القلب، وربطه إلى جناب الملك القدوس بالكلية، وبعدم حسه أحوال ما سوى الله لكونه مستغرقًا فى أمور العبودية، ومهتمًا فى أن لا يخون فى أمانة الله، ويعد صلاته أنها آخر صلاته، ثم بعد الفراغ صار بين الخوف والرجاء.
فإذا لم يصلى السالك مثل ذلك، يجب عليه الإستغفار الكثير على إتيان الطاعة التى أداها على غير حقها.

ثم اعلم أيها السالك : أن شرط لقبول الصلاة الإخلاص والخشوع فيها٠
كذلك يعاقب صاحب الصلاة المردودة، لقوله تعالى :
{ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ } الآية٠

٠

قال فى الفتاوى : " فضل العبادة والورع : إنما يكون باستجماعهما الشروط والأركان، ومجانبتهما المفسدات والمكروهات، ومقارنتهما النية الصادقة، والإخلاص، والتقوى، وصونهما عن المحبطات والمبطلات٠
وحصول هذه بأسرها من أمثالنا متعسرة، بل متعذرة لا سيما الإخلاص والتقوى٠

٠

فوجب على السالك الإشتغال بتطهير القلب اشتغالاً كثيرًا ، فإن أكبر الكرامات أن يبدِّل خلقًا مذمومًا إلى خلق ممدوح٠

٠

والولاية العظمى والكرامة الكبرى : أن يطهر الإنسان قلبه من الأخلاق الرديئة٠
كذا قال الشيخ العسكرى -رحمه الله- فى " البدرية "٠

٠

وأجمع المشايخ على أن تحلية الظاهر بالفرائض، لا تفيد قبل تزكية الباطن بالعقائد الإسلامية اليقينية، ومن هذا ضل بعض أهل الطريقة لأنهم لا يجتنبون عن الكذب والفحش وأكل الحرام، ومع هذا يتلون أسماء الله تعالى، يتركون الفرائض ويهتمُّون بالنوافل، يجترؤن المنهيات، ويجتنبون المباحات٠

٠

والتقوى والرياضة فى هذا الزمان تكون :

—

بحفظ القلب واللسان وسائر الأعضاء، والتحرز عن الظلم وإيذاء الغير، وترك معاشرة الناس بغير احتياج، ويقنع بالقلب ولا يطمع بما فى أيدى الناس، ولا يفتش عن الناس وأحوالهم، ولا يسأل عن حل شىء وحرمته، ويحسن الظن بالمسلمين، ويجتنب المنهى عنه٠

٠

ويتشغل تارة بكلمة التوحيد سرًا وجهرًا ، أو أوراده السبعة، والتلاوة، وأعماله الظاهرة فى الطريق على وفق الطريق٠

٠

وتارة فى مصالح بيته وأولاده ونفسه، وما وجب عليه مصالحه على أمر الشرع٠

ثم اعلم أنه لما استغفر الداعى عن تقصيراته، وصار مرزوقًا بنعمة الإستغفار، وموفقًا بإتيانه، وجب عليه أن يحمد ربه، فأثبت له الحمد أولا، فقال :
[اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ حَمْداً يُوَافى وَيُكافِئُ مَزِيدَك]

.

أى نثبت لك الحمد الذى يقابل ويملأ جميع أنعامك علىَّ، وأنواع أفضالك إلىَّ.
وهذا الحمد لا يمكن العباد إلا منه تعالى.
أى : لا يمكن الحمد والمدح كما ينبغى إلا منه إليه.

.

فلما أثبت الداعى وأقر لله تعالى بالحمد الذى يقابل جميع نعمه، وذلك لا يكون إلا بذكر جميع المحامد، فاشتاق أن يحمد ربه بجميع المحامد، ولم يصبر على ذلك من شدة اشتياقه إلى الله تعالى، فقال :
[نَحْمَدُكَ بِجَمِيعِ مَحَامِدِكَ]

.

أى : نحمدك يا ربنا بجميع ما تُذكر به خيرًا وتمُدح، وبجميع ما فيه بيان جبروتك وفضلك وكمال ربوبيتك، ومجدك.

.

فإن قيل : إتيان مثل هذا الحمد عَجَّزَ الأنبياء، حتى أن نبينا -عليه الصلاة والسلام- اعترف بتقصيره فى معرفة جلال عظمة الله تعالى، فقال :
« اللهم لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت أنت على نفسك ».
فبأى وجه قال : [نحمدك بجميع محامدك] ؟

.

قلنا : فيه فائدة قصد المبالغة فى الذكر، وفائدة كونه منويًا على الحمد بالكمال، فنية المؤمن خير من عمله، وإظهار التشوق إلى العزيز الغفار، خصوصًا فى الدعوات والمناجات.
ومثل هذا ورد كثيرًا فى العاشقين.

.

كما أن نبينا -عليه الصلاة والسلام- إذا استولت عليه الأسرار الربانية، كان يقول :
« لى وقت مع الله لا يسعنى فيه ملك مقرب، ولا نبى مرسل ».
وإذا جاء إلى عالم الشهود، يقول : « إنما أنا بشر مثلكم ».

وقال أبو يزيد عند الاستغراق الإلهى : " ليس فى جبتى سوى الله ".
وقال عبد القادر الكيلانى : " قدمى هذا على رقبة جميع الأولياء ".
.
فالداعى المحب يزداد شوقه حين المناجاة والذكر، فيثنى بما يتعلق بالجذبات، ثم ينبسط فيجهل نفسه، ويتذلل، ويستحى، فيقول بما يتعلق بالعجز.
.
فلذا قال عقيب ذلك : [مَا عَلِمْنَا مِنْهَا وَمَا لَمْ نَعْلَمْ]
.
أى نحمدك بجميع ما نعلم من ذكر وثناء، وجميع ما لا نعلم، كأنه لو علم ما لم يعلم، ليحمد الله به أيضًا.
.
حكى : أن أبا يزيد لما جلس فى جلسة يومًا عند الأحباب، عارضه استغراق، فكبر جسمه حتى كاد أن لا يسع فى المسجد، ثم صغر فصار مقدار نملة حقيرة، فدفع الاستغراق.
فسئل عن ذلك ، فقال :
لما جلست نودى أن القطب قد مات أقيموا مكانه رجلاً صالحًا، فوقع فى قلبى أن أقوم مقامه، فكنت كبرت من سرورى.
ثم ندوى : أن الراهب الفلانى فى دار الحرب، اقطعوا زناره وأقيموه مقامه.
فخفت أن يشدوا زناره فى صلبى، فكنت أصغر من خوفى وحذرى. انتهى
.
ثم عقبه بالشكر للمناسبة، فقال :
[وَنَشْكُرُكَ عَلَى جَـمِيعَ نِعَمِكَ مَا عَلِمْنِا مِنْهِا وَمَا لَمْ نَعْلَمْ]
.
ومعناه : ونشكرك على جميع ما أنعمت علينا من نعم، معلومة أو مجهولة، محسوسة أو غير محسوسة، دنيوية أو دينية، ظاهرًا وباطنًا، سرًا وجهرًا.
.
وقد عرفت أن نعم الله علينا لا تحصى، وإنما قال هاهنا : على نعمائك، ولم يقلها فى نحمدك.
إشعارًا بأن الشكر لا يكون إلا فى مقابلة النعمة، والحمد أعم، ولم يخص شكرنا لما نعلم ولما لا نعلم، بل شكرًا أيضًا
[وَ عَلَى كُلِّ حَالٍ] من الأحوال التى هى فينا أو نحن فيها، نعمة أو نقمة أو غيرهما.

ثم ناسب أن يرجو ربه بتحويل حاله السيئة إلى الحسنة، فقال :
[يَا مُحَوِّلَ الحَالِ حَوِّلْ حَالَنَا إِلَى أَحْسَنِ الْحَالِ]
.
قيل فى معناه :
يا منقذًا من ظلمة الجهل إلى نور الكمال، ويا واهب العطايا من غير سؤال، حول حالنا من فتور العزم، وقصور الجزم، والوقوف مع عادات الطباع، والركون إلى حب الزوائد، إلى صدق النية، واليقين، واستلذاذ العبادة.
.
وقال أهل التحقيق :
أحسن الحال للسالك : أن يدوم فى أعماله، ويسقط محبة الدنيا من قلبه، ويقنع بالقليل من الدنيا، ولا يشغله شىء عن طاعته، ويكون له مرشدًا يرشده طريقًا مستقيمًا، ويجعل مرشده بمنزلة روحه فى جسده، لما قال أهل الحقيقة :
" من لا شيخ له فالشيطان شيخه، ومن لا ورد لا وارد له ".
.
كما أن داود الطائى لما قرأ على أبى حنيفة -رحمه الله-، تزهد وصار مريدًا لحبيب العجمى، وبلغ درجة الكمال من التصوف، واتفق على فضله وكماله وزهده علماء عصره، حتى قالوا فى شأنه :
" لو جاء داود فى الأمم السالفة، لذكره الله تعالى بالخير فى كتابه الكريم ".
.
وحكى : أن بعض الصالحين رأى فى المنام أن الله تعالى قال لأبى حنيفة :
أكتب أسماء أصحابك، فإن الله تعالى قد غفر لهم، فكتب فى أول الجريدة اسم داود الطائى لزهده، وفى آخر الجريدة اسم أبى يوسف مع غزارة علمه ؛ لاشتغاله بأمور الناس.
.
وحكى : أن داود الطائى لما مات، سمع من الهاتف " أطلقوا داود من السجن ".
فجميع هذه الفضائل ببركة زهده واسترشاده، لأنه لم يكتف بالعلم، بل سعى فى عمله بالإخلاص.

كما قال قدوة المحققين : أن أبانا آدم -عليه السلام- لما لم يكتف بالعلم، وكان فى دوام الإستغراق فى الأسرار الإلهية، فلم يعص الله قط.
ثم اكتفى بالعلم، واشتغل بسوى الله وهى : حواء، فبَعُدَ من المشاهدة، فعوقب بأكل الشجرة بواسطة من يحبه مما دون الله فغوى، ولهذا سميت تلك الشجرة بشجرة العلم.
.
فانظر أيها المتعصب :
هل فى الإسترشاد فيض، وأنت تقول لأهل الطريقة طريقكم ضلالة، ومرشدكم شيطان.
.
اعلم أن طريقنا طريق داود الطائى، وحبيب العجمى وجنيد البغدادى، وحسن البصرى، وغيرهم من المشايخ العظام، ومرشدنا وسندنا ؛ أبو بكر وعمر وعثمان وعلى، ثم التابعين ثم الأمثل فالأمثل إلى يومنا هذا.
ونبينا ورسولنا محمد -عليه الصلاة والسلام- رحمة لجميع الخلائق ومرشدهم.
وإلهنا وخالقنا رب العالمين وحده لا شريك له.
.
قال فى الرسالة القشيرية، وعوارف المعارف، وإحياء علوم الدين، وأكثر كتب السلف :
[اعلم أن الإمام والمقتدى به فى دقائق الطريقة وحقائقها، للطائفة الجليلة الموسومة بالصوفية هو : " أمير المؤمنين علىٍّ بن أبى طالب -رضى الله عنه- ".
فعلوم جميع الصوفية مأخذوه من علىٍّ -رضى الله عنه- : وهو الإمام فى جميع المقامات، وهو البحر المحيط فى الحقائق والمعارف الإلهية، سيما فى إشارات الآيات وبطونها.
ثم الإمام والمقتدى للطائفة الجليلة فى المشاهدة : أبو بكر الصديق -رضى الله عنه-.
ثم الإمام لهم فى جميع لبس الخرقة والتجريد : عمر بن الخطاب -رضى الله عنه-.
ثم الإمام لهم فى التسليم والرضا : عثمان بن عفان -رضى الله عنه-.
وإمامهم سيدنا محمدًا المصطفى -عليه الصلاة والسلام-، قال :
« عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين »] .انتهى

فإن قلت : أنتم لستم تعملون مثل عملهم من المشايخ السالفين.
قلنا : قال النبى -صلى الله عليه وسلم- : « المرء مع من أحب ».
لما قال فى الصحيحين فى رواية مسعود -رضى الله عنه- قال :
جاء رجل فقال : يا رسول الله كيف تقول فى رجل أحب قومًا ، ولم يلحق بهم.
فقال -صلى الله عليه وسلم- : « المرء مع من أحب ».

.

قال فى " شرح المشارق " : يعنى من أحب قومًا بالإخلاص يكون من زمرتهم، وإن لم يعمل مثل عملهم.

.

وفيه حث أيضًا على محبة الصالحين :
قال أنس -رضى الله عنه- : ما فرح المسلمون بشىء مثل فرحهم بهذا الحديث.

.

وأيضًا قال فى الصحيحين : « أن رجلاً قال : يا رسول الله متى الساعة ؟
قال : ما أعددت لها ؟ قال : يا رسول الله ما أعددت لها كثير صيام ولا صدقة، ولكنى أحب الله ورسوله.
فقال : أنت مع من أحببت ». انتهى.

.

وأن تقليد الصالحين فى بعض الأعمال محبة لهم، رجاء أن يلحقهم لحديث :
« من تشبه بقوم فهو منهم ».

.

فانظروا أيها المتعصبون بنظر الإنصاف، لا بالاعتساف، وتفكروا فى أقوالكم التى لا تليق بأهل الإيمان، لأنكم تحقرون غيركم، وتضيقون، وأنتم تزكون أنفسكم، وتقولون بألسنتكم ما ليس فى قلوبكم، بالتقرب، والإعطاء، وتمسكون، فكأن رحمة الله خاصة لكم، أو أنتم مالكون لخزائن رحمة الله، فترحمون من طيب قلوبكم بالتقريب والإعطاء، وتمسكون غيره !!

.

هل فى شأنكم قوله تعالى : { قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا }.

وأنتم تسمعون الوعظ ليلاً ونهارًا ، وتحملونه غيركم سرًا وجهارًا ، ولا تتعظون أصلاً، كما قيل : " النصيحة سهل، وقبولها مشكل ".
أى عسير لأهل الرياء والسمعة، لأن قبول الوعظ لا يشكل على المخلصين.
.
لقوله تعالى حكاية حال إبليس : { وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ }
ولقوله تعالى : { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ }
ولقوله تعالى : { وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا }
.
فانصف لا تنتصف، أصلح نفسك لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، والله أعلم بحقيقة الحال.
.
ثم قال : [أَعْدَدْتُ لِكُلِّ هَوْلٍ لا إِلَهَ إلا اللهُ]
.
لما حمد ربه وشكر بعدما أثناه، ناسب أن يذكر ربه بأذكار رجاء فى الآثار، كل واحد منها مناسب لعصمة السالك من مظان الهلاك، وباعث لتدارك عفو تقصيراته.
لما جاء فى الأخبار، أنه روى مرفوعًا : أن النبى -صلى الله عليه وسلم- قال :
« إذا كان يوم القيامة سئل ابن آدم فى عشرة آلاف مواضع، من قرأ كل يوم هذه الكلمات العشرة نجى من هذه العشرة آلاف سؤال بفضل الله ».
.
وقال الشيخ على الترمذى : روى عن النبى -صلى الله عليه وسلم-، أنه قال :
« من قرأ هذه الكلمات العشرة عقيب كل مفروض، نجى من سكرات الموت وأهوالها ».
.
وروى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :
« للموت سبعين جذبة، أهونها كالضرب بالسيف سبعين مرة.
فقالوا : وما ينجى من ذلك يا رسول الله ؟
قال : عشرة كلمات من علمهن وقالهن نجا من ذلك ».

وتلك العشرة هذه قيل فى معناها :
هيأت بالقلب واللسان أن أذكر هذه التسبيحات والأذكار، عند محالها٠
يقال : أعددت بالسلاح، إذا كان فيه خوف اللصوص فى الطريق٠
كأن الداعى قال : أعددت أسلحة هذه الأذكار لمدافعة لصوص الشياطين فى طريق الله تعالى، بتوفيقه٠

٠

أى : نفيت الخواطر الغيرية عند محاربة الأعداء بأسلحة هذه الأذكار على الدوام٠
والهول فى اللغة : الخوف من شىء٠
وههنا المراد من الخوف : خوف الإيمان بقرينة كلمة التوحيد٠

٠

أى : هيئت بأن أقول عند كل وقت فيه خوف الكفر أو الشك أو الظن، من قول أو عملا أو اعتقاد، أنه لا إله إلا الله، إقرارًا باللسان، وتصديقًا بالجنان٠
فإن قائلها يخرج من ظلمة الكفر إلى نور الإسلام، ويدخل جنة ربه٠

٠

لما روى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قيل له : هل للجنة ثمن ؟
فقال : « نعم " لا إله إلا الله " »٠
ثم قيل له : من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله ؟
قال : « من قال لا إله إلا الله خالصة من نفسه »٠

٠

وروى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :
« يؤتى بالرجل يوم القيامة إلى ميزان، فيخرج له تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مدَّ البصر، فيها خطاياه وذنوبه، فتوضع فى كفة الميزان، ثم يخرج قرطاس فيها كلمة " لا إله إلا الله " فتوضع فى الكفة الأخرى، فترجح على خطاياه »٠

٠

« ومن قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه، ومدها بالتعظيم، يكفر الله تعالى عنه أربعة آلاف ذنب من الكبائر، فإن لم يكن له أربعة آلاف ذنب، فيغفر له من ذنب أهله، وجيرانه »٠
وفى رواية أخرى : « أربعون كبيرة »٠

وقال -صلى الله عليه وسلم- : « من قال " لا إله إلا الله " لم يدخل النار »٠
قالوا فى هذا الحديث : إشارة إلى أن قائلها لا يدخل النار بالكلية، لأن دخول الجنة يجوز بعد أن يدخل النار لبعض أهل الكبائر٠

٠

وحكى : أنه لما أسلم دحية -رضى الله عنه- قال : يا رسول الله إنى ارتكبت فاحشة، ما كفارتها حتى أكَّفِر ؟ قال : ما هذه يا دحية ؟
قال : إن لى سبعين بنتًا استنكفت أن أزوجهن، فقتلتهن جميعًا بيدى٠
فتحير النبى -صلى الله عليه وسلم- من ذلك، فنزل جبريل -عليه السلام- وقال :
يا محمد إن الله تعالى يقرئك السلام، ويقول لك :

قل لدحية لما قلت : لا إله إلا الله، غفرت لك كفر ستين سنة، وسيئاتك، فكيف لا أغفر لك قتل بناتك ؟
فبكى النبى -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه، وقال :
« إلهى غفرت لدحية كفر ستين سنة مع فاحشة، بشهادة أن لا إله إلا الله مرة واحدة، فكيف تغفر للمؤمنين خطاياهم بشهادات كثيرة ؛ بقول صادق، وفعل خالص »٠

٠

وقال النبى -عليه الصلاة والسلام- : « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم »٠

٠

ثم اعلم أيها السالك :
إذا أردت أن تجد فيض كلمة التوحيد، واظبها بتلقين الشيخ تلقينًا خاصًا، كما لقن النبى -صلى الله عليه وسلم- عليًّا -رضى الله عنه-، وستعرف إن شاء الله تعالى٠

٠

وكان الجنيد يقول : لما لقننى شيخى سرى السقطى كلمة التوحيد، ما كنت أطالع كتبًا من كتب الشريعة والطريقة، إلا كنت متبحرًا فيها٠
وكان يقول : ما نزل من السماء علم وجعل الحق للخلق إليه سبيلاً، إلا وجعل لى فيه حظًا ونصيبًا٠

٠

وجميع المشايخ والسالكين وجدوا ثمرة التوحيد بتلقين المشايخ، وهو الاسم الأول فى الأصول كما عرفت، وبه ينكشف أحوال القبور، وهذا الكشف أول مراتب السلوك٠

وإذا قيل : من أين أخذتم التلقين ؟ قلنا : عليه إجماع المشايخ والصالحين.
واستدلوا بحديث ما روى الإمام أحمد والبراز والطبرانى، وغيرهم، بإسناد حسن :
أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : كان يومًا بمجمع من أصحابه، فقال :
« هل فيكم غريب ؟ » يعنى أهل الكتاب.
.
قالوا : لا، فأمر بغلق الباب، وقال : « ارفعوا أيديكم وقولوا لا إله إلا الله ».
قال شداد بن أوس : فرفعنا أيدينا ساعة، وقلنا : لا إله إلا الله.
ثم قال : « اللهم إنك بعثتنى بهذه الكلمة، وأمرتنى بها، ووعدتنى عليها الجنة، وإنك لا تخلف الميعاد ».
ثم قال : « ألا فأبشروا فإن الله قد غفر لكم .. » الحديث.
.
وروى أيضًا أنه -صلى الله عليه وسلم- لقن عليًّا تلقينًا خاصًا، لما روى بحديث حسن :

« أن عليًّا -رضى الله عنه- طلب التلقين من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-
فقال : يا رسول الله كيف أذكر ؟
فقال -صلى الله عليه وسلم- :« غمض عينيك، واسمع منى ثلاث مرات، ثم قل أنت : لا إله إلا الله ثلاث مرات، وأنا أسمع ».
فقال -عليه السلام- ثلاث مرات لا إله إلا الله مغمضًا عينيه، رافعًا صوته.
والنبى -صلى الله عليه وسلم- يسمع ». انتهى
.
وأنت أيها السالك كن دائمًا على كلمة التوحيد ؛ فى الجهر والسر، لعل الله يثبت ذلك عند الممات، وبعده، لقوله تعالى : { يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ }.
.
ولقوله -صلى الله عليه وسلم- : « تموتون كما تعيشون ».
فلهذا يأمر المرشد المبتدئ بدوام ذكر كلمة التوحيد، أكثر من سائر الأذكار والأسماء، حتى إذا كان فى آخر حاله، ختم عليه إن شاء الله تعالى.

* الإنكار على أهل التصوف، وظهور المعتزلة *

قال أهل الحقيقة : " تقليد الصالحين موجب الإلحاق بهم ".

.

وجاء فى الأخبار :

أن الله تعالى لما أغرق فرعون وجنوده، أنجا منهم رجلاً مضحاكًا يهزء من موسى عند فروعون فى أكثر الأحوال.

فقال موسى : إلهى، وهو أكبر عدوى فبأى سبب أنجيته من الهلاك ؟

قال : لتقليده من أحببته، فلا يضل من شبه نفسه بأحبائى.

قيل : ثم هداه الله تعالى فأسلم.

.

فلا تكن أيها السالك مغمومًا ومضطربًا بأذيتهم لك، فإن إذاية المنكرين لأهل العبادة قديمة.

قيل : بلاء المرء على حسب دينه.

.

وروى عنه -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :

« أشد البلاء على الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل ».

وقيل : " من لا بلاء له لا دين له ".

.

فالنعمة العظمى والعصمة الكبرى للسالكين : أن يسخر منهم الناس، ويطعنون طاعاتهم دائمًا، فبذلك يتخلصون من شوب الرياء والكبر والعجب وغير ذلك.

.

وجميع الصالحين كانوا يَسْتَهْزِءُونَهم الناس، ويؤذونهم بأنوا ع الأذى ؛

بعضهم قتل، وبعضهم نفى، وبعضهم ضرب، وما بدلوا عقائدهم عن طريق الحق.

.

قال تعالى : { وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ }

قال أهل التفسير : من سلك مسالك الصالحين يزاحمه عدو، أيضًا كلما كانت تقواه أكثر يكون عدوه أشد، وإن ابتداء هذا الطريق أسس بالبلية.

كما ذكر فى أول " شرح العقائد " :
أن واصل بن عطاء اعترض على الحسن البصرى الذى هو رئيس المشايخ الواصلين، واعتزل "واصل " عن مجلس الحسن، وجلس فى مكان آخر، فتبعه قوم وأضلهم فصاروا كلهم معتزلين.
وابتدأ أهل المعتزلة " واصل ابن عطاء الله "، وسمى المعتزلة : لاعتزاله عن مجلس الحسن.
.
فافهم أيها السالك هذه القصة، واعتبر من هذا، ودم على أعمالك وإصلاح سرك، ولا تضيع نور قلبك بتشكيك المشكك، ولا تجلس معهم فتظن أنهم أصدقاؤك، فيُضلوك.
.
قال الله تعالى حكاية عن أحوال النادمين يوم القيامة :
{ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولا }. والله أعلم
.
[وَلِكُلِّ نِعْمَةٍ الْحَمْدُ لله]
أى : هيئت بالقلب واللسان أقول لكل حال من الأحوال : الحمد لله.
وإنما عبرنا بقولنا فى حال من الأحوال ؛ لأن النعمة لا تتفرغ عن العبد فى أى حال من الأحوال، ولا تنفصل أبدًا ، ما دام العبد مستغرق فى نعم الله على كل حال، فالحمد والشكر من تمام النعمة، وسبب لمزيدها .
.
روى عن أبى هريرة -رضى الله عنه- عن النبى -صلى الله عليه وسلم-، أنه قال :
« إذا أعطى الله عبدًا نعمة، فقال العبد : الحمد لله، يقول الله تعالى : انظروا إلى عبدى أعطيته ما لا قدر له، وأعطانى ما لاحدَّ له.
.
[وَلِكُلِّ رَخَاءٍ الشُّكْرُ لله]
الرخاء : سعة العيش، وحسن الحال.
وبما أن الشكر لا يكون إلا بمقابلة النعمة، فذكر الرخاء فى الشكر، والنعمة فى الحمد .
فالنعمة عند أهل التصوف هى :
" كل ما جاء بتقدير الله ضرًا ونفعًا، بناء على أن الخير ما اختاره الله تعالى ".
فعلى هذا تطلق النعمة على البلاء عندهم؛ لكون البلاء مؤديًا إلى النعمة الأبدية.
أما الرخاء : فلا يطلق إلا على النعمة الدنيوية.
قال أهل التحقيق : إذا شكر العبد فى الرخاء، يذكره الله تعالى فى الشدة.

[وَلِكُلِّ أُعْجُوبَةٍ سُبْحَانَ الله]
الأعجوبة : كل ما تعجز العقول عن درك وجهه، وتستغربه، ولا يتصوره العقل فى الرَّوِيَّة.
وإنما خص فيها ذكر " سبحان الله " للتنزيه.
.
يعنى : أنه تعالى منزه عن العجز فى درك كل شىء عجيب، فإنه خالقه وموجده.
وقيل فى وجهه : أن كل ما يرى عجيبًا أو أعجوبة، ليس هو فى نفس الأمر كذلك، وإنما هو بقصور العقول عن الوقوف على حقيقة حاله ؛ لأن الله تعالى ما أوجد شيئًا إلا فى محله باقتضاء الحكمة الإلهية.
فنزه سبحانه عن أن يوجد فى موجوده أمورًا استغربتها العقول التامة، والأذواق السليمة.
.
ومن هذا قيل : لا يذكر اسم النبى -صلى الله عليه وسلم- عند الرعد ، وعند عرض السلعة الجميلة، وعند رؤية الهلال، كما يذكره الجهلة، بقولهم :
الصلاة والسلام عليك يا رسول الله عند الرعد، وصلى على النبى عند عرض السلعة، واللهم صلِّ على سيدنا محمد عند رؤية الهلال.
بل يقال عند ذلك : سبحان الله، أو الله أكبر.
.
روى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :
« لما خلق الله تعالى العرش أمر الحملة بحمله، فثقل عليهم.
فقال عز وجل : قولوا : سبحان الله.
فقالت الملائكة : سبحان الله فيسّر عليهم حمله ».
.
[وَلِكُلِّ ذَنْبٍ أَسْتَغْفِرُ الله]
الإستغفار : دواء لكل داء.
قال الله تعالى : { اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا }.
.
وفى هذه الآية إشارة إلى أن الإستغفار سبب المغفرة، ويزيد النعمة، ويكثر الأولاد.
أجمع على هذا أهل التفسير.

وعن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال : سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول :
« إن لكل داء دواء، ودواء الذنوب الاستغفار »٠

٠

وروى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :
« ما من بنى آدم إلا له صحيفة يكتب فيها عمله بالنهار، وصحيفة يكتب فيها عمله بالليل، ثم تطوى الصحيفتان فإن كان فيهما استغفار ولو لذنب واحد، تلألأ نورًا، وإن لم يكن فيهما استغفار طويتا مسودتين مظلمتين »٠

٠

وروى عنه -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :
« من لم يستغفر الله فى كل يوم مرتين فقد ظلم نفسه »٠
أى : صباحًا ومساءًا٠

٠

وروى عنه -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :
« من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجًا، ومن كل هم فرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب »٠
أى : لا يرجو، ولا يخطر بباله٠

٠

وروى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :
« من قال أستغفر الله العظيم الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه، غفر له وإن كان فر من الزحف »٠
أى : من الحرب مع الكفار، حين لا يجوز الفرار، فإن الفرار من الكبائر٠

٠

فينبغى للسالك أن يستغفر بالقلب، ويعزم أن لا يعود إلى الذنب أبدًا، وإن عاد بعد سبعين مرة٠

٠

كما سئل سعيد بن المسيب فى قوله تعالى : { فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا } ؟
قال : هو الرجل الذى يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب٠
يعنى : يتوب أن لا يعود ثم يذنب٠

وسئل الحسن عن رجل يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب ثم هكذا ؟
قال : ما أعرف هذا إلا من أخلاق المؤمنين٠
يعنى : أن المؤمن كلما أذنب تاب .
٠
وعن عليٍّ -كرم الله وجهه- أن رجلاً سأله فقال : إنى أذنبت ذنبًا٠
قال له : تب ثم لا تعد٠
قال : إنى فعلت ثم عدت٠
قال : تبت إلى الله ثم لا تعد٠
قال : إنى قد فعلت ثم عدت٠
قال له : ثم تب إلى الله، ثم لا تعد٠
فقال له الرجل : إلى متى ؟
قال : حتى يكون الشيطان هو المسحور (أى الممنوع)٠
فقال له الرجل : قال النبى -صلى الله عليه وسلم- :
« من تاب أولاً فتاب الله عليه، ومن تاب ثانيًا فتاب الله عليه، ومن تاب ثالثًا فتاب الله عليه، ومن تاب رابعًا لم يتب الله عليه » ؟
قال :
هو محمول على توبة لأربع مرات مع العود فى معصية واحدة بعينها، لا فى جنس المعاصى، فإن سبب وروده فى شرب الخمر وحده٠ انتهى
٠
فيجب على التائب :
أن يتوب بلسانه وقلبه وأركانه، بعزيمة أن لا يعود، فإن التوبة باللسان دون غيره خطية أخرى٠
فلذلك استحسن المحققون أن يتوب المبتدئ عند المرشد، لقوة تأثير المرشد فى استقامة التوبة على نفس المبتدئ٠

واعلم أن الاستغفار على أقسام، وذلك أن الذنب على قسمين :
ذنب إلى الله فقط، وذنب إلى الناس.

أما الذنب إلى الله : على قسمين ؛ ترك الأوامر، واتيان المناهى.

—

أما الأول : فيقضيها، ثم يستغفر ؛ كالصلاة والزكاة وغيرهما .
وأما الثانى على قسمين :
قسم فيه تعلق حق الغير؛ كالزنا، والغيبة.
وقسم لم يتعلق ؛ كشرب الخمر.
أما الأول : فبالإستحلال ثم الاستغفار.
وأما الثانى : فبالاستغفار.

.

وأما الذى إلى الناس فهو نوعان :

—

مالى :
كالغضب والسرقة وأكل مال الغير بغير إذن، وإتلافه إما باليد أو بشهادة الزور، أو بالسعى إلى ظالم، أو بغيرها .
وتوبة ذلك : برد ما هدر وأخذ، ثم الإستحلال من المالك، ثم الاستغفار، وإن صدرت هذه الأشياء عن صبى إذ يلزم الصبى غرامة مالية، وإن مات المالك فبالإستحلال من الورثة إن وجدت، وإلا إذ لم يعلم المالك، فيدفع ما أخذ أو قيمته للفقراء بنية أن يكون وديعة ذلك عند الله، يوصلها إلى صاحبها يوم القيامة.

.

وغير مالى وهو نوعان :
بدنى ؛ كالجرح والضرب، وذلك فبالإستحلال ولو بالعطية.
وقلبى ؛ كالشتم والإستهزاء، وذلك بالإستحلال إن أمكن، وإلا فبالتضرع إلى الله، والدعاء، والتصدق لمن له الحق.

وإن كان فى هذه الذنوب حدود، فإن تقادم يسقط، وإلا فلا٠

٠

وأما إذا كان الحق للبهائم : بأن يضربها بغير سبب أصلاً، أو ضرب وجهها، أو يحملها فوق طاقتها، أو يعلفها من غير شبع عند عدم الضرورة، مشكل جدًا ٠

٠

وكذا إذا كان الحق للكافر : لم يستحله فى الدنيا، فإن خصومتهما يوم القيامة أشد، إذ لا طريق لإرضائهما٠ انتهى

٠

خلصنا الله من المعاصى والعقوق، وخلى سبيلنا عن المظالم والحقوق٠آمين

٠

[وَلِكُلِّ مُصِيبَةٍ إِنَّا لله]

والمصيبة : كل شىء يؤذى المؤمن٠

وقيل فى معناه : نحن عبيد الله فى ملكه وقبضته، إن عشنا فعليه أرزاقنا، وإن متنا فإليه مآبنا ومردنا ومرجعنا، فكنا متوكلين عليه٠

ويقال فى معناه : إنا رضينا وأطعنا ما أصابنا فى الله، وسلمنا وفوضنا أمورنا وأنفسنا فى الدنيا والآخرة إليه٠

٠

فينبغى للسالك أن يسترجع من كل ضرر ؛ قليلاً أو كثيرًا، فى وجع النفس، أو نقص المال، ومتى تذكر يسترجع نيلاً للأجر الجزيل، لما روى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال : « من استرجع بعد مصيبته جدد الله تعالى أجرها كيوم أصيب بها »٠

٠

وروى عن عكرمة -رضى الله عنه- أنه قال :

طفئ سراج النبى -صلى الله عليه وسلم-، فقال : إنا لله وإنا إليه راجعون٠

فقيل يا رسول الله : أهو مصيبة ؟

قال : نعم، كل شىء يؤذى المؤمن فهو له مصيبة »٠

وقال -صلى الله عليه وسلم- : « ما يصيب من وصب ولا نصب ولا سقم ولا أذى ولا حزن، حتى الهم يهمه إلا كفر الله به من خطاياه »٠ كذا فى المصابيح٠

٠

وفى هذا الحديث : بشارة للمؤمن لأن المؤمن لا يخلو من ذلك البتة، كما روى إنه لما نزل قوله تعالى : { مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ }

قال أبو بكر -رضى الله عنه- : كيف الفرح بعد هذه الآية ؟

فقال -صلى الله عليه وسلم- : « يا أبا بكر ألست تمرض، أليس يصيبك الحزن والأذى، فهذا ما تجزون به »٠

٠

وقال النبى -صلى الله عليه وسلم- : « ليسترجع أحدكم فى شسع نعله إذا انقطع، فإنها من المصائب »٠

٠

وقد مدح الله تعالى المسترجعون فى قوله تعالى :

{ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا للهِّ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ }٠

٠

قال أهل التفسير : لم يعط أمة من الأمم { إِنَّا للهِّ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ } عند المصيبة إلا أمة سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم-٠

ألا ترى إلى يعقوب -عليه السلام- حين أصابه ما أصاب، لم يسترجع وقال :

{ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ }٠

وسيأتى إن شاء الله تعالى بيان فضائل الصبر على المصيبة، ومراتبها فى شرح " وبالقضاء الراضيين "٠

٠

[وَلِكُلِّ ضِيقٍ حَسْبِىَ الله]

الضيق : كل وقت فيه صعوبة وكربة على العبد، دينيًا أو دنيويًا فى الدنيا والآخرة٠

فيجعل الله تعالى لكل ضيق مخرجًا، لا يشترك فيه أحد، ولا يستعين من أحد٠

كما قال الله تعالى : { وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا }.
ومن ألطافه الخفية إذا ضاق حال المؤمن عند الموت ؛ باستيلاء الشيطان، وأنواع العقوبات، ولا يقدر أحد أن يدفعها عنه إلا هو، حين يدفع عن المؤمن جميع المكاره، ويكرمه بالتبشير ب { أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ } ثم يغفر له من لطفه.

.

كما قال عز وجل : { فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ }.
يدفع الله تعالى عن المؤمن المكاره، ويخرجه من الضيق فى الدنيا والآخرة.
فألطافه سبحانه غير متناهية، حسبنا الله ونعم الوكيل، بشرنا فى كل ضيق وعليل.

.

[وَلِكُلِّ قَضَــاءٍ وَقَدَرٍ تَوَكَّلْتُ عَلَى الله]
أى : توكلت عليه، وفوضت أمرى إليه فيما جاء بتقديره، نعمة كانت أو نقمة.
فإن الله تعالى وعد المتوكلين فى قوله تعالى : { وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ }.

.

وروى عن عبد الله أنه قال : قال النبى -صلى الله عليه وسلم- :
« من قال عند هم يهمه عشر مرات حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت، وفوضت أمرى إليه ، وهو رب العرش العظيم، أذهب الله همه ». الحديث

.

كما أن إبراهيم -عليه السلام- فوض أمره إلى الله، فصارت النار بردًا وسلامًا .
وموسى -عليه السلام- فوض أمره إلى الله حين ذهب إلى الطور، فأمن من فتنة فرعون.
وأم موسى حين ألقت موسى إلى البحر، نجا موسى من الغرق.
وفوض سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- أمته إلى الله، فأبقى الله دينه إلى يوم القيامة، وغير ذلك أكثر من أن يحصى من الأنبياء والأولياء.

.

قال الله تعالى : { وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }.
وقال تعالى : { أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ }.

.

وقال النبى -صلى الله عليه وسلم- : « لو أنكم تتوكلون على الله تعالى حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصًا وتروح بطانًا ».

.

قال بعض أهل المعرفة : التوكل طرح البدن فى العبودية، وتعلق القلب بالربوبية، وغض البصر عن الدنيا، وقطع القلب منها، وأن لا تطلب لرزقك خازنًا غير الله تعالى.

.

وقال الجنيد : ليس التوكل الكسب وترك الكسب، لكن التوكل سكون القلب إلى موعود الله تعالى.

.

اعلم أن : التوكل فرض على كل مسلم، ولا يخرج من التوكل من أكتسب أو أتجر أو زرع، إذا كان فى اعتقاده أن الرزق من الله لا من الكسب.
وأما إذا قال : الكسب سبب بدون تصوير مسبب الأسباب فهو مشرك.

.

فوجب على المكتسب أن لا يرفض لأجل كسبه ما فرض عليه أو وجب، وينوى فيه الإنفاق والإياس من الناس، ولا يزيد فوق الكفاية إلا بنية التصدق، ولا يخون ولا يحتال فيه.
ويعتبر بأن ثواب الآخرة لا يكون إلا بالأعمال، كما أن المال لا يزيد إلا بالاكتساب.
ويعطى ما فضل من عياله للفقراء.

.

كما قال -صلى الله عليه وسلم- : « يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ أَنْ تَبْذُلَ الْفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ وَأَنْ تُمْسِكَهُ شَرٌّ لَكَ وَلَا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى ».
رواه البخارى ومسلم.

.

كما قال العلماء : التوكل أن لا تعصى الله من أجل رزقك، والاشتغال بالأسباب سنّة، ورؤية الرزق من الله فريضة.

.

قال شقيق ابن إبراهيم -رحمه الله تعالى- فى قوله تعالى : { وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ }.
يعنى : أن الله تعالى لو رزق العباد من غير كسب، لتفرغوا فتفاسدوا ، ولكن يشغلهم بالكسب حتى لا يتفرغوا للفساد. انتهى.

.

فمن ترك الكسب وطمع فى المخلوقين ؛ فهو متواكل لا بمتوكل، فكيف إذا خدع أو كذب فى كسبه، أو فعل شيئًا مما لا يجوزه الشرع، واشتغل بجمع المال فوق الكفاية، أو ترك فرضًا بسبب شغله، فهو من الخاسرين فضلاً عن أن يكون من المتوكلين.

ثم اعلم أيها السالك : أن التوكل أحد الشروط العشرين للمريد، والتفويض كذلك.

كما أن الشيخ العسكرى -رحمه الله- اشترط للمريد المبتدئ عشرون شرطًا فى البداية، اثنان منها ؛ التوكل والتفويض، فاطلع هناك

.

[وَلَكُلِّ هَمٍّ وَغَمٍّ مَا شَاءَ الله] وذلك أيضًا من التفويض.

.

قيل : الهم من النفس، والغم من القلب، والهم سهل الزوال بخلاف الغم فإنه يعسر زواله إلا ما شاء الله بزوالهما، ولا يمنع شىء مشيئته، ولا يزلهما، فعال لما يريد، يحيى ويميت، ويغنى ويفقر، ويعز ويذل، ويهدى ويضل، وغير ذلك، كل ذلك بإرادته ومشيئته.

.

ومن هذا تحير العارفون ووله السالكون، فى كون العبد شقيًا بعد أن يعمل عمل السعادة، وكونه سعيدًا بعد أن يعمل عمل الشقاوة.

مثل إبليس وبلعام وبرصيصا، وغيرهم، كما فى قوله تعالى :

{ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ }

وقوله تعالى : { فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ }

وقوله تعالى : { كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ }

.

وقال النبى -صلى الله عليه وسلم- : « إنما الأعمال بالخواتيم ». رواه الشيخان

وفسره المحدثون : بأنه رُب كافر متعند يسلم فى آخر عمره، ويختم له بالسعادة.

ورُب مسلم متعبد يسلب إيمانه، فيختم له بالشقاوة.

.

وحكى : أن شابًا تاب فى مجلس حاتم، فسأله حاتم : كم سنة نبشت ؟ قال : اثنى عشر.

قال : كم قبر نبشت من المسلمين ؟ قال : سبعة آلاف قبر مسلم.

قال : كم قبر وجدت صاحبه على غير القبلة ؟

قال : وجدت ثلاث مائة صاحبه على القبلة، والباقين على غير القبلة.

فغشى على حاتم، ثم بكى كثيرًا ومن حوله.

فقال : هذا كفاكم نصيحة وعبرة.

قال سهل : رأيت كأنى أُدخلت الجنة، فرأيت ثلاثمائة نبى، فسألتهم : ما أخوف ما كنتم تخافون فى الدنيا ؟ قالوا : سوء الخاتمة.

.

وحكى : أن ابن أدهم -رحمه الله- اجتمع عنده قومه، والتمسوا منه نقل الحديث.

فقال لهم : إنى مشغول بهمّ أربعة أشياء، فلا أتفرغ لما طلبتم.

فقيل له : فما ذلك الشغل ؟

قال أحدها : فى يوم الميثاق إذ قال الله تعالى لذرية آدم : { أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ }

قال بعضهم بلى، وبعضهم نعم، فلا أدرى من أى الفريقين أنا .

وثانيها : حيث صورنى فى رحم أمى، فقال الملك المصور الموكل فى الأرحام :

يا رب هو شقى أم سعيد ؟ فلا أدرى كيف كان الجواب.

وثالثها : حيث يقبض روحى ملك الموت، فيقول : يا رب أقبض على الكفر أو على الإيمان ؟ فلا أدرى كيف يكون الجواب.

ورابعها : حيث يقول تعالى : { وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ } فلا أدرى من أى الفريقين أنا .

.

وقال مطرف : إنى لا أعجب ممن هلك كيف هلك، ولكن أعجب ممن نجا كيف نجا ؟.

.

وقال أهل التصوف :

" المؤمن يقوم على الجسم والمال والروح والزوجة والإيمان :

أما الجسم فهو غذاء للديدان فى القبر، والمال مِلك للورثة، والروح مقبوض ملك الموت، والزوجة لغيره.

فبقى الإيمان، والشيطان يريد أن يأخذه.

وإذا أخذه هلك المؤمن أبدًا ، وإذا لم يأخذه بعون الله حيى المؤمن أبدًا .

ولذا خاف من سوء الخاتمة العارفون والصادقون خوفًا شديدًا ، مع رسوخ أقدامهم، وقوة إيمانهم، فنحن أوجب بالخوف مع كثرة عصياننا ".

قال فى " المهمات " :

—

" إن أردت أن تنجو من هذه الورطة :
فاشتغل بالطاعة، وواظب على ذكر الله، وأخرج من قلبك حب الدنيا، والركون إليها، والفرح بأسبابها.
فإن اتفق زهوق روحه فى الحالة التى حضرت فيها حب الدنيا، فيختم له بالسوء ويهلك هلاكًا، وجميع ما ألفه الإنسان فى عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته، فيختم عليه.
وأعماله كلها ضائعة إن لم يسلم إيمانه فى النَفَسِ الذى عليه خروج الروح.
وأن سلامته مع غلبة حب غير الله مشكل ". انتهى.

.

وأشد ما ينزع به الإيمان : الاستخفاف بالعلماء والمشايخ والصلحاء، والكتب، وأكل الربا، والظلم، وعقوق الوالدين، وعدم تصحيح القلب من اعتقاد باطل، واللسان من الكلمات الفحشية، سيما استحلال ما حُرم فى القرآن، وعكسه، وما هو سبب الاستحلال أو التحريم من قول أو اعتقاد، وغير ذلك مما صرح به فى الأصول والفروع.

.

فعليك أيها السالك :
خوف الخاتمة، وخوف السابقة، وخوف ما لا يدرى أنه يحدث فى بقية عمرك، وخف الاغترار بزخارف الدنيا، وخوف البطر بكثرة نعم الله عليه، وخوف تعجيل العقوبة فى الدنيا، والافتضاح قبل الموت، وخوف استيلاء العادة فى اتباع الشهوات، وخوف الموت قبل التوبة، وخوف نقض التوبة ونكث العهد، وخوف الميل عن الاستقامة، وخوف زوال رقة القلب وتبدلها بالقساوة، وخوف سكرات الموت وشدته، وعذاب القبر ووحشته، وسؤآل منكر ونكير، وهيبة الموقف بين يدى الله، والحياء من كشف الستر، والسؤال عن النقير والقطمير، والصراط وحدته وكيفية العبور عليه، والنار وأغلالها وأنكالها، والحرمان من الجنة ونعيمها، ونقصان الدرجات، ورد الأعمال، والحجاب عن الله، وأهوال يوم القيامة وشدتها.

.

فإن الخوف من شرط الإيمان، لقوله تعالى : { وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }.

وعلامة الخوف : الحزن الدائم، وقصر الأمل، والاجتناب عن المعاصى.

قال أهل الحقيقة : أشد ما ينزع به الإيمان : آفات القلب٠
خصوصًا الكبر والرياء والحسد وحب الدنيا والرياسة والعجب والغضب، وهن أسرع من غيرهن٠
٠
فلذلك يجتهد السالك بالارشاد، وقطع هؤلاء بملازمة المجاهدة، وترك المألوفات، فإن الإيمان يضعف بالحشائش المنكرات، فلزم تطهير القلب عن المنكرات كما مر٠
ثم يحصل له التوحيد بطريق الكشف٠
٠
ثم أن السالك لا يطلع على منكرات قلبه، إلا أن يراقب نفسه بطريق الكشف، فيعرف عند ذلك نفسه، ويجد طريق الوصول إلى ربه٠
كما قيل : " من عرف نفسه فقد عرف ربه "٠
٠
قال النبى -صلى الله عليه وسلم- : « يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دبيب النمل »٠
فلهذه المعانى اعترف جميع الأولياء بتقصيراتهم، حتى الأنبياء -عليهم السلام-٠
٠
كما قال أهل التحقيق : من رأى نفسه خيرًا من فرعون فهو متكبر، لعدم العلم بكيفية العاقبة٠
٠
ولهذا قال الخلفاء الراشدون ما قالوا، فقد نقلناه فى شرح [واغفر لنا ذنوبنا]٠
٠
وقال أبو سليمان الدارانى : لو اجتمع الخلق على أن يضعونى كاتضاعى عند نفسى، ما قدروا عليه٠
٠
وقال ابراهيم اين أدهم : ما سررت بشىء كسرورى فى يوم كنت جالسًا، فجاء إنسان فبال علىَّ٠

وقال أبو يزيد -رحمه الله- : قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها فى المسجد فى الصف الأول، وذلك إنى تأخرت يومًا بعذر فصليت فى الصف الثانى، فاستحييت من الناس حيث رأونى قد صليت فى الصف الثانى، فعرفت أن نظر الناس إلى فى الصف الأول كان يسرنى بسبب استرواح نفسى من حيث لا أشعر٠

٠

وقال أيضًا : ما دام العبد يظن أن فى الخلق شرًا منه، فهو متكبر٠

فقيل له : متى يكون متواضعًا ؟

قال : إذا لم ير لنفسه مقامًا ولا حالاً٠

٠

وقال أيضًا : كابدت العبادة ثلاثين سنة، فرأيت قائلاً يقول :

يا أبا يزيد خزائنه مملوءة من العبادات، إذا أردت الوصول إليه، فعليك بالذل والافتقار٠

٠

وقال أيضًا : " كنت اثنى عشر سنة حداد على نفسى، وخمس سنين مرآت قلبى، وسنة أنظر فيها، فإذا فى وسطى زنار، فعملت فى قطعه خمس سنين "٠

أراد بالزنار : الرياء الخفى٠

٠

وقال الجنيد : لولا أنه روى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :

« يكون فى آخر الزمان زعيم القوم أرذلهم »، ما تكلمت عليكم٠

٠

وقال الفضيل : إنى لا أغبط ملكًا مقربًا، ولا نبيًا مرسلاً، ولا عبدًا صالحًا، أليس هؤلاء يعاتبون يوم القيامة، إنما أغبط من لم يخلق٠

٠

وقال السرى السقطى : أنا أنظر فى أنفى فى اليوم كذا وكذا مرة، مخافة أن تسود صورتى لما أتعاطاه٠

وقال أيضًا : اشتهى أن أموت ببلدة غير بغداد، مخافة أن لا يقبلنى قبرى، فافتضح٠

وقال إبراهيم ابن أدهم -رحمه الله- : ما سررت فى الإسلام إلا فى ثلاثة مواضع :
١- كنت فى سفينة فيها رجل من المسلمين مضحاك يقول :
كنا نأخذ بشعر العلج (العلج : هو الرجل الضخم من كفار العجم) فى بلاد الترك هكذا ، وكان يأخذ بشعرى فيهزنى، فسرنى لأنه لم يكن فى تلك السفينة أحدًا أحقر منى فى عينيه.
٢- وكنت عليلاً فى مسجد، فدخل المؤذن فقال : اخرج، فلم أطق، فأخذ برجلى وجرنى إلى خارج المسجد.
٣- وكنت بالشام وعلىَّ فروٌ، فنظرت إليه فلم أميز بين شعره وبين القمل، فسرنى.
.
وروى أن عمر -رضى الله عنه- سمع رجلاً يقرأ : { هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا }.
فقال عمر -رضى الله عنه- : ليتها تمت.
يريد : ليته بقى على ما كان، يعنى أراد أنه ليته لم يخلق ولم يكلف. كذا فى تفسير البغوى.
.
فانظر أيها السالك :
كيف تزللوا واحتقروا أنفسهم خوفًا من العاقبة، مع فضلهم ورسوخ أقدامهم.
وأنت فى أمنٍ كأنك ما عصيت الله قط، أو لا يحاسبك أبدًا ، وأنهم ما عرفوا مثل ما عرفت.
.
كلا بل أنت لا تكون فارغًا عن تفتيش عيوب الناس وعما لا يفيدك، حتى تراقب نفسك، فيحصل لك الخوف.
أصلحنا الله وإياكم.

ثم اعلم :
أنه يجب على كل مؤمن أن لا يتكلم ولا يبحث فى هذه الأمر، الذى ذكرناه من إرادة الله تعالى شقاوة العبد أو سعادته.

.

بل يجب عليه أن يخاف دائمًا بالقلب والجوارح، ويتضرع إلى الله أن يحسن عاقبته وعاقبة غيره، ويشتغل بطاعاته، ويذكر الله كثيرًا، لينتقش فى قلبه، لعل الله يكرمه بالختم عليه.

لقوله تعالى : { يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ }.
وقوله -صلى الله عليه وسلم- : « تموتون كما تعيشون ».

.

قال أهل الحديث : حقيقة الإنسان أن لا يقتضى بذاتها سعادة ولا شقاوة، يُسعد من يشاء، ويُشقى من يشاء لأقتضاء الحكمة الإلهية.

والعبد مأمور بظاهر أمره، ليس له سبيل إلى معرفة ذلك، بل عليه انقياد أمره على حسن الظن والخلوص، ولا يقنط من رحمته، فإنه لا يضيع أجر المحسنين.

-

وكما أن الرزق مقسوم لنا بالأمر بالكسب، فكذا الجنة يسر مع الأمر بالأعمال، فالتدارك بالأعمال والأوراد، أولى من اشتغاله فى المباحث الظلمانية.

لما قال فى الصحيحين فى رواية عن علىٍّ -رضى الله عنه- أنه قال :
« ما منكم من أحدٍ إلا وقد كتب مقعده من النار، ومقعده من الجنة.
فقالوا : يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا ؟
فقال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة، فيسصير لعمل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة، فيسصير لعمل الشقاوة.
ثم قرأ : { فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى }.

وحكى : أن عابدًا من بنى إسرائيل اجتهد فى غاية الكمال، وتزوره الملائكة، وقد زاره عزرائيل يومًا، وأخبره أن اسمك فى ديوان الأشقياء.

فقال العابد : إن الله تعالى أمرنى أن أعبده، ليس لى إلى ذلك من سبيل، مريدًا كيف يشاء فى خلقه.

ثم نظر عزرائيل إلى اللوح المحفوظ، فرأى اسمه سعيدًا بعد أن رآه فى الأول شقيًا .

-

فتحير عزرائيل، فقال الله تعالى : [يا عزرائيل إن شقاوة هذا العبد إلى هذا الوقت، ثم سعادته كذلك تقديرى فى علمى الأزلى]

قال الله تعالى : { يَمْحُو اللهُّ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ }

.

وفى هذا أقوال تركها واجب، أسعدنا الله وإخواننا، وأبعدنا عن جميع السوء، وصاننا آمين.

.

.

[وَلِكُلِّ طاعَةٍ وَمَعْصِيةٍ لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إلا بِالله]

وتخصيص هذا الذكر لهما ؛ لأن القدرة على الطاعة، وترك المعصية لا تكون إلا بإرادة الله تعالى.

قال أهل اللغة : الحول : الحركة.

معناه : لا حركة، ولا استطاعة إلا بمشيئة الله تعالى.

.

وقيل معناه : ما فسر النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :

« لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله ».

.

وروى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :

« من قال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، خلق الله من قوله طيرًا رأسه من الياقوت الأحمر، وجسده من الدر، ورجلاه من اللؤلؤ، وجناحه وذنبه من الزبرجد، مكتوب على صدره أن هذا الطير خرج من فلان بن فلان، يعبد الله تعالى مع الملائكة إلى يوم القيامة، وثواب عبادته لقائلها ».

.

وروى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :

« إذا وقعت فى ورطة فقل بسم الله الرحمن الرحيم لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، فإن الله يصرف بها ما شاء من أنواع البلاء ».

وقال بعض العلماء : " أن لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، تذكر فى مواضع كثيرة ؛ تذكر عند الطاعة : رجاء للقبول، وذكر بعد المعصية : طلبًا للعفو، وعند الغضب : تسكينًا للغضب، وعنذ المرض : شفاءً للمرض، وعند الهم : طمعًا للتيسير، وعند الغم : التماسًا للدفع، وغير ذلك "٠

ولفظ الحديث مشعر بهذا ٠

٠

ثم اعلم : أن لهذه التسبيحات والأذكار فضائل لا يسع تحريرها فى هذه الرسالة، فالأوجب على السالك أن يداوم على تلاوتها ، ويعزم بها على طهارة قلبه من الآفات بوسيلة هذا الأذكار، ويأتلف قلبه بها بحسن النيات، ويذكرها بقلبه وسره، أشد من ذكره بلسانه نيلاً للفيض الإلهى٠

فإن عمل القلب له رجحان وفضائل كما عرفت ٠

٠

ألا ترى أن الرجل لو أكره بالكفر فكفر عياذًا عن السيف والعقوبة، يجوز ولا يكفر لصلاح قلبه٠

ولو أن الرجل المذنب تاب بلسانه، ولم يتب بقلبه لا تنفعه توبته بلسانه لفساد قلبه٠

ولو تاب بقلبه دون لسانه تنفعه توبته لصلاح قلبه٠

ولو أن كافرًا أسلم بلسانه دون قلبه، لا ينفعه غير السيف والجزية٠

ولو أن رجلاً نوى بقلبه أن يعطى ماله إلى الخيرات، ثم لم يقدر على ذلك، أو تمنى أن له مالاً فأنفقه، يجد ثوابه ٠

ولو أن رجلاً أعطى ماله فرضًا، ونفلاً، ولم ينو به التقرب لا يثاب٠

فظهر من هذا : أن عمل القلب أفضل٠

٠

كما روى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :

« ذرة من أعمال الباطن خير من أعمال الظاهر كالجبال الرواسى »٠

٠

وقال مالك ابن دينار : البدن إن أسقم لا ينجح فيه الطعام والشراب، فكذلك القلب إذا علقه حب الدنيا ، لا تنجح فيه الموعظة٠ انتهى

ألا ترى أيها السالك : أن أكثر مستمعى الوعظ لا يستفيدون باستماعهم، ولا يصلحون قلوبهم، ولا يحصلون المعارف الإلهية.
إلا طريق تحصيل الدنيا بالحيلة والتزوير والتلبس وطعن المسلمين، ومعارضة الموحدين، وغير ذلك.
فيقولون فى دعائهم : اللهم اجعلنى من الذين يستمعون القول ويتبعون أحسنه، فهم يتبعون خدمة الواعظ، ولا يتبعهم ما ينفعهم فى الدين، ويقولون : اللهم أخرج من قلوبنا محبة الدنيا، وهم أشد محبة لها، وينامون عند ذكر الآخرة، ويستيقظون عند ذكر عيوب الناس، بل يوقظ أحدهم آخر ليسمع الغيبة، ويدخلون المسجد ويخرجون منه مثل أن يدخل الحبشى الحمام ويخرج منه ولونه معه.

.

وإنما كانوا كذلك لكونهم غير مستمعين بالقلب، فإن قلوبهم مريضة بسبب الآفات القلبية، فلا تنجح فيه الموعظة، بل يستمعون بالكسل والنوم فلا يفهمون، وإذا فهموا شيئًا لا يذمُون به أنفسهم، ويحملونه غيرهم.
فذلك علامة القلب القاسى.

.

قال الله تعالى : { فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ }
{ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ }.

.

وقال تعالى : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ }.

.

قال العلماء : ما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب، وما غضب الله على قوم إلا نزع منهم الرحمة. انتهى.

.

بل إذا استمعوا يضحكون ويستهزؤن الغير، فضلاً عن أن تقشعر جلودهم من خشية الله.
والاتعاظ لا يحصل إلا بالقلب، لقوله تعالى :
{ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ }.

فاحذر عن أمثال هؤلاء لعل قلبك يميل عن الحق، لأن صحبة الغافلين الجاهلين مقت ونقمة، وصحبة العارفين وصلة ونعمة.

.

وقيل : مجالسة أهل الفضل ذكاء العقل.

.

وقال أبو عطاء -رحمه الله- : الزم قلبك فى مجالس الذاكرين لعله يُنبه عن غفلته، وأقم شخصك فى خدمة الصالحين لعله يتعود ببركتها طاعة رب العالمين.

.

وقال ذو النون -رحمه الله- : القلب كالبيت يحتاج إلى المرمة، والجسد كالجلد يحتاج إلى الدباغة، والنفس كالدابة تحتاج إلى الرياضة.

.

وقال أحمد الأنطاكى : إذا جالستم أرباب المعرفة فجالسوهم بالصدق، فإنهم جواسيس القلوب يدخلون فى قلوبكم، ويخرجون من حيث لا تحتسبون. انتهى.

.

فلما أقر الداعى أن الحول والقدرة ليست إلا بإذن الله، ولازم ذلك كون الله قهارًا وغالبًا .
قال : [لَنْ يَغْلِبَ اللهَ شَىْءٌ].
أى : لم يغلب شىء على الله تعالى بالحول والقدرة، بوجةً ما أبدًا لا فى الأول ولا فى الآخر، فإنه تعالى خالق كل شىء ومبدعه.
فإذا لم يغلب شىء عليه تعالى، علم أنه تعالى غالب.

.

فلذا قال : [وَهُوَ غَالِبٌ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ].
أى : غالب بالحول والقدرة وغيرهما، على كل مخلوق سواء كان ذلك المخلوق غالبًا بالنسبة إلى مخلوق آخر أو لا.

.

فإذا كان الله تعالى غالبًا، كفى للعبد أن يرجع إليه فى كل أمره فى الدنيا والآخرة.
كما قال : [حَسْبِىَ اللهُ وَكَفَى].
أى : كفانى ناصرًا ومعينًا ورحيمًا وإلهًا فى كل أمرى، فى الدنيا والآخرة والحياة والممات، بلا افتقار إلى غيره.
فإنه على كل شىء غالب، حتى إنه يعلم ما فى قلبى وسمعى ولسانى.

كما قال : [سَمِعِ الله لِمَنْ دَعَا]٠
أى : يسمع أنين العبد المتضرع الضعيف ودعوته، بلا احتياج إلى رسول، ولا حاجب على بابه، وهو مفتوح، ثم يجيب من دعاه، ويحب من سأله٠
٠
كما قال -صلى الله عليه وسلم- : « إذا قال العبد يا رب، يقول الله تعالى لبيك ٠٠ »٠ الحديث٠
ومعنى لبيك منه سبحانه : أجبت دعوتك٠
ويقول الله تعالى كل يوم : [هل من داع أستجب له، وهل من مستغفر أغفر له]٠
٠
وقيل : سمع الله لمن دعا : أى قبل دعاء من دعا ٠
٠
ويؤيد ذلك قوله : { ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ }٠

ثم وصفه الداعى بقوله : [لا غَايَةَ لَه فِى الآخِرَةِ وَالْأُوْلَى]
أى : لا غاية فى أوليته، ولا أول له، بل هو أول كل أول، منزه سبحانه عن الأولية والابتدائية وهو خالقهما، وموجدهما ، فكيف يتصور له الأخرية، وهو سبحانه منزه عن الأخرية والانتهائية وهو خالقهما ٠
٠
فإذا وصف العبد ربه تعالى بهذه الأوصاف الجميلة مما سبق، وعلم أن الله تعالى متصف بكمال العلو، وجب عليه أن يوحده غير مرة٠
٠
فقال :
[لا إِلَه إِلا الله وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ يُحْيِى وَيُمِيتُ، وَهُوَ على كل شىء قدير]
أى : منفردًا ٠
وقيل : يعنى هو الله الذى لا إله ولا معبود ولا خالق غيره، لا شريك له فى جميع ملكه وخلقه، لا يشاور فى فعله، ولا يتفكر ولا يتردد ولا ينسى ولا يسهو٠

فإن جميع مُلك السموات والأرضين وغيرهما، كلها مخلوقاته وملكه، لا مدخل لغيره سواء كان ذلك الملك من ذوى العقول أو لا.

.

وأن جميع الخلائق وثناهم له، فإنه وليه ومستحقه لكونه خالقهم الذى يحيى جميع الكائنات إذا أراد، وجعل لكل شىء حياة بشىء ما، ويوجد كل شىء من العدم إلى الوجود إذا أراد. وهو خالق الموت والحياة، ويميت جميع ما خلق بشىء ما إذا أراد، لا يمنعه شىء, ولا يعارضه، ولا تخص قدرته على الإحياء والإماتة، بل على كل شىء قدير.

.

يفعل ما يشاء وما يريد على حكمة فاطرة، لا عبث فى فعله أبدًا، وخلق المضرات على حكمة خفية، وعاقبته حميدة بالنظر إليه، فإن الخير ما اختاره الله، ليس فعله على جهل وغفلة وسهو ونسيان، تعالى شأنه عن النقائص والزوال، منزه عن شوب المعايب.

.

تحيِّر فى أسراره العارفون، وتغيَّر فى أطوار عظمته المدققون، وعجز عن وصول المنزل فى مسافة معرفته السالكون.

منزه عن أن يكيفه الأفكار والعقول، وحاشا أن يبلغ كنهه جهود الفحول.

.

روى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال:

« مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ ؛ كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ ، وَكُتِبَت لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنْ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ ، إِلَّا رَجُلٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْهُ ».

.

وقال النبى -صلى الله عليه وسلم- : « من قالها دبر كل صلاة الصبح قبل أن ينصرف عشر مرات كُتبت له عشر حسنات، ومحى عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات، وكان يومه فى حرز من الشيطان ».

وفى رواية : « قبل أن يتكلم ».

.

ثم قال : [وَإِليهِ الْمَصِيرُ] أى : رجوع كل شىء وإيابه وذهابه فى جميع الأحوال، منحصر له دون غيره، كما أن مبدأ كل شىء منه.

وهذا معنى ما اصطلح المشايخ من قولهم : " منه إليه ".

[ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم]٠
فيه مناسبة معنوية لما سبق، وقد مر معناه٠
وقيل فى معناه : لا حول لنا عن التحول عن كل ما لا ينبغي لجلال مجدك، ولا قوة تساعدنا على ذلك إلا بإمداد الجمع الجامع لجميع الأسماء ؛ كالعليم والعظيم وغيره من أسماء الله تعالى، وهذا قول أهل التصوف٠
.
واعلم أن هذا من قبيل مراعات النظر يسمى : تشابه الإطراف ؛ وهو أن يختم الكلام بما يناسب ابتداءه فى المعنى، فإن العلى يناسب قوله : لا حول٠
والعظيم يناسب قوله : ولا قوة٠
كما فى قوله تعالى : { لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } يناسب قوله تعالى : { وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ } يفهمه المتفطن٠
.
ثم أن العبد الداعى لما أثنى على الله تعالى فيما سبق بما شاء من الأذكار والتسبيحات، على وجه العجز والقصور٠
أتى بما أثنى النبى -صلى الله عليه وسلم- تبركًا وتوسلاً، فقال :
[لا أُحْصِى ثَنَاءً عليكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِك]٠
.
قال فى مختار الصحاح : أحصى الشىء أى : عَدَّه٠
وقال فى المغرب : قوله -عليه الصلاة والسلام- : « من أحصاها دخل الجنة »٠
أى : من ضبطها علمًا وإيمانًا٠
.
أى : لا أقدر على أن أتى عددًا أو ضبطًا أن أثنى عليك، بما هو لائق بمجدك وجلالك، وأنت أهل له، كما أنت أثنيت على نفسك بجميع المحامد التى تليق بمجد عظمتك٠

فإذا كان نبينا ورسولنا -صلى الله عليه وسلم- هكذا !! فكيف يثنى أمثالنا على ما هو حقه ؟

بل لو جمعت عبادات جميع الخلائق وثناءهم، من الملأ الأعلى إلى أسفل السافلين، من أول العالم إلى آخره ويجعل لنفس واحدة، وأثنى بها ربه، لا يكون لائقًا لمجد كماله سبحانه٠

٠

[عَزَّ جَارُكَ]

أى : غلب نصرتك وإغاثتك للعباد، على سائر النصرة والإغاثة من غيرك٠

اللهم أجرنى من النار : أى أغثنى٠

٠

ويحتمل أن أن يكون من الجوار، يقال : جائر الرجل إلى الله : أى تضرع بالدعاء٠

وعلى هذا يكون المعنى : عزَّ من تضرع إليه بالدعاء٠

٠

ويحتمل أن يكون من الجار زى القربى : فيكون المعنى عزَّ وساد من كان فى جوارك٠

أى : من أعز صحبتَك على من سواك، وكان من جلسائك٠

لحديث : [أنا جليس من ذكرنى]٠

٠

[وَجَلَ ثَنَاؤُكَ]

أى : عظم وعلى ثناؤك الذى أثنيته على نفسك على سائر الأثنية٠

[وَلا إِلَهَ غَيْرُكَ]

أى : لا معبود، ولا خالق سواك٠

٠

فالداعى لما أثنى على الله تعالى بما أثنى النبى -عليه الصلاة والسلام-٠

ناسب له أن يثنى على ربه، بما أثنى به الله تعالى نفسه توسلاً وتيمنًا ٠

فقال : [الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى]

أى : أن الله سخر هذا السرير على تدبيره، فصار كما أراد، وكذلك سائر المخلوقات٠

٠

وقال أبو الليث : معناه : أى علا٠

وقيل استوى : بمعنى استولى، وإنما خص التدبير بالعرش ؛ لكونه أعظم المخلوقات.
لما قال ابن عباس -رضى الله عنهما- فى تفسير قوله تعالى :
{ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ }.
حملة العرش والطائفون به : هم الكروبيون، وهم سادات الملائكة.
وحملة العرش ما بين كعب أحدهم إلى أسفل قدميه مسيرة خمسمائة عام.
.
ويروى : أن أقدامهم فى تُخوم (أى : حدود فاصلة) الأرضين والأرضون والسموات، إلى حجرتهم، وهم أشد خوفًا من أهل السماء السابعة، وهى أشد خوفًا من أهل السماء التى تليها، والتى تليها أشد خوفًا من التى تليها.
.
وقال مجاهد : بين الملائكة والعرش سبعون حجابًا من نور، وحجاب ظلمة.
.
قال وهب :

" أن حول العرش سبعون ألف صنفًا من الملائكة صف خلف صف، يطوفون بالعرش، يقبل هؤلاء ويدبر هؤلاء، فإذا استقبل بعضهم بعض هلل هؤلاء، وكبر هؤلاء، ومن ورائهم سبعون ألف صف قيام أيديهم إلى أعناقهم، قد وصفوها على عاتقهم، فإذا سمعوا تكبير الملائكة وتهليلهم، رفعوا أصواتهم فقالوا :
سبحانك وبحمدك ما أعظمك وأجدك، أنت الله ولا إله غيرك، أنت الأكبر والخلق كلهم لك راجعون.
ومن وراء هؤلاء مائة ألف صف من الملائكة قد وضعوا اليمنى علي اليسرى، يسبح كل واحد منهم بتسبيح لا يسبحه الأخر، ما بين جناحى أحدهم مسيرة ثلاثمائة عام.
.
واحتجب الله تعالى من الملائكة الذين حول العرش بسبعين حجابًا من ظلمة، وسبعين حجابًا من ثلج، وسبعين حجابًا من ماء، وسبعين حجابًا من بَرَد، وما لا يعلمه إلا الله.
.
ولكل واحد من حملة العرش ومن حوله أربعة وجوه ؛ وجه ثور، ووجه أسد، ووجه نسر، ووجه إنسان، ولكل واحد منهم أربعة أجنحة ؛
أما جناحان : فعلى وجه مخافة أن ينظر إلى العرش فيصعق.
وأما جناحان : فيهفو بهما.
ليس لهم كلام إلا التسبيح ، فلله القدرة والعزة ، يسجد له الخلق والملك والملكوت ".

[لَهُ مَا فى السَّمواتِ، وَمَا فى الأَرْضِ]
أى : لله ما خلق فى جميع السموات من الملائكة وغيرها، وما خلق فى جميع الأرضين من الإنسان وغيره جميعًا، كلهم عبيده وإماؤه، يحكم فيهما ما يشاء بالأمر، ثم يأمر بغيره، هو أعلم بأمر الخلق، وبما يصلحهم فى كل وقت، وهو مستغن عن الشريك٠

٠

ويقال معناه : أن كل ما فى السموات وما فى الأرض، يدل على وحدانيته٠

٠

[وَمَا بَيْنَهُمَا]
أى : وله أيضًا ما خلق بين السماء والأرض ؛ من الهواء والسحاب والبحار والطيور، كلٌ له (كلمة غير واضحة)، ومقرون بربوبيته٠

٠

[وَمَا تَحْتَ الثَّرَى]
أى : وله أيضًا ما خلق تحت الثرى، وما يعلم تحت الثرى إلا الله٠

٠

قال الفقيه أبو الليث : " الثرى : سجين التى فيها كتاب الفجار، وهى تحت الأرض السابقة السفلى "٠

٠

وقال فى معالم التنزيل : " الثرى : الندى : أى تراب ذو بلل٠

٠

[وَإِنْ تَجهَرْ بِالْقَوْل]
أى : وإن تعلن بالقرآن والأدعية والثناء والذكر٠

٠

[فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى]
قال الفقيه أبو الليث فى معنى السر : يعنى ما سررت به فى نفسك٠
وفى معنى أخفى : يعنى ما لم تحدث به نفسك٠

٠

وهذا أيضًا من كمال قدرته، يعنى كما أن له ما فى السموات، وما فى الأرض، وما بينهما، وما تحت الثرى، فكذلك الله يعلم السر وأخفى٠
فعلم السر وأخفى : مختص لله تعالى، ولا يعلم أحد غيره٠

قال الزمخشرى فى تفسير هذه الآية : فإن قلت كيف طابق الجزاء والشرط ؟
قلت معناه : إن تجهر بذكر الله بدعاء أو غيره، فاعلم أنه غنى عن جهرك.
فإما أن يكون نهيًا عن الجهر، كقوله تعالى :
{ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ }
وإما تعليمًا للعباد : أن الجهر ليس لاسماع الله تعالى، وإنما هو لغرض آخر.
.
وقال صاحب الكشاف فى موضع آخر : الإعلان فى الفرائض واجب، والذكر من أقدم الفرائض وأعلاها. انتهى.
.
كذلك لا يجوز لطالب الآخرة تحقير غيره ولو كافرًا، لأنه يجوز فى علم الله أن يهدى هذا الكافر، ويضل هذا المسلم.
.
وروى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :
[يخرج فى آخر الزمان رجال يجلبون الدنيا بالدين، ويلبسون جلود الضأن، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم قلوب الذئاب، يقول الله : أبى يغترون، أم علىَّ يجترؤن، فبعزتى حلفت لأبعثن عليهم فتنة تدع الحليم فيهم حيران].
ألا هم علماء السوء.
.
وروى عنه -عليه الصلاة والسلام- أنه قال :
« ويل لأمتى من علماء السوء يتخذون بهذا العلم تجارة لأنفسهم، لا أربح الله تجارتهم ».
.
وروى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :
« يجاء بالرجل يوم القيامة فينطلق فيلقى فى النار، فيدور به كما يدور بالحمار برحاة، فيفطنه أهل النار (يعنى : يعرفونه)
فيقولون : يا فلان ما أصابك ألم تكن تأمر بالمعروف ؟
فيقول : بلى، ولكن أعلم الناس، ولم أعمل به ».

[اللهُ لا إِلهَ إلا هُـوَ]
أى : الله الذى لا خالق، ولا رازق، ولا معبود إلا هو.
الضمير راجع إلى الله.
.
وقال الفقيه : الإثبات إذا كان بعد النفى، فإنه يكون أبلغ فى الإثبات.
فلذا قال : " لا إِلهَ إلا هُـوَ "، فبدأ بالنفى ثم استثنا بالإثبات، ليكون ذلك أبلغ.
.
[لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى]
أى : مختص لله الأسماء التسعة والتسعين الآتية ذكرها عن قريب إن شاء الله تعالى.
وله أيضًا الأسماء التى يعلمها للعباد.
والحسنى : مؤنث الأحسن.
.
[فَادْعُوهُ بِهَا]
أى : ادعوا ربكم بهذه الأسماء الحسنى، كى يكون وسيلة وسببًا لاستجابة دعائكم.
.
[صدَقَ اللهُ العَظِيمُ]
فى وعده للداعى بالأسماء الحسنى، وغيرها، ووعيده وأمره ونهيه لا يحتمل الكذب أبدًا، ولا يخلف الميعاد، لأن كلامه خبر صادق.
.
كما قال الله تعالى فى موضع آخر : { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }.

[هُـوَ الله الَّذى لا إِلَه إلا هُوَ]
فلما فضل الأسماء الحسنى على سائر الأسماء، وأمر العبد ب (كلمة غير واضحة بالمخطوط)، والدعوات بها، وجب على العبد إحصاءها .
فقال :
[الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ]
وهما من تتمة الآية، ثم ضم الداعى الأسماء الحسنى إليهما توسلاً أو اقتباسًا .
.
روى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :
« إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة » .
.
قيل معناه : أى من أطاق القيام بحق هذه الأسماء وعمل بمقتضاها ؛
بأن وثق بالرزق : إذا قال " الرزاق " .
وعلم أن الخير والشر من عند الله تعالى، إذ قال : " الضار النافع " فشكر على المنفعة، وصبر على المضرة، وعلى هذا سائر الأسماء .
.
وقيل : أى أتى عليها حصرًا تعدادًا وإيمانًا .
وقيل : أى عرفها، وعقل معانيها، وأمر بها .
وقيل : أى حفظها على قلبه .
قال البخارى -رحمه الله- : هذا هو الأظهر لأنه جاء فى الرواية الأخرى :
« من حفظها » مكان « من أحصاها » .
.
ولا تنحصر أسماء الله تعالى فى هذا المقدار .
لما جاء فى دعاء النبى -صلى الله عليه وسلم- :
« أسألُكَ بكلِّ اسمٍ هوَ لكَ سمَّيتَ بِهِ نفسَك ، أو أنزلْتَه في كتابِكَ ، أو علَّمتَه أحدًا من خلقِك ، أو استأثرتَ بِهِ في علمِ الغيبِ عندَك » . انتهى

لكن هذه التسعة والتسعين هى أشهر الأسماء.
وعلى هذا ما روى فى الأخبار :
« أن لله تعالى أربعة آلاف اسم؛ ألف يعلمه إسرافيل، وألف يعلمه جبريل، وثلاثمائة فى الإنجيل، وثلاثمائة فى الزبور، وثلاثمائة فى التوراة، ومائة إلا واحدة فى القرآن، وواحد هو الاسم الأعظم مكتوم، فإذا أحصى العبد ما فى القرآن فقد أحصى جميعها ».

.

وقال أهل التفسير : يقال أن لله تعالى أربعة آلاف اسم؛ ألف منها لا يعلمها أحد إلا الله، وألف ثان مكتوب فى اللوح المحفوظ، وألف ثالث عند الملائكة، وألف رابع عند الخلائق، وذلك ثلاثمائة منها فى التوراة، وثلاثمائة منها فى الزبور، وثلاثمائة فى الإنجيل، ومائة منها فى القرآن.
فقوله تعالى : { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا }.
وقوله -عليه الصلاة والسلام- : « إن لله تسعة وتسعين اسمًا »
يعنى : سوى الله : تسعة وتسعين اسمًا، ومع الله : مائة تامة.

.

لأنه تعالى قال : { وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا }
ولا يقال : ولله الله.

.

ثم أن الله تعالى لما علم أن أمة سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- لا يقدرون تعلم جميعها، فاختصرها فى الأسماء الحسنى، ومن عدها فكأنما عد جميعها.

.

قيل : أن إبراهيم -عليه السلام- لما وُضع فى المنجنيق، تبعه طير من الطيور ترحمًا لإبراهيم -عليه السلام-، ثم جعل النار بردًا وسلامًا على إبراهيم.
أوحى الله تعالى إلى إبراهيم : قل للطير ما يرجو منى فأعطيه، وهو سبحانه أعلم.
فقال الطير : أرجو منه أن يعلمنى جميع أسمائه، فأذكره بها.
فعلمه الله تعالى.
قيل : أن هذا الطير هو " العندليب " يذكر الله تعالى بأسمائه فى البساتين.

فعليكم أيها السالكون إحصائها ؛ بالحضور، والترتيل، والتأنى، شاغلاً به فى تفكر معانيها، مع الضراعة والخضوع٠

٠

ولا تكونوا من الذين يفرون من استماع هذا الورد، هل يفر المؤمن إذا ذكر أسماء ربه إلا أن يغره الشيطان، ويوسوس له فى قلبه عمل الدنيا، فيوقعه فى مكروه٠

وفقنا الله تعالى وإياكم على إحصائها، وعصمنا من وعيد من " لا ورد له لا وارد له " آمين٠

٠

واعلم : أن [الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ] هما من أبنية المبالغة، إلا أن مبالغة فعلان أبلغ من مبالغة فعيل، وهما صفتان مشتقتان من الرحمة٠

و" الرحمة " : رقة القلب٠

والله تعالى منزه عنها، إلا أنها مجاز عن إنعامه لعباده٠

٠

وقيل " الرحمن " : عام، لأنه يرحم الخلائق ؛ من الكافر، والمؤمن، والحيوانات فى الدنيا، لا ينقص من رزقه لأجل عصيانه، ولا يزيد الأجل تقاه٠

و " الرحيم " : خاص، لأنه يرحم المؤمن فقط٠

٠

وقال أهل التصوف :

" الرحيم " أخص من الرحمن بالرحمة ؛ لأن رحمة الرحيم لا يمازجها نعمة ولا عذاب أصلاً، ولأجل هذا كان حكمه فى الآخرة أعم٠

ورحمة " الرحمن " قديمًا زجها نقمة الآلام والعذاب، فهو عذاب ؛ كشرب الدواء الكريه رحمة بالمريض، وكما يكتوى الإنسان بالنار عمدًا للتداوى، فهو عذاب وباطنه رحمة٠

والرحيم : صرفة لا يشوبها نقمة ولا عذاب "٠

٠

وقيل " الرحمن " : بمعنى الرزاق٠

وقال المبرد : هو إنعام بعد إنعام، وتفضل بعد تفضل٠

وقيل " الرحمن " : مشترك بين أن يرزق وغيره٠

و " الرحيم " خاص أى : مطلقًا الرحمة٠

فلذا يقال : رجل رحيم لا رحمن٠

وينبغى لمن كان اسمه عبد الرحمن، أو عبد الرحيم، وكذا عبد الله :
أن يستحى من ارتكاب المناهى، ويعرف حرمة اسمه، فإن الله تعالى يحب أن يسمى الرجل بذلك، لما فى صحيح مسلم فى رواية ابن عمر، أنه قال :
« إن أحب أسمائكم إلى الله، عبد الله وعبدالرحمن »، الحديث.

.

[الْمَلِكُ]
ورد فى القرآن : الملك والمالك والمليك.
فالملك : مشتق من الملك.
وأصل الملك فى اللغة : الشدة والربط والقدرة على الإبداع والإنشاء.
فلا مَلِك فى الحقيقة إلا الله، وهو فى غيره مجاز.
والمليك : أبلغ من المالك، وهو مشتق من الملك، ويكون بمعنى السلطان، والصاحب، والسيد.

.

[الْقدُّوسُ]
فعول من القدس : وهو الطهارة، والتقديس، والتطهير.
ومنه الأرض المقدسة، أى : المطهرة.
ومعناه فى حق الله تعالى : نفى النقائص، والتنزيه عن الآفات باستحقاق نعوت الجلال من الكمال.

.

[السَّلامُ]
قيل معناه : ذو السلام، بمعنى السلامة، أى : يسلم وينزه عن الآفات، وصفات المخلوقات.
وقيل معناه : أنه سلم المؤمنون من عذابه.
فعلى الأول : هو من صفات ذاته، وعلى الثانى : من صفات فعله.

.

وقيل فى معناه : مبرئ العلل، وشافى الأسقام، ومزيل الآلام الطبيعة والبدنية.
قال الله تعالى : { يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا }.

.

[الْمُؤْمِنُ]
أى : المصدق لنفسه أنه صادق لوعده، ومنه سمى المؤمن مؤمنًا، أى : مصدقًا بأنه تعالى واحد.
وقيل معناه : أمن المؤمنون من العذاب إذا كان من المؤتمن.
وقيل فى معناه : واهب الإيمان، ومانح الأمن والأمان، مؤمن من خافه، والتجأ إليه، ولاذ بجنابه.

[الْمُـهَيْمِنُ]
قيل : هو الحافظ، وقيل : الشهيد، وقيل : الأمين.
وقيل ذو الهيمنة أى : المسلطة إحاطة تصرفاته على جميع الموجودات، يستفيد أحكام أسمائه وإرادته
.
[الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ] وقد مر معناهما فى صدر هذه الرسالة.
.
[الْمُتَكَبِّر]
التكبر والكبرياء : إخبار عن استحقاق لنعوت الجلال، وصفات الكمال.
أى : متكبر بذاته لا بأمرٍ زائدٍ عليه.
.
[الْخَالِق]
أى : يخلق الأشياء من غير مادّة ومدة، ويصوره ويزينه؛ من تركيب ألوان، وأجزاء النفس.
.
[الْبَارِئُ]
مثل الخالق، وقيل : المنشىء الأعيان من العدم إلى الوجود.
وقيل الفرق بين الخالق والبارئ : هو أن البارئ هو الذى خلق الخلق بريئًا من التفاوت والتنافر، مميزاً بعضهما عن بعض بالأشكال المختلفة، وفيه ما لا يخفى. كذا فى شرح المشارق.
.
[الْمُصَوِّرُ]
أى : يصور ما خلقه بغير آلة التصوير بالعلامات التى يتميز بعضها من بعض، منزه عن التعلم والغفلة.
.
[الْقَهَّارُ]
وقيل : بمعنى الجبار.
وقيل : أنه تعالى قهر نفوس العابدين بخوف عقوبته، وقلوب العارفين بسطوة قربته، وأرواح المحبين بكشف حقيقته.
وقيل : قهر جميع عباده بالموت، فلم ينج منه ملك مقرب، ولا نبى مرسل.
فلذا يقول الله تعالى : {لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ } فيجيب الله تعالى { للهِّ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ }.
وقيل معناه : وهو قهار كل قهار.

[الْوَهَّابُ]

مبالغة الواهب، وهو من صفات الفعل.

أى : كثير اللطف والإقبال، عظيم المن والنوال، يعطى قبل السؤال، ويسبِغ خصائص الجود والإفضال.

.

[الرَّزَّاقُ]

أى يعطى نفقة كل مخلوق مختلف جنسه بما به قيام وجوده من نباتات شتى، وغيرها . ومن الطاعة للملائكة، والمعارف رزق للأرواح، وغيرها .

.

[الْفَتَّاحُ]

أى يفتح أبواب النجاة كلما ضيق عليهم من أى وجه كان.

.

[الْعليمُ]

أى يعلم الخلائق سرًا ، وجهرًا بالأحوال على الكمال، ويعلم المنوىّ قبل أن يجرى فى القلوب بجميع كماله.

.

[الْقَابِضُ الْبَاسِطُ]

هما من صفات فعله، أى : قابض الأرواح عند الموت، وباسطها عند الحياة فى الحقيقة.

وقيل : قابض الصدقات من الأغنياء، أى : قابلها وباسطها للفقراء. أى : يعطيها .

وقيل : قابض القلوب بالجهل والغفلة، وباسطًا للقلوب بالعلم والمعرفة.

.

[الْخَافِضُ الرَّافِعُ]

هما من صفات فعله، أى : يرفع من يشاء بأنعامه، ويخفض من يشاء بانتقامه.

وقيل : رافع أنفاس الخلائق من الجوف ورادّها إليه.

وقيل : يرفع من يتذلل لأجله، ويخفض من يستعلى لنفسه.

.

[الْمُعزُ الْمُذِلُّ]

أى يعز من يشاء بفضله، ويذل من يشاء بعدله.

وقيل : يعز من تعزز بجنابه، ولجأ إلى بابه، ويذل من تعزز بغيره، وهرب من بابه.

[السَّمِيـعُ الْبَصِير]
أى : يسمع ويبصر لا بالآلة مما يحتاج إلى السمع والبصر، ولا يخرج مسموع عن سمعه، ولا موجود عن بصره، ولا يحجبهما شىء فيسمع السر والنجوى، ويبصر ما تحت الثرى، يبصر نملة صغيرة سوداء فى ليلة مظلمة تمشى فى قعر بئر عميق على حجر أسود، ويسمع صوت رجلها.

وهذا التمثيل بمجرد التفهيم، وإلا لا غاية لسمعه وبصره.

.

[الْحَكَمُ الْعَـدْلُ]
أى : يحكم لعباده بالنعمة والمصيبة، ويفعل العدالة فى ملكه لما يريد، لا يجور فى حكمه أصلاً.

.

[اللَّطِيفُ]
أى يعلم دقائق الأمور وغوامضها ومشكلاتها، ويحسن الخلائق برفق وسهل لا يصعبون أبدًا.

.

[الْخَبِير] مثل العليم.

.

[الْحَلِيمُ]
أى : يؤجل العقوبة من المستحق لها، ثم يعذبهم أو يجازيهم.

قال بعضهم : الحليم الذى يغفر من يعصى ويكفر أنعامه، وهو يستر وينعم ويلهم الشكر.

.

[الْعَظِيمُ]
أى : ذو العلو والمجد والرفعة والقدرة، مستغن عن الأنصار والأعوان، ومقدس عن الزمان والمكان.

.

[الْغَفُورُ] مثل الغفار.

.

[الْشَّكُورُ]
أى : كثير الثناء على عبده بذكر أفعاله الحسنة وطاعته.

وقيل : يعطى الثواب الكثير على اليسير من الطاعة.

[الْعَلِىُّ]

أى : المتعالى عن الأنداد، والأضداد، والأشباه.

وقيل : المتعالى ذاتًا وصفاتًا، لا مكانًا ومكانة.

.

[الْكَبِير]

أى : ذو الكبرياء، والعظمة، والجبروت.

وقيل : الكبير عن إحاطة المفهوم، وإدراك العقول.

.

[الحَفِيظُ]

أى : يحفظ المخلوق من كل بلية التى أدت الضرر إليه فى الدنيا والآخرة.

.

[الْمُقِيتُ]

أى : يحفظ قوت الإنسان والحيوان وغيرهما من الآفة والضرر، عما يجعله نصيبًا إليه، حتى يحفظ طاعة الملائكة لأن قوتهم طاعة، وقوت الأرواح المعانى والمعارف والعقل، وقوت الجن الذوق كما مر.

وقال بعضهم :

المقيت : أى مقيت كل ذى كبد بما يناسبه ويلائم مزاجه ؛ من القوت الروحانى المعنوى والحسى البشرى، مقيت أحبائه وعشاقه والمتوجهون إليه بالأغذية الروحانية الإلهية.

وفي هذا المقام قال -عليه الصلاة والسلام- :

« أبيت عند ربى فيطعمنى ويسقينى ».

.

[الْحَسِيبُ]

أى : كافيًا لعباده فى جميع أحواله وأشغاله، بلا اضطرار إلى غيره.

.

[الْجَلِيلُ]

قيل : الذى خضعت الملوك والجبابرة لجلالته، وخشعت الأملاك لسطوة هيبته.

.

[الجَمِيلُ]

بمعنى الجليل، وقيل : يعطى الجمال لعباده.

وقيل : الذى جماله جمل كل موجود.

[الْكَرِيمُ]
أى : كثير العطاء والإحسان، لا يعده العادون.
وقال بعضهم : الكريم الذى يعطى بسؤال وبغير سؤال، ما فيه مصلحة الموجودات كرمًا منه من غير سابقة عمل.
والسخى : هو الذى يعطى عند السؤال.
ولهذا اطلق عليه سبحانه وتعالى اسم الكريم دون السخى.

[الرَّقِيبُ]
بمعنى الحفيظ، وقيل الذى لا تأخذه سنة ولا نوم، مطلع على نتائج أسرار مخلوقاته، ويرقب حركاتهم وسكناتهم.
.
[الْمُجِيبُ]
أى : يجيب دعوة الداعين، ويكشف ضرورة الطالبين.
.
[الْوَاسِعُ]
أى : كثير العطاء الذى لا يعد ولا يحصى.
وقيل : العالم، وقيل : الغنى.
.
[الْحَكِيمُ]
أى : يسعد من يشاء، ويشقى من يشاء.
وقيل : الذى يكون عمله موافقًا لعلمه.
وقيل : واضع الأشياء فى محلها، ومعطى الإستعدادات قوابلها، وكل ما ظهر ووجد فى الوجود من ؛ كمال ونقص، وعلم وجهل، وضر ونفع، وضد ومناسبة، ظهرت عن مقتضى حكمته، وبحسب إرادته.
.
[الْوَدُودُ]
أى : يود المؤمنين ويودونه.
فمن خواص ذلك الاسم :
أنه من داوم على تلاوته لابد أن يوده الودود بالود الإلهى، والانعطاف الرحمانى، بعيادة خاطره على قدر مزاجه، وحسب استعداه ؛
فإن كان من السالكين :

فهو له مفتاح لحضرة القرب، ومصباح لإنارة ظلمة القلب، وبه تشرق أشعة شمس الروح على ساحة القلب، فينشرح الصدر.

.

وإن كان من يتلوه من سائر الناس أيضًا :
لابد يومًا يوده الحق بما يصلح شأنه من أمر الدنيا والدين.
وعلى ذلك الخواص انعقدا لاجماع المشايخ.
فلهذا يأمرون بتلاوته للمبتدىء.

.

[الْمَجِيدُ]
أى : كريم شريف كثير الخير عظيم رفيع لا يبلغه الغير.

.

[الْبَاعِثُ]
أى : يبعث من فى القبور بعد الموت.
وقيل : باعث أعيان الوجود من كتم العدم إلى فضاء الوجود، باعث رسل أسمائه إلى عوالم مسمياتها.

.

[الْشَّهِيدُ]
أى : يحضر علمه وقدرته فى كل شىء، ويبين الدلائل، ويشفى العليل.

.

[الْحَقُّ]
أى : موجود لا فى مكان، ولا فى زمان، هو معبود بالحق.
قال أهل التصوف :
هو مفتاح السير مع الله وبركته، يقف السالك على الحقيقة من نفسه المطمئنة فى آخر سيره فى مقامها.
كما قيل : " من عرف نفسه فقد عرف ربه ".

.

ومن هذا المقام قال الحسين بن منصور الحلاج : " أنا الحق "، لسيره الحق فى وجوده المبين.
أى : يوضح الحق ويعليه، ويميزه عن الباطل بالحجج، والبراهين، والعلامات، ويوضح المشكلات التى قبض قلوب العارفين فى معرفتها.

[الْوَكِيلُ]
أى : فوض الأمور جميعًا إليه، يصرِّفها على ما يشاء ويختار.
وقيل : القائم بأمور الموجودات بحقيقة ووكالة ؛ لكونه تعالى عين حقائقهم، وهوية أعيانهم.
ومن هنا قال الله تعالى :
{ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَّ رَمَى }
.
[الْقَـوِيُّ]
بمعنى : القادر.
وقيل : ذو القوة الذى إذا ظهر من قوته لمحة بارقة، صعق من فى السموات والأرض، وتدكدكت الجبال، وتلاطمت أمواج بحار الوجود بصواعق الفناء، فينعدم كل موجود، ثم يعيده كما بدأه أول مرة، من غير أن يمسه فى ذلك لغوب.
.
[الْمَتِينُ]
أى : هو قادر على ما يشاء لا يتعب فى فعله، ولا يحتاج فى إمضاء حكمه إلى جند، ومدد، ومعين، وعضد، بل إذا أراد إهلاك عبده أهلكه بيد ذلك العبد، حتى يخنق نفسه بنفسه، أو يحرقها، أو يفعل بها ما يكون سببًا لعدمها.
.
[الْوَلِيُّ]
أى : يتولى أمره على فعله، وينصر المؤمنين فى أفعاله.
كما قال عز وجل : { اللهَّ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ }.
.
[الْمُحْصِـى]
أى : يعدِ أعمال الخلائق قبحًا أو حسنًا، ويعد أنفاسهم، ويعلم كميتها.
قال أهل التصوف : يعد أنفاس جميع الخلائق، وأفعالها، وحركاتها، وسكناتها، وخواطرها، وتصوراتها، ونياتها، وما أكلوه وشربوه من الأزل إلى الأبد ؛ لأنه سبحانه لا يضيع لديه عمل عامل، ولو مثقال ذرة من خير وشر، علمًا وعملاً وقولاً وخاطرًا، ونية.
.
[الْمُبْدِئُ]
أى : مظهر كل شىء وموجده ابتداءً لا يتعلم عن أستاذ.

[المُعِيدُ]
أى : خالق كل شىء بعدما أفناه٠
٠
[المُحْيِى المُمِيتُ]
أى : خالق الحياة والموت٠
وقيل : يخلق من النطفة إنسانًا ثم يجعله ترابًا٠
٠
[الحَىُّ]
أى : القائم البقاء لا سبيل عليه للفناء، لا يموت أبدًا حياة دائمة قائمة ليست بعارضة له، ولا ابتداء لها٠
٠
[القَيُّومُ]
أى : المدبر والمتولى لجميع الأمور التى تجرى فى العوالم٠
وقيل : قائم على كل نفس بما كسبت، وهو الحى قبل كل حى، والحى بعد كل حى، الدائم الذى لا يموت، ولا تنقضى عجائبه٠
٠
يقال : أن بنى إسرائيل سألوا موسى -عليه السلام- حين دخلوا البحر عن اسم الله الأعظم٠
فقال لهم : قولوا : آهيا، يعنى : يا حى، شراهيا : يعنى : يا قيوم٠
فقالوا، فنجوا من الغرق٠
فلذا يقال : هو دعاء أهل البحر إذا خافوا الغرق يدعون به٠
٠
[الْوَاجِدُ]
بمعنى : العالم٠
وقيل : كاشف الأسرار على المحبيين بمشاهدة المحبوب٠
٠
[المَاجِدُ]
أى : هو ذو شرف ومجد بلا زوال ولا فناء٠
وقيل : يعطى المجد والشرف من عباده لمن يشاء٠

[الْوَاحِدُ]
أى : الذى لا قسم له، ولا يستثنى منه، ولا متبعض، ولا متحيز٠

٠

[الأَحَدُ]
أى : الفرد الذى لا ثانى له، ولا ثالث له، ولا رابع، ولا معدود، ولا محدود٠
وقيل : على العكس فى فرق الأحد والواحد فى معناهما٠

٠

[الصَّـمَدُ]
أى : يقصد إليه فى الحوائج، ولا يقصد هو فيها إلى أحد٠
وقيل : منزه عن الظرفية والمظروفية٠

٠

[الْقَادِرُ]
أى : له القدرة التى لا يقدر عليها أحد، قادر على إيجاد المعدوم، وإعدام الموجود٠

٠

[الْمُقْتِدرُ]
أى : له القدرة فى إصلاح الخلائق على وجه لا يقدر عليه غيره فضلاً منه وإحسانًا٠

كما يقال : إن الله تعالى يصلح الولد فى بطن الأم، بحال لا يبكى الولد فيه، لعدم كونه متأذيًا فى جميع أحواله، وإذا ولد يبكى لتأذيه فى إصلاح أمه٠

٠

[الْمُقَدِّمُ]
أى : يقدم بعض الأفعال على بعض بإرادته وقتًا ورتبة٠

٠

الْمُؤَخِّرُ]
أى : يؤخر بعض الأفعال على بعض بإرادته وقتًا ورتبة٠

٠

[الأَوَّلُ]
أى : القديم الذى لا ابتداء له٠

[الأَخِرُ]
من الآخر الذى لا انتهاء له، ولا انقضاء لوجوده.
.
[الْظَاهِرُ]
أى : القاهر لخلقه.
وقيل : الظاهر للعقول السليمة بآياته، وبراهينه، ودلائل توحيده.
وقيل : هو الظاهر بإفاضة النِّعْمَاء، وبالإيجاد.
.
[الْبَاطِنُ]
أى : العليم بسرائر الخلائق وضمائرها، ويدبر أحوالهم باطنًا.
.
[الْوَالى]
أى : الحاكم على الإطلاق لا يزاحمه شىء.
.
[الْمُتَعَالى]
أى : يجعل عاليًا من عباده من يشاء ويعزه.
وقيل : المتعالى عن معالى الدرجات، ورفيع المكانة والأماكن والاعتبارات، المتعالى عن إحاطة الأفكار والدرك بالأبصار.
.
[الْبَرُّ]
أى : يحسن للخلائق إحسانًا تامًا.
.
[التَوَّابُ]
أى : يتوب على عبده بألطافه، ويوفقه وييسرها له.
وقيل : قابل التوبة عن عباده.
.
[الْمُنْتَقِمُ]
أى : يعذب العصاة من يشاء بعدله.

[الْعَفُوُّ]
أى : يمحو السيئات من العصاة من يشاء بفضله.
.
[الرَّءُوفُ]
أى : يرحم الخلائق، ويحسن من غير علة ومقابلة.
.
[مَـالِكُ الْمُلْكِ ذو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ]
وقد مر معنى الملك والجليل والكريم.
قيل : ملك الملك، ملك الجود، وملك الأملاك، ملك الأرضين والسموات.
.
[الْمُقْسِطُ]
أى : يحسن فى أفعاله لا يتصور فيها نقص.
وقيل : المحق فى كل قول وفعل وصفة.
وضع الموازين بالقسط أى : بالحق.
والله يحب المقسطين.
.
[الْجَامِعُ]
أى : يحشر الخلائق للثواب والعقاب.
وقيل : يجمع اللحوم المتفرقة، والجلود المتمزقة، والعظام البالية.
.
[الْغَنِيُّ]
ذو السعة والغنى، لا يحتاج إلى كسب.
.
[الْمُغْنِى]
أى : يعطى لعبيده ما لهم فيه الحاجة، والائق بشأنهم، والموافق لأعيانهم.
.
[الْمَانِعُ]
أى : يمنع الغَنَاءُ من عباده، ويمنع من السالكين موانع السلوك لمن يشاء.

[الْضَّارُ]
أى : لا يصيب العبد ضر إلا بإرادته.

.

النَّافِعُ]
أى : لا يصيب العبد النفع إلا بإرادته.

.

[النُّورُ]
أى : ينور السموات والأرض.
كما قال الله تعالى : { اللهُّ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ }

.

[الْهَادِى]
أى : يهدى من عباده من يشاء.

.

[الْبَدِيعُ]
أى : يوجد الخلق ويبدعه بغير آله، ولا تعلم، ولا مماثلة، ولا تفكر، ولا بحث.

.

[الْبَاقِى]
أى : يبقى من كل شىء بلا زوال، ولا فناء، ولا آخر له، لا يتعلق، ولا يضر بقاءه تغير الدهور، وتحوُّل الأزمان والشهور.

.

[الْوَارِثُ]
أى : الباقى بعد فناء الخلق.

.

[الْرَشِيدُ]
أى : يهدى من يشاء من عباده، ويرشد سبيل الصواب.
وقيل : كثير الرشد، وملهم الرشد لعباده المتوجهون إليه به عنهم، وبابتغاء مرضات رسله من الأنبياء والأولياء، رشيد عباده بألسنة الكُمَّل من خلفائه للضالين عن طريق الهداية والحق من المُريدين التائهين، بسبب (كلمة غير واضحة) طباعهم، وكثافة ظلم نفوسهم.

[الصَّبُور]
أى : الحليم الذى لا يعجل فى عقوبة العصاة٠
وقيل : كثير الصبر على مخالفات عباده، وسلوكهم فى طريق أهوية نفوسهم الآمارة واللوامة، يُعصَ فيصبر، ويُكفَر فيسترُ، وينعم ويتفضل، ولا يرى من عباده شكرًا لأنعامه، فيشكر سبحانه وتعالى٠

٠

واعلم : أن القوم يتلون هذه الأسماء الحسنى على ذلك العدد زائدًا على تسعة وتسعين بأثنان، وليس اسم " الأحد والمعطى " فى الحديث٠
وفى الحديث الآخر ليس فيه اسم " المبين والمقتدر "٠

٠

وفى الأوراد الفتحية ليس فيها اسم " المبين والجميل "، وعدد الأسماء فيها مائة وثلاث، فالزيادة أفضل فى مثل ذلك عن الاختلاف٠

٠

وهذه الأسماء مما وجد فى القرآن، وهكذا أحصاها النبى -عليه الصلاة والسلام- ترتيبًا وعددًا ٠
ولكل واحدة منها فضائل وخواص لا يمكن تحريرها، وإنما أحصاها بلام التعريف دون يا المنادى ؛ لكون هذه الأسماء صفة بعد صفة، مع أنها وردت فى القرآن بها، وأيضًا أحصاها النبى -عليه الصلاة والسلام- بها ٠

٠

وقيل : أن فى ياء المنادى إيهام البعد لتخصصها بالبعيد، فاتيان أسماء الله تعالى بلام التعريف بكمال الضراعة، وتمام الخلوص، وجمع الهمة، وصرف الاشتغال أفضل٠
قال الله تعالى : { فَإِنِّي قَرِيبٌ }
وأما إذا عرف نفسه بعيدًا لعدم لياقته إلى قرب حضرته تعالى بكثرة تقصيراته، فالاتيان بيا أفضل٠

٠

والأصح ما قيل : فى أن فى كل موضع فيه مناجاة فالأنسب فيها أن يؤتى أسماء الله تعالى بيا، وفى كل موضع فيه وصفه تعالى، والثناء عليه تعالى أن يؤتى بلام التعريف، كما هو قاعدة العابدين والمتضرعين٠
وهنا فى محل الثناء٠

ثم اعلم : أنه ينبغى للسالك إذا أحصى أسماء الله تعالى، أن يرتلها ترتيلاً، وأن يحضر قلبه، ويَخْشَعُ جوارحه، وينوى بها طهارة قلبه، حتى يفيض الله تعالى عليه بلطفه، ويكون من { الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ }.

.

فالسالك إذا تردد قلبه فى الأمور الدنيوية عند التلاوة، ولم يتواضع لله فى أعماله، لم يرى فى أعماله فيضًا إلهيًا، وإذا لم يتدارك فى مراقبته وأعماله إزالة الوحشة القلبية، لم يتيسر له الخشية الإلهية كما عرفت، ومن لم يلم نفسه فهو من الخاسرين، والملامة على قوانين السلوك، ونقطة دائرة الصوفية.

.

وقالوا فى معنى الملامة : هو ذكر الذنوب، وشدة عقوبة الله، وضعف النفس عن احتمال العقوبة، وقدرة الله عليك متى شاء، وكيف شاء، فأنت عبد ذليل عاجز محتاج إليه من كل وجه، وقد خلقك ورزقك وهداك، وأنت تخالفه وتعصيه.

فإذا لام نفسه بهذه الكيفية يتولد منها ؛ الحزن، والخشوع، واليقين، والعبودية.

.

وقالوا أيضًا فى هذا المعنى :

أما الحزن : فهو حصر النفس عن النهوض فى الطرب، والتوجع على الذنب الماجن، والتأسف على العمر، والطاعة الفائتتين.

.

وأما الخشوع : فهو قيام القلب وتذلله بين يدى الحق بهمٍّ مجموع.

.

وأما اليقين : فهو استيلاء العلم على القلب واستغراقه.

يقال : لا يقين لفلان للموت إذا لم يستولى ذكره على قلبه، ولم يستعد له.

.

وأما العبودية : فهى أن تكون عبده فى كل حال، كما أنه ربك فى كل حال.

وهى أتم من العبادة ؛ لأن العبادة تكون فى وقت دون وقت، والعبودية فى كل وقت حتى إذا سكنت جوارحه عن العبادة، لا يسكن قلبه عن ذكر الله.

.

ويتولد أيضًا من العبودية الحرية والإرادة :

أما الحرية : فهى أن لا يكون العبد تحت رق المخلوقات، ولا يجرى عليه سلطان المكونات.

وأما الإرادة : فهى نهوض القلب فى طلب الحق بالخروج عن العادة.

ثم لما فرغ الداعى من احصاء أسماء الله الحسنى، ناسب له أن يزيد عليها بالثناء الذى يتعلق بالعقائد الإسلامية، وعليها مقيدة أهل السنة والجماعة التى كان النبى -عليه الصلاة والسلام- هو وأصحابه عليها من توحيد البارئ٠

٠

وأن الأوصاف الآتية نتيجة الأسماء الحسنى، فقال :

[الذى تقدست عن الأشباه ذاته]

أى : هو الله الذى تنزهت، وتطهرت ذاته المقدسة عن أن تشبه شيئًا، وأن يشبهها شىء بوجه من الوجوه، لا تشبه ذاتهم ذاته، فإن كل شىء مخلوق ومصنوع كما لا يشبه البخار الباب، والكوان الكوز٠

لقوله تعالى : { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ } ، { وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ }٠

٠

[وَتَنَزَهَتْ عَنْ مُشَابَهَةِ الأَمْثَالِ صِفَاتُه]

أى : الذى تقدست صفاته للنزهة القديمة التى لا هو ولا غيره عن أن يشابه ويماثل شيئًا، وإن يشابهها ويماثلها شىء بوجه من الوجوه، لا تشبه صفاته صفاتهم ؛ لأن صفات سواه متغير محتاج إلى الآلات، والمتغير يقبل جميع ما فيه شين، وفناء، وحدوث، وغير ذلك٠

٠

منزه عن النقائص، والحدوث، والفناء، مقدس عن المعايب، والزوال والعنا، تعالى عن أن يتصوره الفحول والأغيار، وحاشا أن يكيفيه العقول والأفكار٠

٠

واعلم أن صفاته تعالى إما ذاتية، وإما فعلية :

أما الذاتية : كالسمع، والبصر، والكلام، والإرادة، والقدرة والحياة، والعلم، وغيرها٠

٠

وأما الفعلية : كالتكوين, والرَزْق، والإحياء، والإماته، وغيرها ؛ كلها قديمة قائمة بذاته لا هو، ولا غيره؛ كالواحد من العشرة فإن الواحد لا يكون عشرة، ولا غير عشرة مثلاً٠

لأنه يلزم من وجودها وجوده، ومن عدمها عدمه٠

ثم أتى الشهود على ذلك، فقال :
[وَشَهَدَتْ بِرُبُوبِيِّتِهِ آيَاتُهُ]
أى : اعترفت، وصدقت على كونه رب العالمين علاماته ومخلوقاته، فإن فى كل خلق من خلق الله حتى الذباب، والتراب انقيادًا واعترافًا لربه، ودلالة على ربوبيته٠
٠
[ودلت على وحدانيته مصنوعاته]
أى : دلت على كونه واحدًا جميع مصنوعاته، فإنها تدل على صانع واحد البتة، كما يدل الخبر على المخبر، والخبز على الخباز، والدخان على النار٠
٠
ولو كان الإله متعددًا لاختلفت الأمور كلها، وعطلت كما رأينا فى تعدد أولى الأمر علينا٠
قال الله تعالى : { لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهٌ لَفَسَدَتَا }٠
٠
سئل علىِّ بن أبى طالب -رضى الله عنه- : بما عرفت ربك ؟
قال : بالنوم تارة، وباليقظة تارة٠
٠
وسئل مرة أخرى : بم عرفت ربك ؟
قال : بفسخ العزائم، ونقض الهمم٠
أى : عدم نيل المراد٠
٠
وسئل الحسين بن علىِّ -رضى الله عنهما- : بم عرفت ربك ؟
قال : بفسخ العزيمة، وقصر المشيئة، وضعف الأركان، وتحويل الحالات والأزمان٠
٠
فالحاصل : أن جميع العوالم كلها، بل كل جنس منها، بل كل نوع منها، بل كل شخص من نوع فى كل واحد منها، دلالة على وحدانيته، بل فى كل نوع منه، بل فى كل طور من أطوار شخص واحد دلالة على وجود الصانع ووحدانيته٠

لا يتفكر ذلك، ولا يعرفه إلا أولوا الألباب.
قال الله تعالى : { وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ }.
وقال عز وجل : { وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ }.
.
قال أهل السنَّة والجماعة :
أن الرجل إذا لم يبلغه الوحى فإنه لا يكون معذورًا، لأنه يجب عليه أن يستدل بالآيات، ويتفكر بأن للعالَم صانعًا وهو الله تعالى.
كما استدل ابراهيم -عليه السلام- حيث قال للشمس : هذا ربى هذا أكبر
فلما أفلت قال : { إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ }.
وقال الله تعالى : { انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ }.
.
قال أهل التصوف :
إذا تأمل السالك فى حقيقة الوجود من حيث المظاهر، والتعددات، والإختلافات بفكر تامٍ، بمقتضى قوله -صلى الله عليه وسلم- : « تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ اللَّهِ ».
.
وتدبر صنائع المصنوعات، واختلافات أحوالها، وألوانها، وطعومها، وحركاتها، ووحدة أصولها، وحكم القانون الإلهى عليها بإجراء أحكامها فى أوقاتها من غير خلل ولا ذلل ؛ كدوام أوقات الليل والنهار، والساعات والأيام، والشهور والأعوام، وترتيب الفصول الأربعة فى قوانينها، وأوقاتها، وإيجاد الأقوات فى كل فصل بما يناسب طبع فصله.
.
وحكمة إيجاد الإنسان من مضغة، ثم من علقة، ثم يقلبه فى أطوار التخلق إلى أن يحكم عليه بالجنين، وتكونه، وتقلبه فى الأرحام مدة معينة، ثم ظهوره إلى الوجود العينى.
.
وتلقيه يدى العناية بالتربية إلى أن يبلغ مبلغ الرجال، ويدرك مدارك الكمال، وما يظهر منه من التصورات الإلهامية، والتخيلات الصحيحة المرضية، والقابلية السليمة، والأذواق المستقيمة، وترقيه فى درجات الكمال، ومدارج العرفان.
.
فيحق له أن يكون أعظم دليل على صانعه، وموجده، وهو سبحانه وتعالى.
فهذا فرد من أفراد أنواع المصنوعات الدالة على صانعها، وموجدها، وما عداه على هذا القياس.

ثم قالوا فى هذا المعنى :
أن هذا توحيد الربوبية : وهو توحيد الأفعال من حيث الاستدلال بالمصنوعات على وجود الصانع، وبالمربوب على وجود الرب.

.

وأما توحيد الألوهية : توحيد الذات العلية، وهو معرفة الأشياء بالله.
كما قيل للنبى -عليه الصلاة والسلام- : بم عرفت الله ؟
قال : « عرفت الله بالله ».

.

قال صاحب " المهمات " : اعلم أن التوحيد أربع مراتب :

—

الأولى : أن يقول الإنسان باللسان " لا إله إلا الله " وقلبه غافل عنه، أو منكر له ؛ كتوحيد المنافقين.
والثانية : أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه ؛ كعموم المسلمين.
والثالثة : أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق ؛ وذلك بأن يرى أشياء كثيرة، ولكن يراها على كثرتها صادرة من الواحد القهار، وهو مقام المقربين.
والرابعة : لا يرى فى الوجود إلا واحدًا، وهو مشاهدة الصدِّيقين.

.

ويسميه أهل التصوف : الفناء فى الله، أى : الفناء فى توحيد الله، لأنه من حيث لا يرى فى الوجود إلا واحدًا، فلا يرى نفسه أيضًا لكونه مستغرقًا بالواحد فانيًا عن نفسه فى توحيده.
بمعنى : أنه فنى عن رؤية نفسه.

.

فالأول : موحد بمجرد اللسان، يعصم صاحبه فى الدنيا عن السيف والسنان.
والثانى : موحد معتقد بقلبه مفهوم لفظه، وقلبه خال عن التكذيب، يحفظ صاحبه عن العذاب المؤبد فى الآخرة.
والثالث : موحد انكشف له الحق كما هو عليه، ولا يرى إلا فاعلاً واحدًا، فيرى فى الآخرة جمال الله تعالى.
والرابع : موحد لم ير فى شهوده غير الواحد، وهى الغاية القصوى فى التوحيد.

فالأول : كالقشرة الأولى من الجوز، والثانية : كالقشرة السفلى، والثالثة : كاللب، والرابعة : كالدهن المستخرج من اللب٠
كما أن القشرة العليا لا خير فيها، بل إن أكلت فهى مرة المذاق، وإن نظر إلى باطنها كريهة المنظر، وإن اتخذ حطبًا أطفأ النار وأكثر الدخان، وإن ترك فى البيت ضيق المكان، فلا يصلح إلا أن يترك مدة على الجوز، ثم يرمى به عنه٠

٠

فكذلك التوحيد باللسان دون التصديق بالقلب : عديم الجدوى، كثير الضرر، مذموم الظاهر والباطن، لكن ينفع مدة ى حفظ القشرة السفلى إلى وقت الموت٠

٠

وتوحيد المنافق يصون بدنه عن سيف الغزاة، فإنهم لم يؤمروا بشق القلوب، وإنما يتجرد عن القشر بالموت هو البدن، فلا يبقى لتوحيدة فائدة بعده٠

٠

كما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالإضافة إلى القشرة العليا، فإنها تصون اللب وتحرسه عن الفساد عند الإدخار، وإذا فصل يمكن أن ينتفع به حطبًا لكنه نازل القدر، بالإضافة إلى اللب٠

٠

فكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كبير القدر، بالإضافة إلى مجرد نطق اللسان، ناقص القدر، بالإضافة إلى الكشف والمشاهدة التى تحصل بإنشراح الصدر، وانفساخه، وإشراق نور الحق فيه، وهو المراد بقوله تعالى :
{ أَفَمَن شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ }٠

٠

كما أن اللب نفيس فى نفسه، بالإضافة إلى القشرة٠
فكأن المقصود : لكنه لا يخلو عن شوب نقص بالإضافة إلى الدهن المستخرج منه٠
فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للسالكين، لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير، والالتفات إلى الكثرة بالإضافة إلى من لا يشاهد سوى الله٠

٠

ثم التوحيد الرابع وهو اللب : أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التفاته عن الوسائط، وأن يعبده ولا يعبد غيره، فيخرج منه اتباع الهوى، فكل من اتبع هواه فقد اتخذ هواه معبودًا ٠
قال الله تعالى : { أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ }

وقال النبى -صلى الله عليه وسلم- : « أبغض إلهٍ عُبدَ فى الأرض عند الله هو الهوى » وعلى التحقيق فإن عابد الصنم ليس يعبد الصنم، بل يعبد هواه، إذ نفسه مائلة إلى دين آبائه، فيقع ذلك الميل، وميل النفس إلى المألوفات أحد المعانى التى يعبر عنها بالهوى.

•

ويخرج من التوحيد الثالث : السخط على الخلق، والالتفات إليهم، فإن من يرى الكل من الله كيف يسخط على غيره، فالموحد الذى لا يرى إلا الواحد، ولا يتوجه قلبه إلا إليه، ولا يعبد سواه، هو الممتثل لقوله تعالى : { قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ }.

•

وليس المراد القول اللسانى، وإنما اللسان ترجمان يصدق مرة، ويكذب أخرى، إنما كان موقع نظر الله المترجم عنه هو القلب، فهو معدن التوحيد ومنبعه، ولا ينبغى أن يقول باللسان وقلبه متردد فى حاجاته الدنيوية، ومنصرف فى طلب الميل فى جمع المال، والجاه، واستكثار الأسباب، ومتوجه بالكلية إليها.

•

وينبغى للسالك أن يداوم بوحدانية الله تعالى فى جميع الأحوال، سيما فى مظاهر الأفعال ؛ فلا يرى الفعل إلا منه ؛ من المنع، والعطاء، والضرر، والنفع، والإيذاء، والإيلام، والإهداء، والأنعام، وسائر ما يصدر من الآنام.

•

ثم إذا ظهرت أنعامه لا يشكر إلا الله حقيقة، ويشكر ذلك المظهر الذى بعث الله على يده مجازاً، وإذا وقع إيذاء وإيلام يرى أيضًا منه، ولكن يحاسب نفسه فيما صدر منها، فيعلم أن هذا الإيذاء وقع بإساءة نفسه، وشؤمه.

•

قال بعضهم : إنى لأعرف ذنبى من سوء غلامى.

وسرق متاع رجل صوفى فقال : على الضمان فبشؤم نفسى سرق متاع جارى، إنى لبست سراويلى البارحة قائمًا، كما مر هكذا، كانوا محتفظين أحوالهم.

فأنت دائمًا إيها السالك فى الجدال، والنزاع مع زيد وعمرو، ولا ترى تسليط الحق عليك، ولا تحاسب نفسك، وتتملق لبكر وخالد طمعًا كالسنور، فمتى ترقى إلى توحيد فوق توحيد الفعل، وما صححت توحيد الفعل.

فمن لم يصحح أول مراتب التوحيد الحقيقى، وهو توحيد الأفعال لا يترقى إلى توحيد الصفات، وإذا لم يترقى إليه لا ينكشف له توحيد الذات عيانًا ووجدانًا.

.

وينبغى لكل سالك أن يعلم أن المنزل يفسد بصاحبين، والبلد يفسد بأمرين، فكذلك يفسد العالم بإلهين، ومدبرين فإله العالم واحد، كما مر تقريره هذا إلى هنا عبارة " المهمات ".

.

فوجب على السالك أن يصحح مراتب توحيده، بتدبر هذه المقدمة، ولا يغفل عن مطالعة ما نقلناه كى يفيده مرارًا، تلقائًا توحيده، وإبقائًا بتوحيده وتحميده.

[وَاحِدٌ لَا مِنْ قِلَّة]
أى : والله سبحانه الواحد الذى ليس له معدود، ولا هو ابتداء ممدود، ولا هو قليل كقلة الواحد بالنسبة إلى أعداده.
فالله تعالى منزه مقدس عن القلة والكثرة، ليس بمتبعض، ولا مُتجزِّئ، ولا قسم له، ولا استثناء منه، تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا .

•

[وَمَوْجُودٌ لَا مِنْ عِلَّةٍ]
أى : موجود منزه عن المكان، ليس لوجوده سبب ولا علة، بل هو موجود قبل كل موجود، وموجود بعد كل موجود، بلا زوال، ولا ضعف، ولا فناء، ولا ضعف، لا فى مكان، ولا فى زمان، ولا يجريان عليه، لا يحتاج إلى شىء فى وجوده جَدا .

•

كما سئل علىٌّ بن أبى طالب -رضى الله عنه- : أين كان ربنا قبل أن يَخلقَ الخلق، أو العرش ؟
فقال : كان الله ولا مكان، وهو الآن كما كان فى الأزل.

•

قال جعفر الصادق -رضى الله عنه- : التوحيد على ثلاثة أضرُب :
أن يعرف بأن الله ليس فى شىء، ولا من شىء، ولا على شىء، وقائل هذا يكفر.

•

قال الحكيم -رحمه الله- : أصل التوحيد أربعة :
أولها : العلم بوحدانية الله، والثانى : أن يعلم بأنه منزه عن الكيفية، والثالث : أن يعلم بأنه مقدس عن الكمية، والرابع : أن يعلم بأنه متعال عن الأبوة، والأبنية.

ويصدِّق ذلك كله بقلبه تصديقًا معرا من أنواع التكذيب ظاهرًا وباطنًا، ومن وصف الله تعالى أو أعتقد بما لا ينبغى لربوبيته ؛ كالأجزاء والأبعاض، والتمكن بالذات، أو الانتقال من مكان إلى مكان، أو وصفه بصفة حادثة، أو بأنه تعالى أقرب إلى المؤمنين بالذات، أو شك أو ظن، يكفر.

ولكن يقال : أن الله أقرب إلى المؤمنين بالرحمة، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، وغير ذلك.
وذاته تعالى : منزه عن الجهات الست، ومن يسمى الله تعالى باسم لم يسم به ذاته، ولم يوافق معنى الربوبية، ولم يرد الخير، فإنه يكفر عند جميع العلماء.

فعليك أيها السالك أن تصحح اعتقادك، ولسانك عما يفضى إلى الكفر، فإن ذرة من الكفر تهدم بيوت الدين والعياذ بالله.

.

قال أهل الحقيقة :

أن يرى الأمور كلها من الله تعالى، ويقطع التفاته عن الأسباب والوسائط، فلا يرى الخير والشر إلا منه.

ومن ثمراته التوكل، وترك شكاية الخلق، والغضب، والحسد عليهم، والتسليم لحكم الله تعالى، ومهما تحقق أن الشمس، والقمر، والنجوم، والجمادات، والنباتات، والحيوانات، وكل مخلوق مسخرات بأمره ؛ كتسخير القلم فى يد الكاتب.

استولى عليه التوكل، والرضا، والتسليم، وصار بريئًا من الغضب، والحقد.

وهو أن لا يعبد إلا الله، ومن اتبع هواه فقد اتخذ إلهه هواه، فهو موحد باللسان لا بالحقيقة.

.

بل معنى ذلك " لا إله إلا الله "، معنى " لا إله إلا الله " { قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ }

وهو أن يذر بالكلية غير الله.

.

ومعنى قوله تعالى : { ثُمَّ اسْتَقَامُوا }

قال الشيخ الغزالى -رحمه الله- :

" ولما كان الصراط المستقيم الذى لا يكمل التوحيد إلا بالاستقامة عليه، أدق من الشعرة، وأحد من السيف، مثل الصراط فى الآخرة، ولا ينفك البشر عن ميل عن الاستقامة، ولو فى أمر يسير، ولا يخلو عن اتباع الهوى، ولو فى فعل قليل، وذلك قادح فى كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم.

.

فذلك يقتضى نقصًا فى درجة القرب، ومع كل نقصان ناران :

نار الفرقة : لذلك الكمال الفائت بالنقصان، ونار جنهم.

فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذبًا مرتين ". انتهى

[بِالْجُودِ مَعْرُوفُ]
أى : مشهور، ومبيَّن عند كل مخلوق أنه منعم محسن كريم، معطى بلا سؤال ولا استحقاق، بلا منّ، ولا غرض، ولا احتياج، ولا مقابلة من سجال لطفه، وأفضال رحمته٠
وهو منعم قبل أنعامه، ومنعم بعد أنعامه، لا يزال منعمًا أبدًا دائمًا فى الابتداء والانتهاء٠
٠
وإنما قال معروف، ولم يقل معلوم : لعدم إحاطة الإدراك بجميع جوده وأنعامه٠
فإن المعرفة : ادراك الجزئيات٠
والعلم : إدراك الكليات٠
فهل من أحد يحيط علمه بجميع نعم الله تعالى ؟!
فلذا لا يقال للولى : العالم بالله، بل يقال : العارف بالله٠
٠
[وَبِالإِحْسَانِ مَوْصُوفُ]
أى : موصوف عند جميع الخلائق بأنه محسن للمخلوقات، لا يهلك الكفار والعصاة جوعًا لأجل كفرهم، وعصيانهم٠
وهو موصوف بالإحسان قبل إحسانه، وموصوف بالإحسان بعد إحسانه، لا يزال محسنًا، والإحسان صفته القديمة٠
٠
ثم أكد كونه معروفًا بالجود بقوله :
[مَعْرُوفُ بِلَا غَايَةٍ]
أى : لا غاية، ولا محدود فى كونه معروفًا بالجود٠
أى : ليس لكونه معروفًا، ولا من مدة إلى مدة، بل هو معروف قبل أن يكون معروف عند الخلائق٠
٠
ثم أكد كونه موصوفًا بالإحسان بقوله :
[وَمَوْصُوفُ بِلَا نِهَايَةٍ]
أى : لا نهاية فى كونه موصوفًا بالإحسان، ليس له مدة، ولا من مدة إلى مدة، بل هو موصوف قبل أن يكون موصوفًا عند الخلائق على الاستمرار٠
كما قال عز وجل لحبيبه -عليه الصلاة والسلام- فى الحديث القدسى :
[كنت كنزًا مخفيًا فأردت أن أعرف فخلقت الخلق فبى عرفونى]

ثم استدل الداعى على ذلك بقوله :
[أَوَّلُ قَدِيمُ بِلَا ابْتِدَاءٍ]
أى : أول قبل كل أول، لا ابتداء لأوليته، وقديم من كل قديم، لا ابتداء لقيوميته، والابتداء والانتهاء مخلوقه، ولا يترتب المخلوق عليه.

.

[وَآخِرُ كَرِيمُ مُقِيمُ بِلَا انْتِهَاءٍ]
أى : آخر بعد كل آخر لا نهاية له.

.

فالحاصل : أن ليس لجميع صفات الله تعالى حدٌّ، ولا غاية، ولا نهاية.

قال أهل السنَّة والجماعة : معرفة الرب واجب فرض على كل أحد.

—

وهى أن يعرف العبد بأنه تعالى موجود، وواجب وجوده، لا يتعلق وجوده بالزمان والمكان، مرئى لا فى مكان، موجود قبل أن يخلق الخلق والزمان والمكان، أعظم من أن يسع فى مكان، يعلم السر وأخفى، ولم يتخذ صاحبة ولا ولد، ولم يكن له شريك، والأول الذى لا ابتداء له، والآخر الذى لا انتهاء له، الظاهر بجلاله، والباطن بكماله، ولا يغرب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، منفردًا بالأزلية والقِدَم، منزه عن قبول الفناء، مقدس عن الزوال والانتقال، موصوف بالعزة، والعظمة، والكبرياء، رب السموات والأرض، منزه مقدس عن الجسم والجارحة والتركيب والتأليف، والجوهر والعرض والزمان والمكان، والزيادة والنقصان، والطول والعرض والعمق، والذوق والطعم والشم، واللينة والخشونة، والحرارة والبرودة، والتعطيل والتخيل والمزاجة، والمقايسة والمخالطة، والمباشرة والمقابلة والمماثلة، والمشاركة والمشاكلة، والاجتماع والفرار، والاضطراب والكيف والظروف، والكم، والقرب والبعد والحدود، والصعود والنزول، والصورة والهيكل والهيئة، والتغيير والحركات والسكنات، والجهات، والآفات والأمراض والأوجاع والآلام.
وعما تصورته الأنام والأوهام ؛ بما لا ينبغى لذاته وصفاته تعالى الله عن ذلك علواً كبيرًا.

.

فيجب على العبد أن يعرف الله مقدمًا على ذلك، ومن قال بواحدٍ من ذلك أو شك يكفر.
ومن الأسماء الحسنى إلى هنا جامع لهذه المعانى.

فعليك أيها السالك التشمير والسعى فى تخليص اعتقادك عما لا يليق بصفات الله تعالى وذاته.

.

ويجب عليك التأمل، والتتبع فى باب ما يؤمن به من كتب الفروع الذى سيأتى ذكر شىء منه إن شاء الله تعالى، حتى تخلص نفسك من العقيدة الباطلة التى عليها المعتزلة، وتكون من الفرقة الناجية التى عليها أهل السنَّة والجماعة.

.

فإن أكثر الناس لقصور فهمهم، ووفور وهمهم لا يتميزون أنفسهم، بل كانوا فى شك أو ظن يعتقدون الملك القدوس بشىء لا ينبغى لذاته، وصفاته، وإذا كلمتهم بشىء من هذه المباحث، وتكلموا الأبد من حدتهم وفسادهم.

.

وقيل : الجاهل أقرب إلى الكفر من بياض العين إلى (كلمة غير واضحة)، وغير ذلك.
وليبك الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

.

قال فى " الفتاوى التاتارخانية " نقلًا عن " المضمرات " :
أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- سئل متى يعلم الرجل أنه من أهل السنَّة والجماعة ؟
فقال :
« إذا وجد فى نفسه عشرة أشياء فهو على السنَّة والجماعة :
يصلى الخمس فى جماعة، ولا يذكر أحدًا بمنقصة، ولا يخرج على السلطان بالسيف، ولا يشك فى إيمانه، ويؤمن بالقدر خيره وشره من الله تعالى، ولا يجادل فى دين الله، ولا يكفر أحدًا من أهل التوحيد بذنب، ولا يدع الصلاة على من مات من أهل القبلة، ويرى المسح على الخفين جائزاً فى السفر والحضر، ويصلى خلف كل بر وفاجر ... » الحديث.

.

فانظر وتأمل أيها المتورع أنت تذكر المسلمين بمنقصتهم فى ملأ الناس مرارًا على فساد، وتكفِر أهل التوحيد كراراً على عناد، وإذا ظهر الحق لا ترجع عن قولك الباطل بل تجادل فى ذلك بالاستكبار.

فبهذه الصفات القبيحة هل تكون من أهل السنَّة والجماعة، فضلاً عن أن تكون من صلحاء الأمة، بل تكون من أهلك الناس لما فصلناه.
ولما فى صحيح مسلم فى رواية أبى هريرة -رضى الله عنه- أنه قال :
« إذا رأيتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم .. » الحديث.
.
قال فى " شرح المشارق " : يعنى فى ذم الناس وذكر عيوبهم، وقال : قد هلكوا .
فهو أشدهم هلاكًا لكونه آثمًا من تحقيرهم، وربما أدى ذلك إلى العجب بنفسه، أو معناه، فهو أهلكهم لأنه أقنط عباد الله عن رحمته، وذلك يؤدى إلى ترك الطاعة والانهماك فى المعاصى ". انتهى
.
فالمصيبة العظمى ، والمهلكة الكبرى على المغتابين والقادحين، نعوذ بالله.
نعم غيبة الفاسق المعلن له أجران ؛ كأن قد يعلم أنَّ بذكره يتوب، أو أن نوى للإعلام لمن لا يعلم كى يحذره، وهذا مرة أو مرتين، فلا يجوز إحاطة المجلس بالغيبة والتمسخر فى رأس سبعة أيام مرتين، ولو وقع من اغتابه فى ضلالة بسبب غيبته يكون مضلاً، فيشترك فى فسقه.
.
قال الله تعالى : { وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا }
قال القاضى فى تفسيره :
فيه دليل على أن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة، وجب تركها فإن ما يؤدى إلى الشر شر.
.
وقيل : كان المسلمون يسبون آلهة الكفار فنُهو لئلا يكون سبهم سببًا لسب الله تعالى.
ومن هذا قال أهل الحديث : تترك المصلحة لأجل المفسدة.
كذا فى شرح المشارق.
.
وعلى هذا اتفق الفقهاء : على أنه لا يجوز للواعظ أن يذم الناس فى موعظته لا تصريحًا ولا تعويضًا، فإنه يوجب الفتنة، والوعظ بالمذمة حرام ؛ فلا يجوز للناس أن تحضر مجلس ذلك الواعظ، وإذا حضروا يفتنون.
كذا فى " الأصول والفروع ".

قال فى " شرح المشارق " : لوجوب النهى عن المنكر شرائط :

—

منها : أن لا يكون المنهيّ عنه واقعًا، لأن الحس هو الذم على الواقع لا النهى عنه.
ومنها : أن يغلب على ظنه أنه يفعله.
ومنها : أن يغلب على ظنه أن نهيه مؤثر.
ومنها : أن يعلم أن ما فعله ليس فى جوازه قول، بل متفق إنكاره.
ومنها : أن يعلم الناهى جميع وجوه اختلافات المسائل، واتفاقاتها حتى لا ينكر من يأخذ قولاً فيه مساغ.
ومنها : أن يعلم أنه لا يزيد فسقه مقنتًا وعنادًا .
ومنها : أن لا يرفع صوته، بل ينهى بقول ليِّن.
ومنها : أن لا يغضب أصلاً، ولا يذم أحدًا .
ومنها : أن لا يتكلم مشيرًا بيعبه كسائر الناس فى مكالمتهم.

.

وقال فى المحيط : لا يجوز للمحتسب إذا رأى منكرًا أن ينكره بالغضب.
بل يقول لفاعله : إنى تبت عن ذلك أرجو أن يتوب من فَعَلَه.
ولا يقول : أنت فعلت كذا أو لا تفعل يا فاسق، لأن الله تعالى لم يسم أحدًا باسمه حين فَسق، بل يقول :
{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ }

.

قال أبو الدرداء -رضى الله عنه- :
من وعظ أخاه فى العلانية فقد شانه وعيِّبه، ومن وعظه فى السر فقد زانه.

.

قال الفقيه أبو الليث -رحمه الله- :
يجب للمحتسب أن يقصد به وجه الله تعالى، وإعزاز الدين، ولا يكون لحمية نفسه، وأن يكون عالمًا يحسن التقرير، وآداب التؤدة والشفقة واللين، ولا يكون فظًا غليظًا ، وأن يكون صبورًا حليمًا وعاملاً بما يأمر به، وأن لا يفتش أحوال الناس.
وإذا لم يك فيه هذه الشرائطُ خذله الله تعالى فى الدنيا والآخرة. انتهى

فأنت تصدق النمَّامين المرائين بما نقلوا لك عن المسلمين، بتجسسهم فى أزقتهم، وتقول بقولهم، ثم تقع فى المنهى عنه٠
قال الله تعالى :
{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ }٠
لم يذكر أحدًا باسم الفاسق إلا النمام٠
٠
قال فى " الروضة " :
روى أن الحسن والحسين -رضى الله عنهما- رأيا رجلاً يتوضأ ولا يحسن الوضوء٠
فقال : أى أخى أن هذا لا يحسن الوضوء، ونحن صبيان لو علمناه يتأذى منا كيف نفعل حتى يتعلم هذا ولا يتأذى منا ؟
ثم قال الحسين : أى أخى أنا أقول أنظر إلىَّ أأحسن الوضوء أم لا، حتى ينظر هذا إلىَّ فيتعلم الوضوء، ولا يتأذى منا، ويسقط عنا هذا الفرض٠
٠
فقام الحسن وجعل الحسين يتوضأ حتى ختم الوضوء، والرجل ينظر إليه، فلما فرغ من وضوئه قال الحسين : يا أخى علمت الوضوء ؟
قال : نعم٠
فقال الرجل فى نفسه : كان ينبغى أن أتوضأ بمثل هذا، فتعلم ذلك منه٠
فانظر كيف نهى عن المنكر، وكيف أمر بالمعروف، وكيف كان مؤثرًا ٠
٠
وقد عرفت آنِفًا أن من شرائط الأمر بالمعروف : اللين٠
قال الله تعالى حكاية عن موسى وهارون حين أرسلهما إلى فرعون : { فَقُولا لَهُ قَوْلا لَّيِّنًا }
وقال الله تعالى لنبينا -عليه الصلاة والسلام- : { فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ }٠
وقال تعالى : { وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ * فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ }٠
وقال تعالى : {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ }٠

وقال -عليه الصلاة والسلام- : « إن الله يحق الرفق فى الأمر كله »٠
وقال -عليه الصلاة والسلام- : « رأس العقل بعد الإيمان مداراة الناس، والتودد إلى الناس»٠
وقال -عليه الصلاة والسلام- : « إن الله رفيق يحب الرفق يعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف »٠

٠

حكى : أن المأمون حضر مجلس واعظ، وعنف له فى القول٠
فقال : يا واعظ أرفق فقد بعث الله تعالى من هو خير منك إلى من هو شر منى، وأمره بالرفق، فقال تعالى : { فَقُولا لَهُ قَوْلا لَّيِّنًا }٠

٠

وحكى : أن قومًا جاؤا إلى شيخ، وطلبوا منه شيخًا ناصحًا فيهم، فاختار الشيخ رجلاً صالحًا ناصحًا من أحبائه، وقال : أوصيك أن لا تدعى الربوبية٠
فقال الرجل : نعوذ بالله، فكيف ذلك ؟
قال : إن ادعيت بنصحك إلى القوم نفوذ قولك البتة، فقد ادعيت الربوبية، فإن ذلك لا يليق إلا لله تعالى، وإنما أنت ناصح مذكر لست بمسيطر، ولا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء٠

٠

فلذا نفى علىٌّ -رضى الله عنه- كثيرًا من الواعظين حين قدم إلى الكوفة، لما رأى منهم خلاف الشرائط للحسبة، ثم أجاز للحسن البصرى -رحمه الله- فى البصرة، ونصحه كثيرًا ٠

٠

فأنظر أيها المتعصب فى تشديد قولك، وتعنيفه مع الفظاظة، وفى قولك على ملاء الناس فى رجل صالح بيا زنديق ؛ فأنك جبار عنيدًا ، وأوحى الله إليك٠

٠

وأنظر فى حرصك على جمعية الجهلة حولك، حيث تخوِّف بهم أهل العرض، وتريد أن تخرج الأعز من البلد، وتعزّ الأذل تابعًا لأهوية بعض الأهواء، فكيف تكون ورعًا أو صالحًا أو مسلمًا على مقتضى : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده »٠
و { وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ }٠

٠

حول الله حالنا إلى أحسن الحال، وبدل مقالنا إلى أفضل المقال آمين٠

[أَحَاطَ بِكُلِّ شىءٍ عِلْمًا] لم يتم شرحها بالمخطوط۰

۰

[وَغَفَرَ ذُنُوبَ الْمُذْنِبِينَ]

أى : يغفر ذنوب العصاة من المؤمنين، لا عدلاً، ولا جزاءً۰

۰

بل [كَرَمًا وَحِلْمًا ، وَلُطْفًا وَفَضْلًا]

أى : من كرمه الذى لا يقارن بتوبة، ولا سؤال، ولا سابقة عمل۰

ومن حلمه الذى يذنب العبد، وهو يستر ويغفر، والعبد يكفر أنعامه، وهو ينعم ويلهم الشكر۰

ومن لطفه الذى لا يظهر عيوب العبد أصلاً لفاعله، ولا لغيره حتى لا يعلم المذنب أنه أذنب۰

۰

روى : أن الحفظة تنسى ذلك بالكلية من فضله الذى يعطى الجنة بلا مكافاة، ولا مجازاة۰

۰

يقال : لولا ثلاثة لضاعت ثلاثة :

لولا الكفار لضاعت النار، ولولا المؤمن لضاعت الجنة، ولولا العصاة لضاعة الرحمة۰

۰

وروى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال : قال الله تعالى :

[من علم أنى ذو قدرة على مغفرة الذنوب غفرت له ولا أبالى مالم يشرك بى]۰

۰

وفى صحيح مسلم فى رواية أبى أيوب -رضى الله عنه- أن النبى -عليه الصلاة والسلام- قال : « لو أنكم لم تكن لكم ذنوب يغفرها لكم لجاء الله بقوم لهم ذنوب فيغفرها لهم »۰

۰

وفى الصحيحين فى رواية معاذ، أنه -عليه الصلاة والسلام- قال :

« يا معاذ هل تدرى ما حقُّ الله على العباد، قال قلت : الله ورسوله أعلم، قال : فإن حق الله على العباد أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئًا، يا معاذ هل تدرى ما حقُّ العباد على الله تعالى إذا فعلوا ذلك ؟ قلت : الله ورسوله أعلم، قال : أن لا يعذبهم »۰

۰

قالوا : فى هذا الحديث بشارة لأهل التوحيد۰

وأيضًا فى الصحيحين فى رواية أبى موسى : أنه -صلى الله عليه وسلم- قال :
« لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنه يشرك به، ويجعل له الولد، ثم هو يعافيهم ويرزقهم »

.

قال أهل الحديث فى معناه : أن الله تعالى يرزق من أشركه، وأنكره، وعصاه.
وهذا كرمه، ومعاملتهمع من يؤذيه، فما ظنك بمعاملته مع من لم يتحمل الأذى منه، ويثنى عليه.
ـ هكذا فى المخطوط ،واعتقد والله أعلم أنه يريد أن يقول : مع من يتحمل الأذى منه ـ.

.

وحكى أن إبليس قال :
إلهى إن المؤمنين يحبونك ولا يطيعونك، ويبغضونى ويطيعونى.
قال الله تعالى : إنى غفرت لهم ما أطاعوك بما أبغضوك، وعفوت عنهم ما لم يطيعونى بما يحبوننى، فصرخ اللعين صرخة، وهرب.

.

وحكى أنه لما لعن إبليس، قال : فبعزتك لأغوينهم أجمعين.
فقال الرب تعالى : كل عبد أذنب ذنبًا فاستغفرنى غفرت له.
فقال اللعين : أنا أمنعهم عن الاستغفار.
فقال تعالى : إن منعتهم عن الاستغفار، أفتمنعنى عن الغفران ! أغفر ولا أبالى، ليعلم الخلائق أنى كريم رحيم.

.

ومن هذا قال معاذ الرازى -رحمه الله- :
إلهى ثوابك للمطيعين، ورحمتك للمذنبين، أنى وإن كنت لست بمطيع لا أرجو ثوابك، فأنا من المذنبين فأرجو رحمتك.

ثم اعلم أيها السالك : لا يغرنك عملك لدخول الجنة فإن الأعمال لا تكون سببًا لدخولها، بل يكون مستعدًا للرحمة.

كما قال تعالى : { إِنَّ رَحْمَتَ اللهِّ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ }

.

وإلا فجميع الأنبياء لا يدخلون الجنة إلا برحمة الله لما فى " الصحيحين " أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال : « لن ينجو أحدكم بعمله.

قيل : ولا أنت يا رسول الله ؟

قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته ».

.

وقال -صلى الله عليه وسلم- : « لا يُدخل أحدًا منكم الجنة، ولا يجيره من النار، ولا أنا إلا برحمة الله .. » الحديث.

.

وإن قيل : قال الله تعالى : { جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } الآية، تدل على أن الجنة تكون بسبب الأعمال.

قلنا :

إن الله تعالى مسبب الأسباب، وربط كل شىء بحذاء السبب العادى على حكمه خفية ؛ كالمطر سبب للنبات، والجماع سبب للولد، والأكل سبب للشبع، والعمل سبب للجنة، وغير ذلك.

.

وجرت عادة الله على ذلك مهما وجد المسبب يتسعه وجدان المسبب، كعدم الولد بعد الجماع فى أكثر الأحوال، وعدم النبات بعد المطر، وعدم الشبع بعد الأكل فى بعض الإنسان.

كل ذلك من رحمته ومشيئته، لا يجب على الله شىء.

.

وأما قوله -صلى الله عليه وسلم- : « من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان كان حقًا على الله أن يغفر له »

فمعناه : أى كان جديرًا ولازمًا إذ وعد الكريم كدين الغريم فإنه لا يخلق الميعاد، وكان وعده كالواجب لصدق وعده، وعدم مخالفته، لا الواجب الفرض، فليس أحد يقول العمل سبب لدخول الجنة إلا المعتزلة.

وحكى : أن الله تعالى أوحى إلى داود -عليه السلام- :[يا داود بشر المذنبين، وانذر الصديقين]٠
قالوا فى معناه :
بشر المذنبين بقبول التوبة، والمغفرة، والرحمة حتى يتوبوا ٠
وأنذر الصديقين بأن لا يعجبوا بأعمالهم، ولا يراؤون، كيلا يهلكوا ٠
٠
ومن هذا قالوا :
أن الناس كلهم موتى إلا العالِمون، والعالًمون هلكى إلا العاملون، والعاملون غرقى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم لكونهم فى مظان الهلاك ؛ بالعجب، والرياء، وحب المدح، والدنيا، والرياسة، وخوف الذم والفقر، والتجسس على عيوب الناس، والإختلاط بالناس الذين فيه خَطَرات كثيرة يعرفها أولوا الأبصار٠
ولا يتخلصون من هذه الورطة إلا بنسيان الخلق والنفس، ولا يحصل ذلك إلا بمهاجرة الأوطان، وملازمة أبواب المرشدين، اتفق عليه صلحاء الموحدين٠
٠
وعلى صدق تلك الأقوال دلائل قد سبق ذكرها فى شرح ما ذكرناك، وفى مواضع شتى٠
٠
حكى : أن أبا يزيد -رحمه الله لما قدم إلي بلده، فاستقبلوه وعظموه، فرأى فى نفسه شيئًا فأكل عمدًا على مرأى من الناس، وهو فى رمضان، فنفروا عنه٠
وقال أصحابه : لما أكلت ؟ هو مكروه وفرض عليك، وقد أبغضك الناس٠
قال :
كفارة ذلك يسيرة، وهى : عتق رقبة، أو صيام شهرين متتابعين٠
وكفارة ما نقصت من الدين الذين حصل من استقبال الناس أياى أمر مشكل٠
٠
وحكى : أن سلطانًا قد حضر مجلس شيخ وهو يعظ٠
فرأى الشيخ فى نفسه مسرة بقدوم السلطان، فنزل من الكرسى، ولعبد كما يلعب الصبيان، فنفر ومنه السلطان، وقال : إنه مجنون، وذهب
فسئل الشيخ عن ذلك، فقال : اشتريت دينى بلعبٍ قليل قد بعته بمسرّة شرف السلطان، فالرياء فى نفس الإنسان أخفى من دبيب النمل، لا يظهر إلا برغبة الناس٠

وأنت أيها المسكين يقبل الناس فى يوم واحدٍ يديك مرات، ويزورك القضاة والأغنياء، ولا يصدر كلام الناس على كلامك، وتلاطف الأغنياء، وغيرهم كى يحبوك ويعطونك، إلى غير ذلك.

.

فبهذه الأحوال خلاصك من مكر الشيطان أمر مشكل، إلا أن يعينك الملك المنان.

والنعمة الكبرى للسالك : أن لا يعرفه أحد، ولا يعتبره.

.

روى : أن عليًّا -رضى الله عنه- أراد أن يشترى لنفسه قميصًا، فجاء إلى حانوت رجل فى السوق، فقال : هل عندك قميص.

قال : نعم يا أمير المؤمنين.

فذهب علىٌّ منه إلى آخر لكونه يعرفه، فاشترى منه قميصًا ولبسه، وقال للبائع اقطع من كمه قدر شبر لأنه أطول من اليدين.

فقال البائع لرجل آخر : انظر إلى هذا المجنون يقطع كميه.

فقال علىٌّ -رضى الله عنه- :

الحمد لله الذى أكمل إيمانى، سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسم- يقول :

« لا يتم إيمان رجل مسلم حتى يقول الناس أنه مجنون ». انتهى.

ثم وصف الله تعالى بما وصف به ذاتَهُ توسلًا ، وقال :

[الَّذى لَمْ يَلِدْ]
أى : ليس له ابن ولا بنت، منزه عن الأَنْسَال والأولاد٠

٠

[وَلَمْ يُولَدْ]
أى : أى ليس له أب ولا أم، منزه عن الآباء والأجداد٠

٠

[وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدُ]
أى : ليس له مثل، ولا شبه، ولا صاحب، منزه عن الأقران والأنداد٠

٠

[لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ]
أى : ليس مثله شىء، منزه عن الأمثال والأضداد٠

٠

[وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ]
أى : يسمع كل ما جرى فى العوالم والضمائر، سرًا وجهرًا ويعلمه، يسمع لا كسمعنا، ويعلم لا كعلمنا، لأنه ليس كمثله شىء فى ذاته وصفاته٠

٠

[نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَصِيرُ]
لأنه متصف بكمال العلو والمجد، وهو أحسن الناصرين والخالقين فى جميع أمور الخلائق٠

٠

فإذا وصفه العبد بما سبق بالمكارم والأوصاف، ناسب له أن يسأله المغفرة لما أن من شأن الكريم العطاء، فقال :
[غُفْرانَكَ رَبَّنَا وَإلَيْكَ المَصِيرُ]
أى : نرجوا من لطفك أن تغفر لنا يا ربنا٠

٠

والحال أن رجوعنا ورجوع دعائنا إليك، كما إن مبدأ كل شىء منك، وهذا التفات من الغيبية إلى الخطاب يشعر ؛ الخضوع، والاستعانة والشوق إلى مغفرة الله٠

[وَحَسْبُنَا اللهُ تَعَالَى وَنِعْمَ الْوَكِيْلُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِىِّ الْعَظِيمِ]
قال فى " المصابيح " :
أن النبى -صلى الله عليه وسلم- قال : « كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الصُّوَرِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ يَنْتَظِرُ مَتَى يُؤْمَرُ أَنْ يَنْفُخَ ؟
قال : قُلْنا : يا رسولَ الله فما نقولُ يومَئذٍ ؟
قال : قولوا : حَسْبُنا اللهُ ونِعمَ الوكيلُ ».

.

فمعناه : أى كفانا الله ربًّا، ومعيناً فى أحوالنا دينيًا أو دنيويًا، فى الدنيا والآخرة، بلا احتياج إلى غيره، فيما فيه مصلحة العباد، فكيف وسواه محتاج إليه، فإنه أحسن الوكيل، لا ينسى، ولا يسهو عن شىء، لأننا لا نجد حولًا ولا قوة إلا بإرادته ومشيئته.

.

كما قال : [يَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ بِقُدْرَتِهِ]
أى : يخلق الله ما يشاء من ؛ الإحياء، والإماتة، والإبداع، والإيجاد، وغير ذلك بقدرته القاهرة الغالبة، بغير استمداد، ولا استئذان فإنه فاعل مختار.

.

[وَيَحْكُمُ مَا يُرِيدُ بَعِزَّتِهِ]
أى : يوجد ما أراد فى المصنوعات من ؛ الخير، والشر، وغيرهما شاءوا أم أبوا، لأنه عزيز غالب ينفذ حكمه، ويؤثر البتة متى أراد، لأن الخلائق وأمورهم لا مدخل لغيره فيهم بل مختص له.

.

كما قال : [أَلَا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ]
أى : وإنما كان الله يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد لأن جميع الخلائق ،وما جرى فيها له تعالى، ليس لأحد فيها سبيل، فالخلق له، والأمر له فيفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

ثم أثنى الداعى بما أثنى الله به على نفسه، توسلًا به، وإظهارًا للعجز، فقال :
[تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ العَالَمِينَ]
أى : تعاظم، وتزايد خيره، ودام وثبت فضله الذى هو رب العالمين.

.

وقيل : مالك العالمين، والعالَم اسم لما يعلم به الصانع من الجواهر والأعراض، فإنها لإمكانه، وافتقارها إلى مؤثر، واجب لذاته تدل على وجود الصانع.

.

وقيل : اسم لذوى العلم من جميع الممكنات.
ويقال : كل من كان له عقل يخاطب مثل ؛ بنى آدم، والملائكة، والجن هو عالَم.
فلا يكون البهائم وغيرهم عالَمًا .

.

روى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :
« إن لله تعالى ثمانية عشر ألف عالَم، وإن دنياكم منها عالَم واحد ».

.

قال أهل الحقيقة : إن الإنسان عالَم أكبر يجمع فيه جميع العوالم المعدودة، لا يعرف ذلك إلا أولوا الأبصار.
قال الله تعالى : { وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ }.

.

ولا يمكن تحرير أصناف معرفتها، ولكن نذكرك تمثيلًا مما اشتهر ليكون تسهيلًا عليك.
قيل : أن جميع الحيوانات البرية والبحرية والهوائية، ثمانية عشر ألف صنف، ولكل صنف من هذه الأصناف طبيعة تخالف طبيعة ضده، وطبائع كل الأصناف يوجد فى إنسان واحد.
مثلا : فلا يجوز أن يكون الإنسان تارة كالفرس فى الطبيعة، وتارة كالبغل، وتارة كالحمار، وتارة كأنواع الطيور إلى غير ذلك، إلى ثمانية عشر ألف صنف.
ويسمى هذا عالم الوجود .

.

ويوجد أيضًا فى الإنسان ثمانية عشر ألف عالَم آخر، ويسمى هذا " عالم الجزئيات "، وذلك أن جزئيات هذه الدنيا ثمانية عشر ألف، يوجد مثلها فى الإنسان.

.

كما أن مفاصل الإنسان كالبلدان، وروحه كالسلطان، وعقله كالوزير، وطبيعته الفاسدة كالأشقياء، وطبيعته الصالحة كالأتقياء، إلى غير ذلك إلى أن يكمل ثمانية عشر ألف.

وأيضًا يوجد فى الإنسان ثمانية عشر ألف عالَم آخر، وذلك عالَم الشهود والملكوت.
فإن جسم الإنسان كالسماء، وعينيه كالشمس، وأذنيه كالقمر، وفراسته كالكوكب، وقلبه كالعرش، وعقله كالكرسى ...

.

وكل واحد من هذه المذكورات عالم يعلم به الصانع، وهذا الاعتبار من اعتبارات أهل الاعتبار، لا يعرف ذلك إلا أولوا الألباب الذين لهم ذوق سليم من علم التصوف.

.

وإذا وجد السالك فى نفسه نظائر العوالم، يخرج من الشكوك والظنون، ويدخل فى علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، وتسرى إلى قلبه الخشية الإلهية، ويكون ممن قال الله تعالى فى شأنه : { إِنَّمَا يَخْشَى اللهَّ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء }
فتسرى الخشية إلى قلب السالك مقدار علمه، ويقينه حقيقة.

.

ثم بعد تعداد الأوصاف الجليلة لله تعالى، ناسب له أن يوحده غير مرة، فقال :
[وَنَشْهَدُ أَنْ لا إِلَه إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ]
حال كونه إلهًا عادلًا، صفة لإلهًا.

.

وكذا قوله : [جَبَّاراً، وَمَلِكاً]
عطف على قوله إلهًا.

.

[قَادِراً] صفة لملكًا، وكذا [قَهَّارًا].

.

[للذُّنُوبِ غَفَاراً، وَلِلعُيُوبِ سَتَّاراً]
معطوف على المقدم، وإنما غير الأسلوب رعاية للسجع، أو للاستقلال فى المقصود وتقديره.
وغفاراً للذنوب، وستار للعيوب.

.

وإنما أتى بواو العطف فى أشهد ؛ ليكون معطوفًا على قوله : [وَشَهِدَت]
وصار توحيده مقارنًا بتوحيد آيات الله، فإنه من جملة آياته.

ثم عقبه بشهادة نبوة سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم-، لأنها شعار التوحيد.
فقال : [وَنَشْـهَدُ أَنْ سَيِّدَنَا وَنَبِينًّا مُحَمَّداً عَبْدُهُ الْمُصْطَفَى]
أي : اختاره الله تعالى على جميع الأنبياء، واجتباه فضلاً وشرفًا.
.
وإن أُخر بالبعث فإنه خاتم النبيين، وهذا ناشئ من فضله على سائر الأنبياء، كما سيجيء إن شاء الله تعالى.
وروى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :
« إن الله اصطفى كنانة من بنى إسماعيل، واصطفى من بنى كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من هاشم ».
رواه مسلم عن واثلة.
.
وروى عنه -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :
« إن لى أسماء ؛ أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحى يمحو الله بى الكفر، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى، وأنا العاقب الذى ليس بعده نبى، وأنا المقتفى، ونبى التوبة، ونبى الرحمة، ونبى الملحمة ».
.
اعلم أن أسماء النبى -صلى الله عليه وسلم- كثيرة، حتى قيل : أن كونه نبى الرحمة كان وجوده سببًا للرحمة.
كما قال الله تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ }
.
وقال فى شأنه : [لولاك لما خلقت الأفلاك].
.
وروى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :
« فُضِلت على الأنبياء بستٍ أُعطيتُ جوامع الكلم، ونصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت الأرض لى مسجدًا أو طهورًا، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل، وأُحلت لى الغنائم، ولم تحل لأحد قبلى، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبى من قبل يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت أنا إلى الناس عامة ».
وزاد فى رواية :
« وإنى سألت ربى لأمتى أن لا يهلكهم بسنة عامة ».
وزاد فى رواية : « أن لا يسلط عليهم عدوهم من سوى أنفسهم، وأن لا يهلكهم بالغرق، فأعطانى ذلك ».

واعلم أن وموسى، وعيسى، وإبراهيم -عليهم السلام- سألوا الله تعالى أن يكونوا أمه له -صلى الله عليه وسلم- كفى له ذلك فضلًا.

.

[وَرَسُولُهُ الْمُجْتَبَى]

أى : اختاره الله تعالى على جميع الخلائق بالنبوة، وغيرها.

والاجتباء، والاصطفاء بمعنى واحد.

.

والنبى عام، والرسول خاص كما سيأتى إن شاء الله تعالى، ولا تحقيق لعدد الأنبياء.

أما الرسل : فهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولًا، وهم أفضل من الأنبياء.

.

[وَأَمِينُهُ الْمُقْتَدَى]

أى : أمين مؤتمن معتمد عليه فى الأمور الدينية والدنيوية، لم يقع عنه شوب الكذب قبل النبوة وبعدها، حتى سمته قريش محمد الأمين، ولم ينطق إلا بالوحى.

كما قال الله تعالى :

{ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى }

فصار مستحقًا لاقتداء جميع الناس به.

.

وقيل فى معناه : أى أمينه على الأسرار الإلهية، والخزائن الرحمانية المقتدى به أهل الوجود من أهل السموات والأرض.

قال الله تعالى :

{ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهَّ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللهَّ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهَّ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ }.

بلغ الرسالة، وأدى الآمانة، فكذبوه، فأظهر الله لصدق دعواه على يده المعجزات الظاهرة، وأظهر المعجزات القرآن ؛ فإن أثبت نبوته ثبت نبوة سائر الأنبياء بإخباره لأنه صادق فى كل ما يقول.

[وَحَبِيبُهُ الْمُرتَضَى] لم يتم شرحه بالمخطوط

.

[شَمْسُ الْضُّحَى]

عدل الداعى من الحقيقة إلى المجاز، وفرق بينهما بترك الواو، وجعله خبرًا مبتدأ محذوف لقصد الاستلذاذ، وفيه تشبيه بليغ بترك أداة التشبيه.

أى : وهو شمس الضحى، يعنى وجوده المعنوى مثل وجود الشمس الحقيقى فى وقت الضحى.

فإن وجوده المعنوى : قد أضاء العالم مثل إضاءة الشمس.

يستفيد العالمون من شمسه المعنوى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأوصاف فينتفعون منه، فصار وجوده محض شمس الله ؛ أزال ظلمات الكفر بإشراق الإيمان، ولمعات الإيقان، وشموس السيف والقلم.

.

وتفضل على العالمين مثل تفضل الشمس، ليس عليه يد طائلة، وإن كان فى الأرض لكن وجوده المعنوى فى أعلى عليين مثل الشمس.

.

وفيه تشبيه : أن ضياء دعوته بلغ إلى كل من ينتفع، ومن لا ينتفع به.

وعلى هذا قوله -صلى الله عليه وسلم- :

« إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير, وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا, وأصاب منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ, فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم, ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به ».

رواه الشيخان.

.

قالوا فى معناه : كما أن الغيث ينزل إلى الأرض ينتفع به أو لم ينتفع، فكذا تبليغ رسالته -صلى الله عليه وسلم-.

وكماأن العالمين كانوا متحيرين، ومنتظرين فى قلة المياة إلى الغيث، أو دفع ظلمة الليل إلى الشمس، فكذا كان الناس متحيرين، ومنتظرين قبل البعثة إلى ظهوره.انتهى

ويحتمل أن يكون وجوده شمسًا حقيقيًا، لما قال فى " تحفة المتكلمين " فى تعداد معجزاته -صلى الله عليه وسلم- : فيه خاتم النبوة، كلما رفع الثوب غطى نور الشمس٠

٠

وقال فى شرحها : أى : ستر نور الشمس لزيادة نور جسمه، وكماله على نور الشمس٠
وإنما أضاف الشمس إلى الضحى للتعظيم، وأنها وقت مبارك٠
كما قال الله تعالى : { وَالضُّحَى }٠
وقال تعالى : { وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا }
وإن الشمس فى هذا الوقت فى درجة الكمال، وثبات نورها وضيائها ٠

٠

ثم قال : [بَدْرُ الدُّجَى]
أى : جماله الصورى هو مثل البدر فى ليلة شديدة الظلمة٠
وقيل : هو كالبدر فى الشرف والطلوع فى درجة الكمال، والجمع لجميع ما يمكن له من النور، وتمام الخلقة، والإضاءة، والسُّعودة، وتمام المواجهة للمُضيء بالذات منها، والإفادة لغيرها ٠

٠

ويحتمل أن يكون التشبيه فى غاية حسنه، لما روى أنه -صلى الله عليه وسلم- كان أجمل الناس من بعيد، وأجلاه وأحسنه من قريب، يتلألأ وجهه تَلألُؤُ القمر ليلة البدر ٠

٠

وروى : أنه -صلى الله عليه وسلم- فاق جميع الأنبياء فى الجمال الصورى، حتى رحجوه على يوسف الكريم٠

٠

وروى : أن عائشة -رضى الله عنها- تفقدت إبرتها ذات ليلة، ومعها السراج فلم تجدها ، وجاء النبى -صلى الله عليه وسلم- عند ذلك فوجدتها بضياء وجهه، فقيل فى شأنه :
كشف الدجا بجماله * بلغ العلى بكماله٠

٠

وقيل : هو مثل البدر فى ظهوره يومًا فيومًا ، ويزيد كماله إلى أن ينتهى لم ينقص رسالته جدًا ، وكان مجيئه نورًا ذهبت ظلمات الكفر بضياء أعْلَامه، وإشراق إنذاره، كما ذهبت ظلمات الليل بضياء القمر ٠

وإنما قدم تشبيهه فى جماله المعنوى بالبدر فى جماله الصورى، تنبيهًا على أن جسمانيته متستمدة من روحانيته، ولا عكس، فإن نور البدر مستفاد من الشمس، ولا عكس.

.

[نُورُ الْوَرَى]

أى : هو نور خفى يستضئ منه جميع من له قابلية الاستنار، فإن الله تعالى خلق كل نور من نوره، وإنما خفى نوره لعدم تحمل الناظرين من مهابته، أو لعدم استعداد العالم من النظر إليه.

.

روى : أنه -صلى الله عليه وسلم- قال :

« أول ما خلق الله نوري ».

.

يروى : أن نوره -صلى الله عليه وسلم- تمثل بتمثاله، وتمثل جميع الأرواح، فاجتمعوا للنظارة، ففاضت أنوار الكمالات من نوره.

.

وأنواع الآيات على أرباب المعجزات من اشراقه، ولهذا كانوا يستمدون من روحانيته فى حياتهم الدنيا، كما استشفع آدم به، وإبراهيم، وموسى وعيسى، وداود، وغيرهم، وتمنوا أن يكونوا أمة له كى ينالوا شفاعته.

.

ثم تكلم المشايخ فى خلق سائر الأشياء من نوره :

فقال بعضهم : ثم نظر إلى ذلك النور بالهيبة فانشق نصفين، فخلق من نصفيه الكونين.

.

وقال بعضهم : نظروا إليه نظر الهيبة، فذابت أجزاؤه فصارت ماء، ثم ارتفع منه بخار كالدخان، فخلق منه السموات، وظهر على وجه الماء زبد فخلق منه الأرض. انتهى.

.

وقيل : الورى بمعنى الخلف، يعنى هو رسول فى خلفه نور النبوة، أى : خاتم النبوة.

وفى هذا القول تكلف.

أو هو رسول دينه باق لا يهذم بالنسخ والتبديل إلى يوم القيامة.

[صَاحِبُ قَابِ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى]
أى : هو أقرب إلى الله تعالى، مثل تقرب قبضة القوس، بل أقرب منه٠
٠
وقيل : قاب قوسين : أى مقدارهما من المسافة٠
والمقصود : تمثيل ملكة الاتصال، وكانت العرب تعبر عن قرب المسافة بالقوس، والقوسين٠
٠
وقيل : كانت عادتهم إذا أراد عقد المودة، أى : يمد أحدهم قوسه، ويوصل إلى قوس صاحبه، ويكون ذلك عندهم دليل على انعقاد المحبة٠
٠
واختلف : فى أن المقدار بقاب قوسين ؛ قربه من جبريل أو من الله تعالى٠
إلا أن الأصح : أنه قربه من الله تعالى، نطقت على ذلك أدلة كثيرة٠
٠
فالحاصل : أن مثل هذه القربة لم تتيسر لأحد من الأنبياء، إلا لنبينا -صلى الله عليه وسلم-٠
وليس أحد أشد خوفًا إلا سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم-٠
٠
ثم عدل الداعى من المجاز إلى الحقيقة، أى رجع يمدح شخصه، فقال :

[رَسُوُلُ الثَّقَلَيْنِ]
وإنما أتى الواوات فى بعض الصفات، وتركها فى بعضها إشعارًا باستقلال تلك الصفة، لأن إتيان الواو فى خلال الصفات يسمى فى البديع " بتنسيق الصفات " يشعر باستقلال تلك الصفة فى إفادة المعين٠
٠
كما قال ابن الحاجب فى " الأمالى " :
يجوز إيتان الواو بين الصفات المتعاقبة، إشعارًا باستقلالها٠
٠
وقد وقع ذلك فى قوله تعالى : { غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ }٠
٠
فقول الداعى : رسول الثقلين، شروع فى مدح إضافته الحقيقة بعد فراغه من المجاز بالواوات العطفية، استلذاذاً فى مدحه٠

فمعناه : وهو رسول الأنس والجن، بلغ الرسالة إلى طائفة الجن كما بلغ الأنس، ولم يكن نبى بلغ الرسالة إلى الجن إلا نبينا -صلى الله عليه وسلم-، وذلك إشارة إلى علو درجته، وفضله على سائر الأنبياء٠

٠

كما قال عز وجل : {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ }٠

٠

وإنما سمى الأنس والجن " بالثقلين " لأنهما فضلا بالتميز الذى فيهما على سائر الحيوانات، وكل شىء له قدر ووزن يتنافس فيه ؛ فهو ثقل٠

ومنه قيل : لبيض النعام ثقل٠

وقيل : المراد من الثقلين : عالم الغيب والشهادة٠

٠

[وَنَبِيُّ الْحَـرَمَيْنِ]

أى : نبى الجامعين المحترمين المعروفين الكعبة، ومسجد المدينة، مع المسجد الأقصى٠

وإنما اختصت الإضافة إلى هذه البقاع ؛ لكونها أفضل البقاع، وأشرفها، وأحسنها، لما فى الصحيحين، أنه -صلى الله عليه وسلم- قال :

« لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدى هذا »٠

٠

وروى أنه -صلى الله عليه وسلم- قال :

« صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام، وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فى مسجدى »٠

٠

وروى عنه -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :

« إن سليمان -عليه السلام- لما فرغ من بناء بيت المقدس سأل ربه ثلاثًا فأعطاه اثنتين، وأنا أرجو أن يكون أعطاه الثالثة ؛ سأله حكمًا يصادفه حكمه فأعطاه إياه، وسأله ملكًا لا ينبغى لأحد من بعده فأعطاه إياه، وسأله أن لا يأتى أحد هذا البيت يصلى فيه ركعتين إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أُمه، وأنا أرجو أن يكون أعطاه ذلك »٠ انتهى

٠

فالكعبة مولده، والمدينة مورده، والقدس مبدؤه معراجًا٠

واختلف العلماء فى النسبة بين الرسول والنبى :
فقيل هما متساويان ؛ استدلالًا بقوله تعالى : { وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ }
فقد أثبت لهما معًا فى الإرسال، فكل نبى رسول بهذا الدليل، وكل رسول نبى.
.
فعلى تفنن الداعى فى إردافهما، تبرّكه الصحيح هو الذى عليه الجمهور الغفير :
أن كل رسول نبِّى، وليس كل نبِّى رسولا، إذا الرسول هو مأمور بالإنذار، والإعلام، ولا يلزم ذلك فى النبى.
وكونهما متساويين لما حسن تكرارهما فى الآية المذكورة، وعلى هذا يناسب إضافة لفظ الرسول إلى الثقلين، وإضافة لفظ النبى إلى الحرمين، لا يخفى على المتفطن.
.
[وَإِمَامُ الْقِبْلَتَيْنِ]
أى : صلى متوجهًا إلى القدس فى بدء الإسلام، ثم صلى متوجهًا إلى الكعبة بقوله تعالى : { فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ } فصار إمامًا لهاتين القبلتين، ولم يكن نبى غيره صلى صلى إلى القبلتين.
وهذا أيضًا من كمال شرفه، لأن الله تعالى قد استجاب ما تمنى بقلبه من أن تكون الكعبة قبلته.
.
وقيل فى معناه : المراد من القبلتين قبلة الكعبة يتوجهها بظاهره، وقبلة الوصلة يتوجهها بباطنه.
أى : بقلبه، وسره وروحه، فيكون إمامًا لأهل الظاهر والباطن، كما كان يصلى إلى القبلتين الكعبة، والوصلة.
.
ويؤيد ذلك ما قيل فى " المهمات " :
واعلم أن استقبال القبلة : صرف ظاهر وجهك عن سائر الجهات إلى جهة بيت الله، ويجب أيضًا صرف القلب عن سائر الأمور إلى التوجه إلى الله، كما لا يتوجه الوجه إلى جهة البيت إلا بالصرف عن غيرها، فكذلك لا ينصرف القلب إلى الله إلا بالتفريغ عما سوى الله.
.
قال النبى -صلى الله عليه وسلم- :
« إذا قام العبد إلى صلاته وكان وجهه وهواه إلى الله انصرف كيوم ولدته أمه ».

فالحاصل : كما لا تقبل الصلاة إلا بالتوجه إلى الكعبة، فلا يحصل التوجه إلى الله إلا باتباع رسوله، والاقتداء به فى حركاته وسكناته.

•

والشفاعة منه -صلى الله عليه وسلم- لا تتيسر إلا لمن يتبعه، ويقتدى به.
كما قال -صلى الله عليه وسلم- : « من أحبنى حقًا فليستن بسنتى، ومن أراد أن يلقانى غدًا فليتبعنى ».

•

وقال - صلى الله عليه وسلم- : « المرء مع من أحب ».
وشرط المحبة : الاتباع والتسنن.

•

وقال -صلى الله عليه وسلم- : « أمتى من تمسك بسنتى ».
فلا تحصل المحبة إلا بالاتباع.
كما قال الله تعالى : { قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ }.

•

وقال -صلى الله عليه وسلم- : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به ».

•

فوجب لطالب الحق : أن يبالغ فى مراعاة سُننه فى العبادات والعادات.

•

ومن لزِمَ آداب السنَّة، نور الله قلبه بنور المعرفة.
وأنت تقول أيها المقصر :
ليس فى ترك السنة عذاب، ولا تقول فى تركها حرمان الشفاعة، ومن لم يراع السنَّة يعاقب بترك الفرائض، ومن لم يراع الفرائض يعاقب بسوء العاقبة كما عرفت، ومن أحب رجلًا يتخلق بأخلاقه كى يحبه ذلك الرجل.

•

أما إذا قيل لك أيها المنصف : أن فى هذه التجارة إذا فعلت فائدة أربعة وعشرون درهمًا فى ساعة واحدة، فلا تصبر، ولا تمكث حتى تحصل هذه الفائدة الفانية !!
وأنت تسمع كل يوم : أن « صَلاَةُ الْجَمَاعَةِ أَفْضَلُ مِنْ صَلاَةِ **الْفَذِّ** بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً ».
فلا تلتفت لها كل الالتفات كما التفتَّ إلى فائدة أربعة وعشرون درهمًا، مع أن هذه لفائدة أبدية لك.

فمن هذا قال صاحب " المهمات " :
ولا أعرف لتارك السنَّة بغير عذر وجهًا إلا كفر خفى، أو حمق جلى، فتوجيه هذا القول :
أما الكفر : فهو أن يخطر بباله أن هذه ليست كذلك، أو يستخفها .
وأما الحمق : فلتقاعده عن الفائدة.
.
فاحترز أيها السالك أشد الاحتراز :
من ضياع مراعات السنن، خصوصًا فى الصلاة، سيما حضور قلبك عند تكبيرة الإحرام، وعند تلاوة : { إياك نعبد } عسى أن لا يحضر فى قلبك غير الله فى هذه الحالة، وكنت تخاطب بكاف الخطاب إليه، فيفسد عليك، وقد مر هذا فى بيان : [ونستغفر الله العظيم].
.
[وَجَدُّ السِّبْطَيْنِ]
أى : هو جد للحسن والحسين -رضى الله عنهما-.
السبط : أولاد البنت، والمراد به الحسن والحسين، وسيأتى ذكر فضائلهما إن شاء الله تعالى.
.
[وَشَفيعُ مَنْ فى الدَّارَيْنِ]
أى : هو شفيع الخلائق كلها ؛ من الجن والملائكة والأنس، مسلمًا فى الدنيا والآخرة، وكافرًا فى الدنيا .
.
أما شفاعته للملائكة وطائفة الجن : فظاهر تفصيله فى المطولات.
وأما شفاعته للكافر فى الدنيا : رفع الله تعالى المسخ والنسخ والخسف والقحط، ونجاهم من القتل بالجزية، وغير ذلك.
.
وأما شفاعته لأمته فى الدنيا :
عفو لم يخطر بالبال ما لم يعتقد أو لم يتكلم، وعفو الخطأ والنسيان، وعفو الصغائر فيما بين الصلاتين والجمعين، وتخفيف الصلوات من خمسين إلى خمس، وجواز التيمم عند الضرورة، وعدول ربع الزكاة إلى مائتى درهم فى النصاب، وحل الغنيمة، وعفو الشدائد والمحن، والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وغفران الكبائر ما لم يشرك، وقبول التوبة فى أى موضع كان، وجواز الطلاق، وعفو سرعة العقوبة، وحل ما حرم لنفسه بعد الكفارة، إلى غير ذلك.
.

وجميع ذلك على العكس فى الأمم السالفة، وأنهم لا يصلون إلا بموضع مخصوص إلا أن يتيقنوا بطهارة٠
يعنى : لا تقبل توبتهم إلا فى الكعبة٠
ولا تصح صلاتهم إلا فى بيعهم، ـ البيع : أماكن تعبد اليهود والنصارى ـ٠
ونحن نصلى فى كل موضع إلا إن تيقنا بنجاسة الأرض٠
وليس فيهم كفارة الظِهار، والحَلْفُ، والصوم، والخطأ فى القتل، بل أبقوا على نقص٠

٠

وأن ديننا جبر بالكفارات، وسجود السهو، وأنهم لا يكونون أولياء إلا بكثرة الرياضات الشاقة مائتى سنة أو ثلاثمائة سنة٠
وأن الله تعالى أكرمنا بإنزال بعض السور والآيات ؛ التى فيها خواص جميلة لم تعط لأحد من الأنبياء٠
وأكرمنا بفضيلة شهر رمضان، وأعطاء ليلة القدر، وصلاة الجماعة، وصلاة الجمعة والعيدين، ووجوب ستر العورة، وأمثال ذلك مما يوجب الفضائل٠

٠

وأكرمنا بقلة الأموال، وقصرالعمر، والقامة، ومجيئنا فى آخر الزمان، فإن ذلك يوجب سهل الحساب، ونقص همم العصيان، وقلة المكث فى التراب، وابقاء شريعتنا ٠
ولم يدَّع أحد من أمته الربوبية، وغير ذلك مما لا يحصى٠
كل ذلك من شفاعته -صلى الله عليه وسلم-، وحرمته، فلله الحمد والمنة، ولرسوله أفضل التحية٠

٠

وأما عن شفاعته فى الآخرة :
فإنه يشفع فى العصاة والمذنبين، لا يزال على الشفاعة حتى لا يبقى أحد فى النار ممن قال : " لا إله إلا الله "٠

٠

ولا يبقى أحد من الأنبياء، والأولياء، والمؤمنين إلا شرف بشفاعته، وشفاعته تكون لتخليص أهل العصاة من النار، ولعفو الكبائر قبل دخول النار، ولعفو ما تساوى خيره وشره، ولرفع الدرجات لأهل الجنة، وذلك فى حق الأنبياء والأولياء٠

٠

وأما العلماء العاملون، والواصلون، والشهداء، والصالحون من أمة سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- ؛ فإنهم يشفعون للعصاة فى يوم القيامة، وذلك أيضًا من شفاعته -صلى الله عليه وسلم- لقوله -عليه الصلاة والسلام- :
« إن الصالحين من أمتى لهم الشفاعة يوم القيامة »٠

قال المحدثون : أن جميع الأنبياء جعلوا نقوش خواتيمهم " لا إله إلا الله محمد رسول الله " استشفاعًا به -صلى الله عليه وسلم-.

.

وقيل : المراد من الدارين الجنة والنار :

أما شفاعته لأهل الجنة : إنما تكون لرفع الدرجات.

وأما شفاعته لأهل النار من أمته : إنما يكون لإخراجهم من النار.

.

حكى فى الأخبار : أن الله تعالى إذا جمع أمة سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى أرض الحساب، يقول النبى -عليه الصلاة والسلام- :

يا رب أرجو أن أن أكون أحاسبهم، ولا يطلع على معيابهم غيرى.

فيقول الله تعالى : أريد أن لا تطلع أنت على معيابهم يا محمد، لأنك إذا اطلعت على معايبهم فتستحى منى، ولا تشفع لهم، أنا حليم أحلم عليهم، وأغفر ولا أبالى.

.

ثم يقول الله تعالى : يا محمد أريد منك أن لا تتقاعد، ولا تعيى عن الشفاعة، ولا تستنكر من أمتك إذا رأيت معايبهم الفاحشة، لأن هذا اليوم يوم الشفاعة منك، ويوم العطاء منى.

.

وروى عنه -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :

« أنا أول شافع، وأول مشفع، ولا أزال أشفع فاشفَّع، واشفع فأشفع حتى يتطاول إبليس اللعين أن يصيبه من شفاعتى يوم القيامة ».

.

اللهم ارزقنا شفاعته فى الدارين، وأذقنا عطِّياته فى الحالتين.

.

فالحاصل : أنه -صلى الله عليه وسلم- أفضل من جميع الأنبياء، صاحب المقام المحمود، وجميع الأنبياء يقولون يوم القيامة : نفسى، وهو -صلى الله عليه وسلم- يقول : أمتى.

وإنما يقولون نفسى لمعاينتهم شدة اليوم، فيقرع القلوب، وتظهر جهنم للانتقام والعدل.

.

حتى أن المحققين قالوا : أن معراج النبى -صلى الله عليه وسلم- دليل شفاعته، ليكون اطلاعه على ما عند الله من العقوبات، والمثوبات فى أول الحال، ثم إذا اطلع ثانيًا فلا ينقبض بسبب هيبة اليوم، فلا يشتغل بنفسه، ويقول : أمتى.

فلم ينكر شفاعته أحد من أهل الحق، ثبتت بالآيات والأحاديث، وعليه جمهور أهل السنة والجماعة.
قال الله تعالى : { وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ }.
.
وقال تعالى : { فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ }.
وقال تعالى : { وَلَسَوْفَ يَرْضَى }.
.
وقال النبى -صلى الله عليه وسلم- : « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى ».
وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة.
.
وروى عنه -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :
« ليلة أُسرى بى إلى السماء، لقيت آدم -عليه السلام- فى السماء الثالثة، فعانقنى، وقلت له : أنت أفضل منى لأن الله تعالى خلقك بيده، وحملك على أكتاف الملائكة إلى السماء، وجعلك قبلة لهم، وأباح لك الجنة بأسرها.
فقال آدم :
ما هذا كله، وأنت أفضل منى لأن الله تعالى خصك بخمس لم يكرم بها أحدًا غيرك :
الأول :
أنا بكيت مئتى سنة بذنب واحد ثم غُفِرت، ومَنَّ الله عليك بنزول :
{ لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ }.
والثانى : أدخلنى الجنة عزيزًا، وأخرجنى ذليلًا، وقد عرج بك إلى السماء السابعة مُكرَّمًا، وينزل بك مبجلًا.
والثالث : زوجنى حواء فكانت سببًا لخروجى من الجنة، وزوجك خديجة فكانت سببًا لطاعة الله.
والرابع : يدخل من أولادى تسعمائة وتسعين إلى النار، وواحد إلى الجنة، ومن أمتك تسعمائة وتسعين إلى الجنة، وواحد إلى النار.
والخامس : سمانى بذلة واحدة عاصيًا، حتى الصبيان فى المَكْتَبُ، والأئمة فى المحاريب ينادون علىَّ بقوله تعالى : { وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى }.
وستر ذلاتك، ورفعك إلى قاب قوسين، وقرن اسمك باسمه الشريف الذى ذكره أفضل العبادات، وهو " لا إله إلا الله محمد رسول الله " حتى ينادون على المنابر، والمحاريب، والمنارات عليك خمس مرات فى كل يوم.
كذا فى " جواهر البحار".

فاجتهد أيها السالك أن تكون أمة له، كما اجتهد موسى وإبراهيم وعيسى -عليهم السلام-، فتسن بسنَّته ما استطعت.

.

قال أهل الحقيقة : الأمة على أربع مراتب :

أمة فى الشريعة، وأمة فى الشريعة والطريقة وهى أرقى من الأولى، وأمة فى الشريعة والطريقة والحقيقة وهى أعلى مراتب الأمة.

.

فلا يجوز للسالك إن يتقاعد فى المرتبة الأولى، بل يسير إلى الثانية بعد تكميل الأولى، ثم إلى الثالثة ثم إلى الرابعة.

.

[وَزَيْنُ الْمَشْرِقَيْنِ وَالْمَغْرِبَيْنِ] لم يتم شرحها بالمخطوط.

[وَصَاحِبُ الْجُمُعَةِ وَالْعِيدَيْنِ] لم يتم شرحها بالمخطوط.

[رَسُولاً مَكِّياً مَدَنياً]
عدل الداعى عن مدح إضافته إلى مدح نسبته، وجعل رسولًا خبرًا لكان المضمر بقرينة المقام، أو حالًا، وما بعده صفة نسبته، وفى هذا العدول قصد استلذاذ أيضًا .
.
يعنى : كان رسولًا ولد فى مكة المكرمة، ونزل الوحى فيها، ثم هاجر إلى المدينة المنورة، ونزل وحى القتال فيها، ثم مات فيها .
فكان منسوبًا إليهما، ونسبته إليهما يشعر فضله كما مر .
.
وروى عنه -عليه الصلاة والسلام- أنه قال لمكة : « ما أطيبك من بلد وأحبك إلىَّ، ولولا أن قومى أخرجونى منكِ ما سكنت غيرك » .
.
وقال لها أيضًا : « إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله، ولولا أنى أُخرجت منك ما خرجت» .
.
ومن المشهور بأنه -صلى الله عليه وسلم- دعا للمدينة مثل ما دعا إبراهيم -عليه السلام- لمكة.
.
[هَاشِمياً قُرَشياً]
أى كان منسوبًا إلى هاتين القبيلتين اللتين هما أفضل قبائل العرب عصبة، وأشرفهم نسبًا، وأرفعهم حسبًا .
فإنه - صلى الله عليه وسلم- : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، لكونه هاشميًا لارتقاء نسبه الشريف إلى هاشم، وهاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر، وهو قريشى فلارتقاء نسبه إلى فهر يسمى قريشيًا، وفهر بن مالك بن نضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.
إلى هنا باتفاق الأمة، وهو ابن أدد بن مقدم بن ناخور بن يترح بن يعرب بن يشجب بن ثابت بن اسماعيل بن إبراهيم بن آزر بن ساروخ بن راغوبن فالخ بن عيبر بن شالخ، وهو هو -عليه السلام- بن أرفخشد بن سام بن نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ، وهو إدريس -عليه السلام- بن يذر بن مهلاهل بن قينن بن يانش بن شيث ابن آدم -عليهما السلام-.

قال فى " شرح المشارق " : ومعنى الخيرية والاصطفاء فى هاتين القبيلتين : ليس باعتبار عظماء الكعبة وجيرانها ٠

٠

[أَبْطَحِياً]

اسم واد فى الكعبة، وقيل فى المدينة، نسب به لكون التجلى والاستغراق كان له فى هذا الوادى أكثر٠

٠

[كَرُوبِياً]

أى : ملكى الخصال مع توفيه حقوق البشرية٠

وقيل : هو أقرب إلى الله، وأحب من بين الملائكة المسمون " بالكروبيين "، فإنهم سادات الملائكة، كما هو سيد الأنبياء، وهم أشد خوفًا من أهل السماوات والأرضين، كما هو أشد خوفًا من سائر الأنبياء٠

٠

[رُوحًا]

أى كان بشرًا فى حالة البسط، فيقول : { إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ }٠

٠

[رُوحَانِيًا]

أى : كان روحانيًا فى حالة القبض والاستغراق، فيقول :

« لِي معَ اللهِ وقتٌ لا يَسَعُ فيهِ ملكٌ مقربٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ » ٠

٠

وقيل : كان روحانيًا باعتبار أنه أبو الأرواح، ومشاهد الحضرة الإلهية٠

٠

وقيل : المراد من الروح جبريل -عليه السلام-، فالمعنى : نزول جبريل عليه بالوحى٠

والمراد من الروحانى : كان كان جسم المبارك ؛ كالروح ليس فيه كثافة نفسانية٠

٠

أو : هو حى بعد موته، ليس فيه ابتلاء الجسم من انحراف أعضاؤه، ورمته، وغير ذلك٠

لما روى : « أن الأرض لا تأكل أجسام الأنبياء » ٠

٠

وهو حى كما فى الدنيا، لقوله -صلى الله عليه وسلم- :

« المؤمنون لا يموتون بل ينتقلون من دار الفناء إلى دار البقاء » ٠

وقوله -صلى الله عليه وسلم- : « ما من أحد يسلم علىِّ إلا رد الله علىَّ روحى حتى أرد عليه» .
.
وقيل : أن " روحانيًا " صفة موضحة لقوله " رُوحًا " ؛ كاتصاف القمر بالقمريًا ، والنور بالنورانيًا الآتى ذكرهما .
وقيل : كان روحانيًا باعتبار غلبة روحانيته على جسمانيته.
.
[تَقِيًّا]
أى : طاهرًا من الاثم صغيرة أو كبيرة، قبل النبوة وبعدها ، وما وقع عليه من الشدائد والبلية فى الدنيا ، إنما هو لرفع الدرجات.
.
وأما استغفاره كل يوم ؛ فهو لرفع الدرجات لا لمحو الخطايا .
كذا صرح به أهل الحديث، لما روى : أن بلالًا -رضى الله عنه- لما دخل على النبى -صلى الله عليه وسلم-، فرآه يبكى، فقال : يا رسول الله ما يبكيك، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟
فقال -صلى الله عليه وسلم- : « أفلا أكون عبدًا شكورًا » .
.
ومن هذا قال أهل التحقيق :
أنه -صلى الله عليه وسلم- يحب أن يكون قلبه حاضرًا أبدًا مع الله تعالى، بحيث لا يغفل عنه لمحبته.
فلما اشتغل بشىء من أحوال الدنيا ؛ كالتكلم مع أحد ، والأكل، والشرب، والنوم، ومعاشرة الأزواج، يلوم نفسه لتقصيره عن إدراك كمال الحضور ، ويستغفر لا لأنه أتى ذنبًا فيستغفر .
.
وقالوا أيضًا : استغفاره ترغيب للأمة على الاستغفار والتوبة، فإنه -صلى الله عليه وسلم- ممع كونه معصومًا ، وكونه خير المخلوقات يستغفر ويتوب سبعين مرة، فكيف بالمذنبين ؟!
.
واستغفاره ليس من الذنوب، بل لاعتقاده فى نفسه أنه قاصرًا فى العبودية، عما يليق بحضرة الرب تعالى.

وأما قوله تعالى : { لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُّ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ }
قال عطاء فى تفسيره : { مَا تَقَدَّمَ } يعنى ذنب أبويك آدم وحواء ببركتك٠
{ وَمَا تَأَخَّرَ } أى : من ذنوب أمتك بدعوتك٠
٠
وقال بعض أهل التفسير : إنما أنزل الله تعالى عليه آية الغفران، ليكون متفرغًا عن نفسه، ويكون مشغولًا بأمته، فإنه لو لم يحقق مغفرته، لما اشتغل بشفاعة أمته٠
٠
وقال بعضهم : أن مغفرته لتركه ما هو أحسن، وعمله بما هو حَسَن٠
كما مر فى " شرح المشارق " : أنه تشاور -صلى الله عليه وسلم- فى أسارى بدر ؛
فقال أبو بكر -رضى الله عنه- : خذ الفداء منهم، وقال عمر -رضى الله عنه- : اضرب أعناقهم٠
فهمَّ -صلى الله عليه وسلم- بقول أبى بكر وهو حسن، وترك قول عمر وهو أحسن٠
٠
ثم عاتبه الله تعالى بقوله : { مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُّ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُّ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }٠
لتركه ما هو أحسن، لا لأنه أتى ذنبًا٠
والمقربون يعاتبون على تركهم الأحسن، كما قيل : " حسنات الأبرار سيئات المقربين "٠
٠
وروى : أن النبى -صلى الله عليه وسلم- أذن لقوم بالرجوع عن الجهاد، وقد استأذنوه٠
فنزل قوله تعالى : { عَفَا اللهُّ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ }
فإن الإذن لهم : ترك الأحسن٠
٠
وإنما قدم العفو لأنه تعالى لو قال فى أول الأمر : { لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ } لقطع كبد النبى -صلى الله عليه وسلم- من خوفه، لأن قوله تعالى : { لِمَ } أعلى مراتب العتاب٠
فإذا قدم العفو آمن، وهذه الآية نزلت قبل نزول آية المغفرة٠
٠
وأما قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُّ لَكَ } نزل بعد آية الغفران٠

كذا قال علماء أهل الحق : أن الأنبياء -عليهم السلام- معصومون من الصغائر والكبائر، وعلى ذلك دلائل صرح بها فى موضعه٠

٠

وإن قيل : أن قوله تعالى : { وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى } يدل على أن العصيان يجوز عليهم، وكذا ذلل بعض الأنبياء كما حكاها الله تعالى فى القرآن ؟

قلنا :

أن آدم اجتهد فأخطأ، والعقوبة لأجل خطأه فى اجتهاده، وإلا عاقبه الله بعزل الأبد عن النبوة، فإن الخطأ فى الاجتهاد وإن لم يكن سيئة فى حقنا، لكان سيئة فى حق الأنبياء، لكون حسنات الأبرار سيئات المقربين كما عرفت، وكذا أحوال سائر الأنبياء٠

٠

وأما طريق اجتهاده : أنه ظن أن النهى قربهما معًا لا فى حال الانفراد، لما قال الله تعالى : { وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ } فلذا أكلت حواء أولًا منها، ثم أكل آدم٠

٠

وأيضًا : ظن آدم أن المنهى عنه للمشار إليه بعينه لا لنوعه٠

وأيضًا : ظن أن النهى تنزيهى٠

وقيل : أنه نسى وقت أكله، بدليل قوله تعالى : { وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ }٠

[نَقِيًّا]
أى : طاهرًا من الدناءة، والرذالة، والكراهة، والدنس، وما يستقذره الطبع ويكرهه.
روى عن أنس -رضى الله عنه- أنه قال :
«ما شممت عنبرًا قط، ولا مسكًا، ولا شيئًا أطيب من ريح رسول الله -صلى الله عليه وسلم-».
ولا يستطيع أحد أن ينظر إلى وجهه الكريم ؛ لجلالة وجهه، وغاية حسنه.
.
روى أن أويس القرنى -رحمه الله- سأل علىٍّ -رضى الله عنه- حين لقاه، عن اتصال حاجبى النبى -صلى الله عليه وسلم-أو انفصالهما ؟ فلم يقدر على البيان لعدم تميزه أنهما متصلان أو منفصلان.
وإنما لم يعرف ذلك عليًا -رضى الله عنه- لأنه لا يستطيع أن ينظر بمد البصر لمهابة وجهه، وجلالة جماله، فلم يعرف كيفية حاجبيه، ولم يقدر على البيان.

وقيل : كان نقيًّا من كل عيب ظاهرًا وباطنًا، ومعصومًا من كل ما لا يليق بعوالى مقاماته العلية.
ومن هذا قال صاحب البردة :
وانسب إلى ذاته ما شئت شرف * وانسب إلى قدره ما شئت من عظم.
.
[نَبياً كَوْكَبًا دُرِّيًا]
الدُرِّى : صفة لكوكب، وهو منسوب إلى الدر مستعمل بمعنى : الثاقب.
أى : المضىء المنير المرتفع.
.
أى : أنه -صلى الله عليه وسلم- كان نبيًّا بلَّغ الرسالة على جهد، وإتمام أمر مع الهمة الكاملة، كما أن النجم الكبير يضئ ويسير إسراعًا بالهمة التامة.
.
فكما أن الكوكب الدرى له شعاع، وضياء، ومنفعة للأشياء، فكذلك النبى -صلى الله عليه وسلم- أضاء ظُلَم الكفر بإشراق أنواره، ونفع العالم بالدعوة.
.
وقيل فى معناه : أن الدرى فى اللغة : نجم يظهر عند بوادى انشقاق ضوء الصباح عن دجى الظُلَم.

ولما كان زمانه -صلى الله عليه وسلم- زمان فترة، والغالب عليه ظلمة النفوس، ودجى الطبائع غالب على صباح نور الأرواح والقلوب، فجاء وجوده كوكبًا دريًّا، وبظهوره ظهر صباح الهدى والتوفيق.

.

قيل : بين بعثه -صلى الله عليه وسلم- وبين عيسى-عليه السلام- خمسمائة سنة، مرت الأيام من عيسى إلى بعثه -صلى الله عليه وسلم- بفترة، ثم بعثه الله تعالى بالهدى، فأزال ظلمات الكفر، فلله الحمد والمنة، وعليه الصلوات العلية.

.

[شَمْسًا مُضِيًّا]
أى : كانت نبوته مثل الشمس المضيئة على الموجودات، فكما بلغ ضوء الشمس إلى جميع المنازل، فكذا بلغت رسالته، وكونه رحمة إلى جميع المواضع.

.

وإنما قال مُضِيًّا : احترازاً عن شمس فى وجهها حمرة عند الطلوع أو الغروب، أو سحاب.

.

وقيل فى معناه : شمسًا إلهيًّا مضيًّا على ظُلَم بواطن المحجوبين عن ضياء نور النبوة والولاية، فكونه شمسًا يشعر أن أصحابه كالنجوم، بدليل قوله -صلى الله عليه وسلم- : « أصحابى كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم ».

.

وقوله : [شَمْسًا مُضِيًّا] و [قَمَرًا قَمَرِيًّا] و [نُورًا نُورَانيًّا] :
مدح نبوته، ورسالته التى خَصَّهُ الله بها.
وقوله سابقًا : [شمس الضحى، بدر الدجى]
مدح ذاته المكرمة المكمَّلة بالنبوة، وبهذا أظهر الفرق.

.

وقيل قوله : [شَمْسًا مُضِيًّا] كالدليل، والنتيجة لقوله : [نور الورى].

[قَمَرًا قَمَرِيًّا]
أى : جماله المعنوى، وكماله الصورى مثل القمر الخالص الذى ليس فيه علة.
وقيل قمرًا : باعتبار وتكميل ذاته بصفات الكمال، والجمال، والجلال، بالتدريج يومًا فيومًا من أول كونه هلال طلب الكمال إلى أن صار بدر ليلة القدر.
.
قَمَرِيًّا : أى باعتبار استعداده للكمال فى أطوار البشرية.
.
[نُورًا نُورَانيًّا]
أى : نورًا لكونه من نور الله.
نُورانيًّا : لكون المؤمنين من نوره.
.
وقيل : نورًا فى رسالته ليس فيها علة، كالنور خالص.
نُورَانِيًّا : فى جسمه المبارك، ليس فيه كثافة بدنية، ومن هذا لم يقع ظله على الأرض، لأنه لا يكون للنور ظل.
.
فإن قيل روى أنه -صلى الله عليه وسلم- : يضع الحجر على سرته لدفع الجوع، وذلك من أمارات تأثير النفس.
قلنا :
وضع الحجر لا لدفع الجوع، بل للمنع من الاستغراق فى الحضرة الإلهية، لأنه -صلى الله عليه وسلم- دائم المحبة والمشاهدة لكونه وجوده نورانيًّا ، فيضع الحجر فيمنعه عن الجذبة السبحانية، لكون الحجر من كثافة الدنيا.
.
وأما لباسه للستر : فليس من الدنيا ، فإن الحاجة الأصلية ليست من الدنيا ، إنما الدنيا ما فضل عن الحاجة.
وإنما يمنع نفسه من الاستغراق لِئَلاَّ يعطل مصالح المسلمين التى أُمر بها.
فلذلك كان يأمر عائشة -رضى الله تعالى عنها- تارة بقوله -صلى الله عليه وسلم- :
« كلمينى يا حميراء ».
.
أو إنما اختار الحجر ليكون تسلية للفقراء فى مثل ذلك فى ظاهر الأحوال، ويصبر الفقراء على جياعهم.

ومن كونه نُورَانيًّا : أنه كريم لطيف بسَّام بشاش وجيه جسور حليم عافٍ.
قال أنس -رضى الله عنه- :
« خدمته -صلى الله عليه وسلم- عشر سنين، فوالله ما قال لى أف قط، ولا قال لشىء فعلته لم فعلت كذا ، ولا لشىء لم أفعله، ألا فعلت كذا ».

.

وربما كان يمازحنى، ويقول : « يا ذا الأذنين ».
وأن لى أخ صغير، وله نغير - يعنى عصفور - يلعب به فمات، فيقول له النبى -صلى الله عليه وسلم- : « يا أبا عمير ما فعل النَغير ».

.

وجميع مكارم أخلاقه، ومحاسن أوصافه من كونه : [نَورَنِيًّا].

.

وقال فى روضة الأفكار : الظل من الظلمة، والنبى -صلى الله عليه وسلم- كان نورانيًا ، من نوره نور الشمس، ومن نوره نور القمر ، ومن نوره نور الأنوار ، فأظهر الرب تعالى للخلائق أن الظل يكون الظلمانى، وسيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- من فرقه إلى قدمه نورانى، ولذلك لم يقع ظله على الأرض.

روى : أن أبا جهل حفر بئرًا وملأه بالنجاسات الرقيقة على طريقه -صلى الله عليه وسلم-، وستره بخُشُب ضعيفة، يريد إذا وطئها النبى -صلى الله عليه وسلم- يقع فيها .
فمر النبى -صلى الله عليه وسلم- ووطئها ، فلم يقع لعدم ثقله لأنه نورانى، فلا يكون للنور ثقل.
ثم جاء أبو جهل فقال : قد كنت شدَّدتها ، فوطئها فوقع فيه.
فلذا قيل : من حفر حفرة لأخيه جبًا وقع فيه كبًّا .

.

وروى : أنه -صلى الله عليه وسلم- كان يبصر من وراءه كما يبصر من قُدّامه، ولم يقع عليه ذباب، وإذا نام لا ينام قلبه، ولم يحتلم قط، كل ذلك يفضى كونه نورانيًّا .

ومعراجه : لكونه نورانيًّا.
وقيل : ليشرف السموات بنوره وبركته، كما شرفت الأرض به، ولئلا يركن إلى الدنيا بعد ذلك، فيزداد يقين العيان، ويصير كالدلال، وينبغى للدلال أن يعلم ما قيمتها بعد الروية، وليرى الجنة والنار فلا يخاف منها إذا رآها فى القيامة، ولم يقع له حشمة وانقباض، ويشتغل بشفاعة أمته.
.
والله تعالى أسراه فى العُلا مع أنه قادر أن يريه الملكوت فى فراشه، لكون النبى -صلى الله عليه وسلم- صاحب المقامات العالية والرفيعه، لأنه نورانى.
.
تم النقل إلى هنا
[بَشِيرًا نَذَيرًا] لم يتم شرحه بالمخطوط
.
[سِرَاجًا مُنِيرًا]
قال الله تعالى : { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا }
قال أبو الليث : سماه الله تعالى سراجًا منيرًا لأنه يهتدى به كالسراج يُستعان به من الظلمة.
.
قال أهل التصوف :
إن خلقًا من أخلاقه، وصفة من أوصافه سراج للأمة إلى يوم القيامة فإن المؤمن إذا تخلق بخلق واحدً من أخلاق النبى -صلى الله عليه وسلم-، واتصف بصفة من أوصافه يكون سببًا للشفاعة ولتجنب الضلالة، والاقتداء به -صلى الله عليه وسلم- فى أمور العبادة، والعادة أمر لازم لنيل شفاعته -صلى الله عليه وسلم-.
.
قال مشايخ الصوفية :
كون الرسول سراجًا لكل أحد من أمته على حسب تسَنُّنُ، وكما زاد اهتمامًا بسنته، ازداد ضياءً وقربة للنبى -صلى الله عليه وسلم-.
فإن الأمة إذا تقربت إليه شبرًا، تقرب إليها شبرين وزيادة.

وروى عنه -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :
« من ضَيِّع سُّنَّتى حرمت عليه شفاعتى، ومن أحيا سُّنَّتى فقد أحيانى، ومن أحيانى فقد أحبنى، ومن أحبنى كان معى فى الجنة يوم القيامة »٠

٠

وقال -صلى الله عليه وسلم- :
« من حفظ سُّنَّتى أكرمه الله تعالى بأربع خصال : المحبة فى قلوب البررة، والهيبة فى قلوب الفجرة، والسعة فى الرزق، والثقة فى الدين »٠

٠

قال ابن الشريف فى شرحه بعد ذكر هذا الحديث :
قال الله تعالى : { قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ }
فإنما امتدح من اتبعه وأحبه، وما اتبعه إلا من أعرض عن الدنيا والحظوظ العاجلة، فبقدر ما اتبعته أعرضتَ عنها، وأقبلتَ علي الله تعالى، وصرفت الأوقات لأعمال الآخرة، فقد سلكت سبيله الذى سلكه، وبقدر ذلك صرت أمته٠

٠

وبقدر ما أقبلت على الدنيا عدلتَ عن سبيله، وأعرضت عن متابعته، ولحقتَ بالذين { فَأَمَّا مَن طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى }٠

٠

ولو خرجت عن طبع الغرور وأنصَفَت من نفسك، لعلمت أنك من حين تمسى إلى حين تصبح لا سعى لك إلا فى الحظوظ العاجلة، ولا تتحرك إلا لأجل الدنيا الفانية، ثم تطمع فى أن تكون غداً من أمته وأتباعه، ويحك ولنا ما أبعد ظننا، وما أفحش طمعنا٠

٠

قال الله تعالى : { أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ *مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ }٠

وروى عنه -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :
« سيأتى زمان على أمتى تخلق فيه سنتى وتجدد البدعة، فمن اتبع سنتى يومئذ صار غريبًا وبقى وحيدًا ، ومن اتبع بدع الناس وجد خمسين صاحبًا أو أكثر٠
فقال الصحابة : يا رسول هل بعدنا أحد أفضل منا ؟
قال : بلى، قالوا : أفيرونك ؟ قال : لا٠
قالوا : فكيف يكونون فيها ؟
قال : كالملح فى الماء تذوب قلوبهم كما يذوب الملح فى الماء٠
قالوا : فكيف يعيشون فى ذلك الزمان ؟
قال : كالدود فى الخل٠
قالوا : فكيف يحفظون دينهم يا رسول الله ؟
قال : كالفحم فى اليدان، إن وضعته طفئ، وأن أمسكته أو عصرته أحرق اليد »٠
كذا فى " روضة العلماء "٠

٠

قال الله تعالى : { فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا }
وقال عز وجل : { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا }

٠

وقال النبى -صلى الله عليه وسلم- :
« إن لله ملكًا ينادى كل يوم من خالف سنة رسول الله لم ينل شفاعته »٠

٠

وقال المحدثون : يجب على كل رجل من أمته أن يحبه أكثر مما يحبه ؛ يعنى من نفسه وولده وماله، فلو أمسكها عن فداء كلها إلى النبى فى وقت الحاجة لا يكون محبًا ، أو سأله المحتاج شيئا وقال : أعطينى بحرمة سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- فلم يلتفت إليه، لا يكون محبًا ٠ انتهى٠

فاتِّباعه -صلى الله عليه وسلم- أمر لازم مع المحبة لمن تشوق أن يكون من أمته، فى أخلاقه، وأعماله.
فمن أخلاقه -صلى الله عليه وسلم- :
اختيار الفقر، ومجالسة الفقراء، وأكل خبز الشعير، والعفو عن من ظلمه، وعيادة المرضى، وشهود الجنائز، ولبس الخشن، وركوب الحمير والبغال، وارداف الغير خلفه، والمشى حافيًا وراجلًا، وغير ذلك أكثر من أن يحصى.
.
فانظر أيها السالك فى زماننا : كيف صارت البدعة سنة، والسنة بدعة، وكيف أبيح فيما بين الناس بعض البدع ؛ مثل من لم يشتغل بالدنيا كل الاشتغال، يسمونه بليدًا سفيهًا، وصاحب بدعة، ومن اشتغل بها بالاهتمام، وجمعها يسمونه عاقلًا، ومتسننًا، ويميلون إليه.
.
وقد عرفت مرارًا أن ترك الدنيا من أقوى سننه -صلى الله عليه وسلم-، ومحبتها من أقوى البدع.
نعم فالحاجة الأصلية، والتحصيل بقدر الكفاية ليست من الدنيا، ويشترط أن لا يوجه، وإذا وجه تكون من الدنيا ؛ كلابس الرقيق من الحلال يجوز إن لم يفتخر به، وإلا فلا يحل.
وإذا لبس الغليظ مع الفخر والتكبر، يحرم.
.
وقال النبى -صلى الله عليه وسلم- :
« لكل أمة صنم وصنم أمتى الدنيا ».
وقال -صلى الله عليه وسلم- « طوبى للضعفاء والفقراء من أمتى، هم أحبائى وأحباء الله، هيهات كم من ضعيف متضعف يشفع يوم القيامة فى سبعين ألفًا من المذنبين، وكم من قوى لا يشفع لنفسه لأنه ترك أمر الله، وافتخر بماله ونسبه، وتطاول على الناس، فهو محبوس يوم القيامة فى شدة الحساب ».
.
فاحترز أيها السالك عن البدع والمحدثات، وتسنن بسنته حتى تكون أمة له باتباعه.

كما روى عنه -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :
« إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا ، فَقَالَ : يَا قَوْمِ ، إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ ، فَالنَّجَاءَ فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ ، فَأَدْلَجُوا ، فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهَلِهِمْ ، فَنَجَوْا وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ ، فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ ، فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي ، فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ »٠

.

وقال -صلى الله عليه وسلم- : قيل لى : سَيِّدٌ بَنَى دَارًا ، فَصَنَعَ مَأْدُبَةً، وَأَرْسَلَ دَاعِيًا ، فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ، وَأَكَلَ مِنَ الْمَأْدُبَةِ، وَرَضِيَ عَنْهُ السَّيِّدُ، وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ، وَلَمْ يَطْعَمْ مِنَ الْمَأْدُبَةِ، وَسَخِطَ عَلَيْهِ السَّيِّدُ٠
قَالَ : فَاللهُ : هو السَّيِّدُ، وَمُحَمَّدٌ : الدَّاعِي، وَالدَّارُ : الْإِسْلَامُ، وَالْمَأْدُبَةُ : الْجَنَّةُ»٠

ثم اعلم أنه لما وصف الداعى رسول الله -صلى الله عليه وسلم بهذه الأوصاف العلية، وذكره بمدح وثناءٍ، وجب عليه أن يصلى عليه أى : يفرض.

.

وقيل : كلما تكرر ذكره حتى إذا نسى قضاها، وإذا ذكر اسم الله تعالى يفرض على السامعين أيضًا أن يثنوا على الله تعالى على الدوام، لأنه لم يخلو وقت من إنعامه، بخلاف الصلاة.

.

فقال : [صَلَّىَ الله تَعَالَى وَسَلَمْ عليهِ]

واعلم أن الصلاة على النبى -عليه الصلاة والسلام- توجب صحبته، وتكون سببًا لإجابة دعائه.

.

روى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :

« إن أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم علىَّ صلاة ».

.

وقال -صلى الله عليه وسلم- :

« ما جلس قوم مجلسًا لا يصلون على النبى -صلى الله عليه وسلم- إلا كانت حسرة وإن دخلوا الجنة ».

.

وقال -صلى الله عليه وسلم- : « الدعاء محجوب حتى يصلىَّ علىّ ».

.

وقال -صلى الله عليه وسلم- : « ما من دعاء إلا بنيه وبين الله تعالى حجاب حتى يصلىَّ على محمد وعلى آل محمد، فإذا فعل ذلك انخرق الحجاب، واستجيب له الدعاء، وإذا لم يفعل ذلك يرجع عليه الدعاء ».

.

فالأدب : أن يصلى عليه فى أول الدعاء وأوسطه وآخره، فإن ذلك من شروط استجابة الدعاء.

قال شارح الكشاف :
إن الصلاة من العبد طلب التعظيم لجناب حضرة الرسول فى الدنيا والآخرة.
فمعنى قولهم " اللهم صلِّ على محمد " :
أى : اللهم عظمه فى الدنيا بإعلاء ذكره، واظهار دعوته، وإبقاء شريعته، وفى الآخرة بتشفيعه فى أمته، وتضعيف أجره ومثوبته.
.
وإنما الصلاة منا إليه هدية، وتذكر، وإظهار محبته لما فدى إلينا نفسه حتى تورمت قدماه فى القيام، وأبواه لم يشفعهما لأجل أمته، وأولاده حتى قتلوهما، ولم يشُفعهما قط عن القتل، ولم يقبل الدنيا، وقنع بالقليل، وغير ذلك من شدائد نفسه، وأهل بيته لم يشفع إدخارًا للأمة.
وإلا هو حى بعد انتقاله، ومغفور له لا يحتاج إلى دعائنا.
.
كما قال -صلى الله عليه وسلم- :
« إن لكل نبى دعوة مستجابة، إنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة ».
سقانا الله من زلال شفاعته، وأذاقنا من نوال عطياته آمين.
.
وتبعًا [وعَلَى آَلِهِ، وَأَصْحَابِهِ، وَأَزْوَاجِهِ، وَأَوْلَادِهِ، وَخُلَفَائِه]
وإنما إردفهم فى التصلية بعد ذكره، بناء على ما روى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال : « إذا صليتم فعمموا ».
.
وقال العلماء : إن الصلاة على الأنبياء والملائكة استقلالًا جائز، لكن الأفضل إذا انفردهم بالذكر أن يقول : صلى الله على نبينا وعليه، فيقدم نبينا فى التصلية.
وأما غيرهم : فالجمهور على عدم الجواز ابتداء ؛ فلا يقال : اللهم صل على أبى بكر إلا بالتبعية.
.
وأما قوله -صلى الله عليه وسلم- : « اللهم صلِّ على أبى أوفى ».
فمما خص به النبى -صلى الله عليه وسلم- بدليل أن السلف لم يستعملوها مطلقًا.
وأما السلام : مثل الصلاة فى الكلام، ومن قال -عليه السلام- فقد أدى التصلية.

قيل فى استعمال المخصوص : أن الصلاة والسلام للأنبياء والملائكة، والترضية للصحابة والأولياء، والعلماء الربانيين، والترحم لمن دونهم، والعفو للمذنبين٠

٠

وقيل : السلام مرتبة بين مرتبتين، بجمع نية الصلاة والترضى، فيحسن أن يكون لمن منزلته بين منزلتين، فيقال لمن اختلف فى نبوته ؛ كلقمان، والخضر، وذو القرنين، دون لمن دونهم انتهى٠

٠

ثم وصفهم الداعى بقوله :

[الرَّاشِدِينَ]

أى : الذين أرشدوا إلى دين الإسلام٠

٠

[الْمُرْشِدِينَ]

أى : الذين أرشدوا أهل الضلالة إلى الطريق المستقيم بالسيف والقلم٠

٠

[الْمَهْدِيِّينَ]

أى : الذين اهتدوا إلى الإسلام٠

٠

[مِنْ بَعْدِهِ]

أى : كانوا خلفاء من بعد النبى -عليه الصلاة والسلام-، لقوله -صلى الله عليه وسلم- :

« أصحابى كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم »٠

٠

وقوله -صلى الله عليه وسلم- :

« عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة »٠

٠

فمن اقتدى بهم لم يضل، ضل من لم يقتدى بهم، ولم يحبهم ؛ لقوله -صلى الله عليه وسلم- :

« اللهَ اللهَ في أصحابِي لا تتخِذوهم غرضًا من بعدي، فمَن أحبَّهم فبحبِّي أحبَّهم، ومن أبغضهم فببغضِي أبغضَهم، ومَن آذاهم فقد آذانِي، ومن آذانِي فقد آذَى اللهَ، ومن آذَى اللهَ فيوشِكُ أن يأخذَه »٠

وقوله -صلى الله عليه وسلم- :
«لا تسبوا أصحابى فإن أحدكم لو أنفق مثل أُحُد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه »٠

٠

وفضائل أزواجه، وأولاده أكثر من أن تحصى -رضوان الله عليهم أجمعين٠

٠

[خُصُوصًا مِنْهُم]
إنما اختص بالذكر هؤلاء الأربعة، وإن دخلوا فى التصلية ؛ تعظيمًا لهم، لأن الخلفاء الأربعة أفلض الأمة بعد النبى -عليه الصلاة والسلام- على ترتيب خلافتهم٠

٠

لما روى : أنه -عليه الصلاة والسلام- قال :
« كنت جوهرًا لطيفًا أطوف العرش، فنظر الله إلى فاستحييت، وعرقت فقطرت منى ستة قطرات، فخلق الله تعالى من الأولى أبو بكر، ومن الثانية عمر، ومن الثالثة عثمان، ومن الرابعة عليًّا، ومن الخامسة الورد الأحمر، ومن السادسة الأرز »٠

٠

وروى عن أنس -رضى الله عنه- أنه قال : قال النبى -عليه الصلاة والسلام- :
« أبو بكر لنا، وعمر معنا، وعثمان منا، وعلى من أهل بيتنا »٠

٠

وروى عن علِّى -رضى الله عنه- أنه قال : قال النبى -صلى الله عليه وسلم- :
« إن الله تعالى أمرنى أن أتخذ أبا بكر والدًا، وعمر مشيرًا ـ يعنى : وزيرًا ـ ، وعثمان سندًا ـ أى داعمًا ـ ، وأنت يا علىِّ ظهرًا ـ يعنى قاتلًا بين يدى الله تعالى أعداءه بالسيف، فأنتم أربعة قد أخذ الله تعالى ميثاقكم فى أم الكتاب، فإنه لا يحبكم إلا مؤمن تقى، ولا يبغضكم إلا منافق شقى، أنتم خلفائى من بعدى »٠

٠

وروى أن محمد ابن الحنفية -رضى الله عنه- قال :
قلت لأبى : أى الناس خير بعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ؟
قال : أبو بكر، قلت : ثم من ؟ قال : عمر، قلت : ثم من ؟ قال عثمان، قلت ثم من : فسكت٠

[عَلَى الشَّيْخِ الشَّفِيقِ]
أى : على المسن العاقل الكامل الفاضل المتقى المُشفق على عباد الله، وإنما عبره بالشيخ لكونه معبرًا بذلك اللفظ فى لسان الشارع فى قوله -صلى الله عليه وسلم- : « تفضيل الشيخين »٠
وفى قوله -صلى الله عليه وسلم- : « أن أبا بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة »٠
وهذا من باب التغليب٠
٠
وإنما عبره بالشفيق : لكون شفقته ورحمته للأمة فى غاية الكمال٠
كما قال -صلى الله عليه وسلم- : « أرق أمتى وأرحمها أبو بكر »٠
٠
وقال الله تعالى فى شأن أصحابه -صلى الله عليه وسلم- :
{ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ }٠
فكيف وهو أفضل من جميعهم٠
٠
وقيل : إنما وصفه بالشيخ لكون فضله أكمل وأتم، لقوله -صلى الله عليه وسلم- :
« ما طلعت شمس ولا غربت على أحد أفضل من أبى بكر بعد النبيين »٠
٠
وقوله -صلى الله عليه وسلم- : « لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان العالمين لرجح »٠
وقوله -صلى الله عليه وسلم- : « لو كنت متخذًا خليلًا غير ربى لاختذت أبا بكر »٠
٠
وقال الله تعالى فى شأنه : { ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَّ مَعَنَا }٠
٠
وقال محمد بن على أبو بكر : ثانى اثنين فى عدة أشياء ؛ فى الغار، وفى الهجرة، وفى النصرة، وفى الجوع، وفى الشهادة، وفى العدالة، وفى الدعوة، وفى إقامة الحجة، وفى القبر، وفى المحشر، وفى الجنة، وفى الروية، وفى كل شىء إلا فى النبوة٠

قال أهل السنة والجماعة : أفضل الناس بعد النبى -عليه الصلاة والسلام- أبو بكر الصديق -رضى الله عنه-، لقوله تعالى :
{ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ }.

.

وأخبر عز وجل أن أبا بكر أتقى الأمة فى قوله تعالى :
{ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى } نزلت فى شأن أبى بكر بالاتفاق.

.

وقوله تعالى : { وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ } يعنى سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم-.
{ وَصَدَّقَ بِهِ } أبو بكر.
واستخلفه النبى -صلى الله عليه وسلم- من بعده، وذلك يدل على أنه أفضل الناس.

.

وقال النبى -صلى الله عليه وسلم- : « ما صبَّ الله فى صدرى إلا وصببته فى صدر أبى بكر ».

.

روى : أن رجلًا نهشته كلبة، فشكى إلى النبى -صلى الله عليه وسلم- فأمر بقتلها، فلما أحضروها عند النبى -صلى الله عليه وسلم- قالت الكلبة بلسان طلق :
يا رسول الله إنى أمرت بعضِ من سبَّ أبا بكر، وهو سب أبا بكر فنهشته.
فسمع الرجل ذلك فتاب.

.

فالحاصل : لا يمكن تحرير فضائله -رضى الله عنه-، طوبى لمن أحبه، وويل لمن أبغضه-

.

ثم مدحه بأوصاف معدودة، فقال :
[قَاتِل الزِّنْدِيقِ]
أى : قَتَل من كفر، وَعَنَدَ بسيفه الظاهر والباطن يوم خلافته.
لا يميل إلى الباطل، ويجرى الحق ويحبه، ويبغض الباطل.

.

وفى أيام خلافته ارتد كثير من القبائل، وجمعوا على مسيلمة الكذاب الذى يدعى النبوة، فبعث أبو بكر خالد بن الوليد مع كثير من الصحابة، فقاتلوهم، وقتل من المسلمين ألف ومائتان، فقتل مسيلمة ومن معه، ثم هزم يزدجر على يد خالد بن الوليد.

ثم خرج -رضى الله عنه- بنفسه مع جيش عظيم إلى " عيسى وذبيان " ، وهزمهم.
ثم فتش أهل الردة وقتلهم.
ثم ظهر طليحة الذى يدعى النبوة، وقاتله فقتله ومن معه.
ثم فتح " عين التمر " غربى الأنبار، وبُصرى.

.

فلذلك قال الداعى فى مدحه : [قاتل الزنديق] لكثرة مقاتلته مع الزنادقة والملاحدة، فإنهم ظهروا وجمعوا بعد النبى -صلى الله عليه وسلم- على أبى بكر، ووقعت فتنة شديدة صرح بها فى " المطولات ".

.

[وَفِى الغَارِ الرَّفيقِ]
أى : الذى هو رفيق النبى -صلى الله عليه وسلم- فى الهجرة حين تفقده الكفار، وتحصن فى الغار فى أعلى ثور، وهو جبل فى يمين مكة على مسيرة ساعة، وقصته مشهورة.

.

وإنما أتى بالواو لأن متعلق الجار مؤخر، وهو الرفيق، فالتصدر بالواو لازم فى أمثال ذلك للربط، كما تقول : وبه نستعين.

.

وذكره الله تعالى باسم الصاحب فى قوله تعالى :
{ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَّ مَعَنَا }
حتى أن منتم أنكر هاذين الوصفين يكفر.

.

وإنما مدحه الله تعالى بذلك ؛ لأن أبا بكر فدى النبى -صلى الله عليه وسلم- بنفسه حين دخوله الغار، وقبل أن يدخل النبى -صلى الله عليه وسلم- لئلا تصيبه -صلى الله عليه وسلم- مضرَاتَ الحشرات.

.

لما روى : أنه رأى فى الغار ثقبات، فقطع عمامته قطعة قطعة، وسد بها، ولم يبق لثقب واحد شىء، فسدها برجله، ثم دخل النبى -صلى الله عليه وسلم- الغار، فرأى وجه أبى بكر قد تغير، فسأله عن ذلك، فقال : يا رسول الله عرضت الحية برجلى.
فقال : خل سبيلها فإنها تزورنى.
فجعل ريقه المبارك على رجله، فشُفى، وجاءت الحية واعتذرت للنبى -صلى الله عليه وسلم-، واستشفعت.

وفيه معجزة جلية حيث حمى حبيبه، وعمى أعين أعدائه، وهزمهم بالحمامة والعنكبوت٠
يعنى : وقاه بأهون البناء استخدمه من الطير والحشرات٠
فإذا كان الله مع أحد ؛ يدفع عنه السوء القوى بالضعيف٠
٠
[المُلَقَّبِ بِالْعَتِيقِ]
لقبه النبى -صلى الله عليه وسلم- باسم العتيق٠
روى : أنه كثيرًا ما ينادى بيا عتيق ا لله، وإنما لقبه بذلك ؛
إما لاعتاقه الرقاب فى أكثر الأحوال، فيكون فعيل بمعنى فاعل٠
أو لأجل : أنه عُتق من النار، فقد بشره الله تعالي بذلك فى الدنيا، فيكون فعيل بمعنى مفعول٠
٠
وعن عائشة -رضى الله عنها- قالت :أن أبا بكر دخل على النبى -صلى الله عليه وسلم-، فقال : « أنت عتيق الله من النار » فيومئذ سمى عتيقًا ٠
٠
وروى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :
« ينادى يوم القيامة خازن النار أن الله تعالى أمرنى أن أدفع مفاتيح جهنم إلى محمد، وأن محمد أمرنى أن أدفعها إلى أبى بكر، ثم ينادى رضوان خازن الجنة يقول :
إن الله تعالى أمرنى أن أدفع مفاتيح الجنة إلى محمد، وأن محمد أمرنى أن أدفعها إلى أبى بكر ٠
٠
[الإمامِ عَلَى التَّحْقِيقَ]
أى : هو إمام حق بعد النبى -صلى الله عليه وسلم-، قد استخلفه -صلى الله عليه وسلم- فى حال حياته فى بعض الأوقات، وعند موته٠
٠
روى : أن امرأة أتت النبى -صلى الله عليه وسلم- فأمرها أن ترجع إليه٠
قالت : أرأيت إن جئت ولم أجدك -كأنها تقول الموت- ؟
قال صلى الله عليه وسلم : إن لم تجدينى فأتى أبا بكر ٠
٠
والجمهور على أن أبا بكر -رضى الله عنه- صار خليفة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بإجماع الأمة، وبايعه جمهور أكابر الصحابة٠

وقال بعضهم :
خلافة أبي بكر ثبتت بالنص فى قوله تعالى : { لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ }.

.

فإذا استخلفه النبى -صلى الله عليه وسلم- طابق النص، فإن النبى -صلى الله عليه وسلم- لما مرض قال : « مروا أبا بكر يصلى بالناس » .
وقد صلى أبا بكر بالناس سبعة أيام، وقيل ثلاثة أيام فى مرض النبى -صلى الله عليه وسلم-.

.

وقال -صلى الله عليه وسلم- : « اقتدوا بالذى من بعدى ».
فلذلك قال الداعى : [الإمامِ عَلَى التَّحْقِيقَ] لكون إمامته محققة ثابتة، لا ينكر إمامته إلا منافق شقى.

.

[أميرِ المؤمنِين]
أى : إمام عادل، وأمير مُحِقّ بين المؤمنين.

.

[أبى بَكْر الصِّدِّيقُ -رضى الله عنه-]
أى : كان صِدِّيقًا لتصديقه النبوة، وأمر المعراج بلا تردد.
والصِّدِّيقُ : كثير الصدق الذى لا يمازج صدقه شوب.
وقيل الصِّدِّيقُ : من لا يناقض سره عَلَنَه.

.

وعن محمد بن يوسف أنه قال : أن الله تعالى قد سمى يوسف صِدِّيقًا، بقوله تعالى : { يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ }.
ومريم صِدِّيقَة بقوله تعالى : { وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ }.
وإبراهيم صِدِّيقًا بقوله تعالى : { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا }.

.

وسمى أبا بكر صِدِّيقًا باسم هؤلاء ؛ ليظهر شرفه عند العالمين.
أو لأنه أول من صدقه -صلى الله عليه وسلم- من أهل الأرض، فسمى بذلك.

.

كما روى عن عبد الله، أنه قال : أول من صدق النبى -صلى الله عليه وسلم- أبو بكر، وأول من أنفق عليه أبو بكر، وأول من صلى بالمسلمين أبو بكر.

ثم اعلم أنه كان اسمه فى الجاهلية عبد الكعبة، فسماه النبى -صلى الله عليه وسلم- عبد الله، وهو ابن أبى قحافة، وهو أسلم فى فتح مكة، ومات فى خلافة عمر -رضى الله عنهما-، وهو ابن عامر بن عمرو بن كعببن سعد بن يتم بن مرة.

.

يجتمع نسبه ونسب النبى -صلى الله عليه وسلم- فى مرة، فيكون أبو بكر قرشيًّا.
فلذا كانت خلافته صحيحة لقوله -صلى الله عليه وسلم- : « الأئمة من قريش ».

.

وقوله -صلى الله عليه وسلم- : « الخلافة بعدى ثلاثون سنة، ثم تصير ملكًا عضوضًا ».
وكانت خلافة أبى بكر فى ثلاثين، وهو أكمل بخلافة علىٍّ -رضى الله عنه-.

.

واتفق المشايخ على أن أبا بكر -رضى الله عنه- سيد الطائفة الجليلة الموسومة بالصوفية ؛ فى التجرد، والتفريد، والمشاهدة.

.

ثم قال الداعى :
[ثمَّ السلامُ مِنَ الْمَلِكَ الْوَهَّابِ إلى الأَمِيرِ الأَوَّابِ]
أى : الأمير العادل الغالب على الكفرة والطواغى، التائب من السيئات.
والأواب : بمعنى كثير المجاهدة والعبادة.

.

واتفق أهل السنة والجماعة على أن سيدنا عمر -رضى الله عنه- أفضل الصحابة بعد أبى بكر، وقد كال له كرامات مشهورة، ومقامات عجيبة.

.

وهو مقتدى الصوفية فى المجاهدة، والمراقبة، ولبس الخرقة، وكان يلبس خرقة عليها ثلاثين رقعة حين ولى الخلافة.

.

سماه النبى -صلى الله عليه وسلم- " فاروقًا " لفرقه بين الحق والباطل كما سيأتى.
يفر منه الشياطين، وهو أول من أرَّخ بتاريخ الهجرة، وأول من دوَّن الدواوين، ويرتع فى عصره الذئب مع الغنم، ويلعب الصبى مع الحية، وشاعت هيبته فى قلوب سلاطين الأقاليم السبعة.

قال -صلى الله عليه وسلم- : « عُمَرُ معي وأنا مع عُمَرَ والحقُّ بعدي مع عُمَرَ حيثُ كان ».
وقال -صلى الله عليه وسلم- : « لو كانَ نبيٌّ بعدي لَكانَ عمرَ بنَ الخطَّابِ ».

وقال له -صلى الله عليه وسلم- : « والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً قط إلا سلك فجاً غير فجك ».
وقال -صلى الله عليه وسلم- : « إنَّ اللهَ وضع الحقَّ على لسانِ عمرَ وقلبِه ».
وقال -صلى الله عليه وسلم- : « اللَّهمَّ أعزَّ الإسلامَ بعمرَ ».
وقال -صلى الله عليه وسلم- : « إنِّى لَأَنْظُرُ إِلَى شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ قَدْ فَرُّوا مِنْ عُمَرَ ».

.

[زَيْنِ الأَصْحَابِ]

أى : زَيَّنَ الأصحاب بعدله وتقواه، ومن ابتدأ وزين الإسلام بإسلامه وخلافته، وظهر الإسلام بظهوره، وخاف من مهابة عدله جميع الخلائق، حتى نفذ حكمه إلى النيل وطائفة الجن.

.

فمن كراماته :
أن من كتب اسم عمر فى حوال سربة أربع مرات لا يحتلم قط.
وإذا وقع فى وسط الرياح المختلفة، وقال : يا عمر مرارًا، لا تضره الجن.
أو غرق فى بحر النيل، فقال : مرارًا يا عمر، لا يغرق.
وأمثال ذلك من الكرامات كثيرة.
وأعطى إليه مفاتيح بعض البلدان.

.

روى : أنه نَصَّبَ ستة آلاف وستمائة منبرًا حين ولى الخلافة.

.

[مُجاوِرِ الْمَسْجِدِ والْمِحْرَابِ]

أى : القائم العابد لله فى المسجد، والمُصْلِحُ لله فيه مصالح المسلمين فى النهار، فصار فى المسجد كالمجاور، ولكثرة تعبده، ووفرة اجتهاده ارتقى شأنه فى مقام العليين.

.

[النَّاطِقِ بِالصِّدِقِ وَالصَّوَابِ]

أى : لا ينطق ولا يتكلم إلا عدلًا، وحكمة، وموعظة، ولا يقول إلا حقًّا، آمر بالمعروف، ناهٍ عن المنكر، حتى قيل : أنه قتل ابنه لما أقام عليه الحد فى شرب الخمر.

وروى : أن النبى -صلى الله عليه وسلم- استشار أبى بكر وعمر فى الأسارى ؛ فقال أبو بكر -رضى الله عنه- خذ منهم الفدية، وقال عمر -رضى الله عنه- : اضرب أعناقهم، فهمَّ -صلى الله عليه وسلم- بقول أبى بكر، فنزل قوله تعالى :
{ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }.

•

قال -صلى الله عليه وسلم- : « لو نزل من السماء إلى الأرض عذاب ما نجا منه إلا عمر » الحديث، فصار عمر ناطقًا بالصواب.

•

[المَذْكُورِ فِى الكِتَابِ]
أى : الممدوح فى الكتب المنزلة، أو فى القرآن.

•

قال بعض أهل التفسير : يدل على صحة خلافته قوله تعالى :
{ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ }
فالمراد من القوم : أهل فارس.
والإمام الداعى فى ذلك : عمر -رضى الله عنه-.

•

وفى رواية ابن جريج، ونقل عن بعض المفسرين، عن ابن عباس -رضى الله عنهما- فى تفسير قوله تعالى :
{ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا }
تخاصم يهوى ومنافق، فكان اليهودى يريد رفع الحكم إلى سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم-، فحكم على المنافق، فلم يرض به، وقال نرفع الحكم إلى عمر.
فلما ذهبا إليه وشرح اليهودى حاله، وذكر ذهابهما إلى النبى -صلى الله عليه وسلم-، وأن المنافق لم يرض بحكمه.
فقال : اصبر حتى أخرج إليكما ثم أحكم بينكما.
فدخل بيته، ثم خرج وبيده سيف، فضرب به عنق المنافق، وقال : هذا أحكم وأرض لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله.
فنزل جبريل -عليه السلام- بهذه الآية.
وقال : أن عمر فرق بين الحق والباطل.
فناداه النبى -صلى الله عليه وسلم- بيا " فاروق " فكان ممدوحًا فى الكتاب.

[أَمِيرُ المؤمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ -رضى الله عنه]
بن نُفيل بن عبد العُزّى بن رِياح بن عبد الله بن قُرط بن رَزَاح بن عديّ بن كعب.
يجتمع نسبه ونسب النبى -صلى الله عليه وسلم- فى كعب، فكان عمر قرشيًا.
.
وفى أيام خلافته فتحت أمصار كثيرة منها ؛ مشق، وطبرية ، قيسارية، وفلسطين، وعسقلان، وبيت المقدس، وبعلبك، وحمص، وحلب، وعينتاب، وقنسرين، وانطاكية، والرقة، والموصل، والجزيرة، ونصيبين، وآمد، والروحاء، والقادسية، والمدائن.
.
وزال ملك الفرس، وانهزم ملك يزدجرد، وفتحت أيضًا فرغانة، وكور دجلة، والأُبِلَّة، وكور الأهواز، ونهاوند، واصطخر، وأصفهان، وتستر، والسوس، وأذربيجان، وبعض أعمال خرسان، ومصر، والأسكندرية، وطرابلس العرب.
.
كل ذلك ببركته، وفضله، وعدله، وتقواه.
.
[ثُمَ السَّلامُ مِنَ الْمَلِكِ الْمَنَّانِ] لم يتم شرحها بالمخطوط
.
[إلى الأميرِ الأمَانِ]
أى : الأمير العادل الأمين الذى لم يظهر فيه عيب وشين فى أمور الدنيا والدين.
والجمهور على أن عثمان -رضى الله عنه- أفضل الأمة بعد أبى بكر وعمر.
وهو سيد الطائفة الصوفية فى التسليم والرضا.
.
ولقب بذى النورين لما تزوج بنتى النبى -صلى الله عليه وسلم- رقية ثم أم كلثوم.
وعلى فضله نطقت الأحاديث منها :
ما روى أنه -صلى الله عليه وسلم- قال :
« لكل نبى رفيق ورفيقى فى الجنة عثمان ».
.
وعن عبد الرحمن بن سمرة أنه قال :
جاء عثمان إلى النبى -صلى الله عليه وسلم- بألف دينار فى كمه حين جهز جيش العسرة، فنشرها فى حجره، فرأيت النبى -صلى الله عليه وسلم- يقول :
« ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم » قاله مرتين.

وروى : أنه لما أمر ببيعة الرضوان فبعث -صلى الله عليه وسلم- عثمان إلى مكة، فبايعه الناس، فقال -صلى الله عليه وسلم- : « إن عثمان فى حاجة الله وحاجة رسوله، فضرب بإحدى يديه على الأخرى، فكانت يد الرسول -صلى الله عليه وسلم- لعثمان خيرًا من أيديهم إلى أنفسهم ».

.

وعن عائشة -رضى الله عنها- أنها قالت :
« كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مضطجعًا فى بيته كاشفًا ساقيه، فاستأذن أبو بكر فأذن له، وهو على تلك الحالة، ثم استأذن عمر فأذن له وهو كذلك، ثم استأذن عثمان فجلس -عليه الصلاة والسلام- وسوى ثيابه.
فلما خرجوا قلت : يا رسول الله دخل أبو بكر وعمر، فم تهتش ولم تبال منهما، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك.
فقال -صلى الله عليه وسلم- : « ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة ».

.

وعن عائشة -رضى الله عنها- قالت : قال النبى -صلى الله عليه وسلم- :
« يا عثمان لعل الله يقمصك قميصًا، فإن أرادوك على خلعه فلا تخلعه لهم ».
أى : الخلافة.

.

وروى أنه لما جاء عثمان يستأذن، قال -صلى الله عليه وسلم- لبوابه :
« ائذن له، وبشره بالجنة على بلوى تصيبه ».
فما بشره البواب بذلك، قال عثمان : اللهم اعطنى صبرًا.

.

[حَبِيبِ الرَّحْمَنِ]
أى : يعيش مع محبة الله، ومحبة رسوله، ورضاهما، ويجتهد فيما أمر بالإخلاص، فصار حبيبًا.
ولكونه حبيب حبيب الرحمن، لما روى : أنه أضافا النبى -صلى الله عليه وسلم- ، وأعتق عبدًا لكل خطوة للنبى -صلى الله عليه وسلم- يخطوها من مسجده إلى بيت عثمان.

.

وقد آثر ما ملكه إلى النبى -صلى الله عليه وسلم- فالمهادة موجبة للمحبة لقوله -صلى الله عليه وسلم- : « تهادوا تحابوا ».

[جَامِعِ القُرآنِ]
أى : جمع القرآن لما رأى من الاختلافات فى القرآن، حتى كاد الناس أن يكفروا فى زلة قراءاتهم، فشاور الأصحاب، وجمع جميع المصاحف، واتفقوا على قراءة، فكتب من الصحيح أربع مصاحف، وأحرق باقى المصاحف، وأبقى المصحف على ذلك.

.

ثم أرسل مصحفًا إلى الكوفة، ومصحفًا إلى البصرة، ومصحفًا إلى الشام، وأبقى فى المدينة مصحفًا، وهو الذى يسمونه : المصحف الإمام.

.

فكان عثمان -رضى الله عنه- سببًا لخلاص الناس من الخطأ العظيم إلى يوم القيامة.

.

[صَاحِبِ الْحَيَاءِ وَالإيمانِ]
أى : كان يستحى من الله تعالى حق الحياء.
فمن حيائه : أنه لم يفعل أصلًا ما يخالف الأدب عند الناس، وكان يستحى من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حق الحياء.

.

ومن حيائه أنه لم يتستفح الكلام عند النبى -صلى الله عليه وسلم-، ولا يجلس عنده، ولا يدخل عليه إلا بإذنه، وقد كان يستحى من الناس بل من الجمادات أيضًا.

.

روى أيضًا أنه له ابريقًا فانكسر فبكى، فسئل عن ذلك، فقال :
إنه اطلع على سرى منذ كذا استحى من أن يطلع عليه أجنبى آخر.

.

وقد عرفت أن النبى -صلى الله عليه وسلم- لا يقوم لمجئ أحد إلا لعثمان -رضى الله عنه- ، وقد كان يستحى من الناس..

.

اعلم أن الحياء خُلق باعث على ترك القبيح، وهو على نوعين :
نفسانى : كالحياء من الجماع بين الناس ونحوه، وفيه اشترك جميع الناس.
وإيمانى : وهو ما يمنع فعل المعاصى خوفًا من الله، وهو المراد من قوله -صلى الله عليه وسلم- : « الحياء من الإيمان ».

.

وأن عثمان -رضى الله عنه- صاحب الحياء الإيمانى، فإن قوله : [والإيمان] يشعر بذلك مفسرًا.

أو المراد من الإيمان : كمال الإيمان وثمراته٠

٠

[الشَّهِيدِ عَلَى الْفُرْقَانِ]

أى : صار شهيدًا مظلومًا مقتولًا حين تلاوته القرآن، فاطلق عليه لقب شهيد أواب فى تلك الواقعة المشهورة٠

٠

[أَمِير الْمُؤمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ -رضى الله عنه-]

ابن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، يجتمع نسبه ونسب النبى -صلى الله عليه وسلم- فى عبد مناف، وهو قريشى٠

٠

وفتحت فى أيام خلافته إفريقية، وكرمان، وسجستان، ونيسابور، وفارس، طبرستان، وهراه، وأعمال خرسان، وأرمينية، وملاطية، وقبرس، وغيرها ٠

٠

[ثُمَّ السَّلَامُ مَنَ المَلِكِ الوَلِّى إِلَى الأَمِيرِ الْوَصِىِّ]

أى : الأمير المختار صاحب الأمانة والدِّين، لا يتصور منه الخيانة والشين٠

٠

وجمهور أهل الأمة على أن عليًّا -رضى الله عنه- أفضل الناس بعد عثمان -رضى الله عنه-، وهو الإمام والمقتدى لأهل المقامات، سيما أرباب الطريقة٠

فعلوم جميع الصوفية مأخوذة من سيدنا علىٍّ -رضى الله عنه-٠

٠

وعلى أفضليته نطقت الدلائل :

منها : ما روى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :

« إِنَّ الْجَنَّةَ لَتَشْتَاقُ إِلَى ثَلَاثَةٍ: عَلِيٍّ، وَعَمَّارٍ، وَسَلْمَانَ » ٠

٠

وقال -صلى الله عليه وسلم- لعلّى : « يا علىٍّ أنت بمنزلة هارون من موسى، أنت أخى فى الدنيا والآخرة »٠

٠

وقال -صلى الله عليه وسلم- : « أنا مدينة العلم وعلىٍّ بابها »٠

وروى : أنه كان عند النبى -صلى الله عليه وسلم- طير، فقال :
« اللهم ائتنى بأحب خلقك إليك يأكل معى هذا الطير، فجاء علىٌّ فأكل معه ».
وغير ذلك.

.

وإنما وصفه بالوحى لكثرة وصايا النبى -صلى الله عليه وسلم- له فى أحوال الدين والدنيا، أو لكونه وصيًّا مختارًا لأولاد النبى -صلى الله عليه وسلم- بعد انتقاله -صلى الله عليه وسلم.

.

فإنه ابن عمه، وكثيرًا ما يخلفه -عليه الصلاة والسلام- فى أهله حين ذهب إلى الغزوة.
كما جاء فى صحيح مسلم فى رواية سعد :
« أن النبى -صلى الله عليه وسلم- خَلَفَ عليًّا فى أهله فى غزوة تبوك.
فقال : يا رسول الله تخلفنى فى النساء والصبيان.
فقال -عليه الصلاة والسلام- : يا علىٌّ أنت منى بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبى بعدى ».

.

[ابْنِ عَمِّ النَّبِىِّ]
فإنه ابن أبى طالب ابن عبد المطلب، وهو جده -صلى الله عليه وسلم-، وجدّ علىٍّ -رضى الله عنه-.

.

[قالِعِ البَابِ الخَيْبَرِىِّ]
صفة نسبية للباب ؛ أى هادم باب الخيبر بيده، حين حصر النبى -صلى الله عليه وسلم- الخيبر، وفتحه بيده حتى قيل فى شأنه : لا فتى إلا علىٌّ، ولا سيف إلا ذو الفقار.

وقال النبى -صلى الله عليه وسلم- فى شأنه : « أنت أسد الله يا علىّ »٠

٠

وسببه : ما روى أن النبى -صلى الله عليه وسلم- قال يوم خيبر :

٠

« لأعطين هذه الرايةَ غدًا رجلاً يفتحُ اللهُ على يديه، يحبُّ اللهَ ورسولَه ويحبُّه اللهُ ورسولُه٠
فبات الناسُ يدُوكون ليلتَهم أَيُّهم يعطاها ، فلما أصبحَ الناسُ غدوْا على رسولِ اللهِ -صلى الله عليه وسلم- كُلُّهم يرجو أن يُعطاها٠
فقال : « أين عليُّ بنُ أبي طالبٍ »٠
فقيل : هو يا رسولَ الله يشتكي عينَيه، قال :« فأرْسِلوا إليه »٠
فأتى به فبصقَ رسولُ اَللهِ -صلى الله عليه وسلم- في عينيه ودعا له، فبرأَ حتى كأن لم يكن به وجعٌ، فأعطاه الرايةَ٠
فقال عليٌّ : يا رسولَ الله ، أقاتِلهم حتى يكونوا مثلنا ؟
فقال : « انْفُذْ على رسلِكَ حتى تنزلَ بساحتِهم، ثم ادعُهم إلى الإسلامِ، وأخبرْهم بما يجبُ عليهم من حقِّ اللهِ فيه، فوالله لأن يهديَ اللهُ بك رجلاً واحداً ، خيرٌ لك من أن يكونَ لك حُمْرُ النَّعَمِ »٠

٠

ومن أسمائه " حيدر " سمته أمه به، كما قال : أنا الذى سمتنى أمى حيدرًا٠
وسماه النبى " أبا تراب "٠

٠

[زَوْجِ فاطِمةَ الزَّهراءِ]
أى : هو أقرب إلى النبى -صلى الله عليه وسلم- من جهة كونه ختنه، كما كان أقرب من جهة كونه ابن عمه، فإنه زوج بنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فكان أفضل الناس٠
وفى هذا الوصف إيذان بأفضيلة فاطمة -رضى الله عنها-٠

٠

والزهراء : صفة نسبة لفاطمة، وإنما لقبت به لشدة بياض نور وجهها، حتى أن عائشة -رضى الله عنها- كانت تغزل من نور وَجْهِ فاطمة٠

وروى : « أنه جاء رسولُ اللهِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- بيتَ فاطمةَ . فلم يجد عليًّا في البيتِ، فقال " أين ابنُ عمِّكِ ؟ فقالت : كان بيني وبينه شيءٌ، فغاضبَني فخرج، فلم يَقِلْ عندي.
فقال رسولُ اللهِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- لإنسانٍ : أنظُرْ أين هو ؟.
فجاء فقال : ياَ رسولَ الله ! هو فى المسجدِ راقدٌ.
فجاءه رسولُ اللهِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- وهو مضطجعٌ قد سقط رداؤه عن شِقِّه فأصابه ترابٌ .
فجعل رسولُ اللهِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- يمسحه عنه ويقول : قُمْ أبا التُّرابِ ! قُمْ أبا التُّرابِ» .
فكنى به شَرافة.

.

[وَارِثِ عُلُومِ النَّبِىِّ]

أى : هو أعلم الناس فى عصره، فإنه باب مدينة العلم.

وقال علىٌّ -رضى الله عنه- : علمنى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ألف علم، وكتمته عن الناس، جمع فيه علوم الظاهر والباطن.

.

[أَمِيرِ الْمُؤْمِنِيَن عَلِىٍّ الَّرضِىِّ]

أى : رضى على ما جاء بقضاء الله تعالى، وقدرته حتى ابتلى فى أيام خلافته بوقائع لم يَرَ مثلهاحد، لا يجوز ذكرها، حتى قتله لئيم الناس، ومع ذلك صَبَرَ ورضى، ولم يغتم فيها أصلًا، بل عدَّها نعمة كبرى من الله تعالى، ادخارًا للحظوظ الآجلة.

.

ومن كونه رضيًّا : مكثه فى فراش النبى مُستحفِظًا، حين هاجر النبى -صلى الله عليه وسلم- من مكة إلى المدينة، فإنه جعل نفسه فِداء للنبى -صلى الله عليه وسلم-، ورضى أن يقتل إذا هجم الكفار، والقصة مشهورة.

.

وقيل نزل فى شأنه قوله تعالى : { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللهِّ وَاللهٌّ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ }.
فلذا قال : رَضِىِّ.

.

ولما كان رضيًّا بجميع المصائب، ارتضاه الله تعالى، وارتضاه الناس، أى صار مختارًا، أو مرضيًّا بين الصحابة، حتى سمى " بعلى المرتضى ".

[الْوَفىٍّ]
أى : ينجز الوعد، أى : يستكمل فى إيفاء ما عَهِدَ من أوامر الله تعالى، ومما وقع بين الناس فى الوعد والعهود، لا يخالف أصلًا، ويوفى ما نذر لله تعالى.
كما نزل فى شأنه قوله تعالى : { يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا }
وسبب نزولها مر فى شرح [ونستغفر الله].
.
[السَّخِىِّ]
أى : يجود ويبذل بما عنده فى سبيل الله تعالى ؛ بالمال والنفس لا يدخر شيئًا لغدٍ، ويؤثر المساكين، ويبقى هو جائعًا، كما مر بيان ذلك فى [ونستغفر الله].
.
وهو يجاهد فى الله بالمال والنفس، وهو صاحب الضيف ويخدمه بنفسه.
روى : أن عليًّا -رضى الله عنه- مرض، فعاده أبو بكر وعمر وعثمان، فأضافهم على عسلاً أحمرًا فى طاس أبيض، وفيه شعر رقيق.
فقال أبو بكر -رضى الله عنه- : نتكلم فى شأن هذا العسل والطاس والشعر بشىء ينبئ ما فى قلوبنا محبة، ثم نأكل.
ثم قال أبو بكر -رضى الله عنه- : الجنة أنور من الطاس، وأطعمتها أحلى من العسل، والصراط أدق من الشعر.
وقال عمر -رضى الله عنه- : الإسلام أنور من الطاس، وعلمه أحلى من العسل، وأحكام الشريعة أدق من الشعر.
وقال عثمان -رضى الله عنه- : القرآن أنور من الطاس، وتلاوته أحلى من العسل، وتفسيره أدق من الشعر.
وقال علىٌّ -رضى الله عنه- : وجوه الأضياف أنور من الطاس، ومكالمتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أدق من الشعر.
رضوان الله عليهم أجمعين، ومثل هذا الكلام الغريب منه أكثر.
[رضى اللهُ عنه وكَرَّمَ وَجهَهُ]

[ثُمَّ السَّلَامُ عَلَى الإمَامَيْنِ]

أى : إمامين حقيقين بعد الخلفاء، حسبًا، ونسبًا، وكونهما إمامين عبارة عن أفضيلتهما وأشرفيتهما على سائر الخلائق فى عصرهما، وعلى فضائلهما دلائل :

.

منها : ما روى أنه -صلى الله عليه وسلم- قال فى الحسن والحسين :

« هَذَانِ ابْنَايَ وَابْنَا ابْنَتِيَ ، اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا ، فَأَحِبَّهُمَا ، وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُمَا ».

.

وروى : « أنه سئل النبى -صلى الله عليه وسلم- : أى أهل بيتك أحب إليك ؟

قال : الحسن والحسين هما ريحانتى فى الدنيا، وسيدا شباب أهل الجنة فى العقبى».

.

وحكى فى الأخبار : أن الله تعالى أوحى إلى جبريل -عليه السلام- : هل اشتهيت من الدنيا إلى شىء؟ قال : يا رب رأيت الحسن والحسين يلعبان بالعقيق فى مهدهما، فتمنيت أن يكون هذا العقيق عيناى فيلعبان بهما.

فقال الله عز وجل : فلأجل حبك لأهل بيت حبيبى فى علمى الأزلى، جعلتك الروح الأمين.

.

وحكى أنهما كتبا كتابة فأرياهما أمهما لتختر أيها أحسن، فقالت : أبوكما يعرف.

فأرياهما عليًّا فقال : جدّكما يعرف، فأرياها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال : جبريل يعرف.

فقال جبريل : الله أعلم أيهما أحسن.

فأمر الله تعالى جبريل أن يأخذ من الجنة تفاحًا ويلقيه عليهما، فعلى أيهما وقع فهو أجود.

ففعل جبريل فصار التُفاح نصفين، ووقع أحدهما على كتابة أجدهما، والآخر على الأخرى، فلم يميز أيهما أجود لئلا يلزم الترجيح، ولا ينكسر قلب الآخر.

.

وحكى : أنهما قالا : يا رسول الله إن أولاد أبى جهل كانوا قد ركبوا الجمل وتفرجوا.

فقام -صلى الله عليه وسلم- فأخذ الحسن على عاتقه الأيمن، والحسين على عاتقه الأيسر، فتفرج بهما.

فقالا : يا رسول الله إن جملهم يصيح تارة، فأراد أن يصيح فنزل جبريل فمنعه من ذلك، وقال : يا رسول الله إنالله تعالى أعطاك الأمة بتواضعك، وإدخالك السرور على المعصومين.

وفضائلهما أكثر من أن تحصى.
وقد أخبر النبى -صلى الله عليه وسلم- عن واقعة كربلاء بالمعجزات، وذكرها يوجب الملل.
وفى هذه حكمة من الله تعالى، ويكون تسلية لأهل البلاء، ورفعًا لدرجاتهما، وشفاعة للأمة، وغير ذلك.

.

كما روى : « أنه -صلى الله عليه وسلم- رأى ليلة المعراج قبة خضراء وقبة حمراء، لم يُر مثلهما.
فسأل، فقيل : إحداهما للمقتول بالسم، والأخرى للمقتول بكربلاء، وهما الحسن والحسين أبناء فاطمة -رضى الله عنهما-، أخترهما أو أمتك.
فقال -صلى الله عليه وسلم- : اخترت أمتى ».

.

وروى : أن فاطمة -رضى الله عنها- تقول فى يوم القيامة :
" إلهى شفعنى فيمن بكى وابتكى على مصيبة ولدى ". انتهى

.

[الهُمَامَينِ]
أى : المعظمين المحترمين الشريفين المجدين، فإنهما أبناء بنت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

.

[السَّعِدَيْنِ]
أى : ما شقيا أصلًا ظاهرًا أو باطنًا، فإنهما بُشِرا بالجنة، بقوله -صلى الله عليه وسلم- : « الحسنَ والحسينَ سيِّدا شبابِ أهلِ الجنةِ ».

.

[الشَّهِدَيْنِ]
أى : صارا شهيدين، أما الحسن فبالسم، والحسين بالذبح فى القفا بكربلاء.

.

[المَظْلُومَيْنِ]
أى : قتلا بغير حق، ولا إيجاب قصاص، ولم يفعلا ما يوجب القتل.

.

[المَقْتُولَيْنِ]
أى قتلا بآلة القتل كما مر، وذكرهما باسم المقتولين على سبيل التغليب، وذكر قضيتهما لا ينبغى لهذا المقام.

[الشَّمْسَيْنِ القَمَرَيّنِ البَدْرَيْنِ]
أى : فضيلتهما على الخلائق فى عصرهما، مثل فضيلة الشمس على النجوم.
وجمالهما المعنوى مثل القمر فى الإفادة والإضاءة.
وكمالهما الصورى مثل كمال البدرا، وهما قرة عينى الرسول -صلى الله عليه وسلم-.
فيكون كل واحد منهما كالشمس معنًا، والقمر صورة، والبدر كمالًا.
.
[الحَسِيبَنِ النَّسِيبَيْنِ]
أى الجميلين الشريفين الزاهدين الفاضلين، نسبهما طاهر طيب عال، سبطى النبى -صلى الله عليه وسلم-.
الحسب : هو المفاخر الحاصلة للإنسان من قبل أبائه.
والنسب : هو المفاخر الكائنة من قبل نفسه.
وقد اتفق الحسب والنسب فيهما.
وقد قيل يطلق الحسب وحده، ويراد به ما حصل من المفاخر من جهة أبائه ونفسه.
.
[بِالْقَضَاءِ الرَّاضِيِيْنِ] لم يتم شرحه بالمخطوط.
.
[وَعَلَى البَلَاءِ الصَّابِرَيْنِ]
أى : أنهما راضيان على ما جاء بقضاء الله وقدره ؛ من شدة وبلية، وصابران عليهما، ومحتسبان، وشاكران، وحامدان، وعالمان أن تلك البلية فضلًا ورحمة من الله، لم يجزعا، ولم يفزعا، ولم يشكيا أصلًا، ولم ينتقما من أحد ادخارًا للحظوظ الآجلة.
.
اعلم أن البلية على ثلاثة أقسام :
بلية المقربين : وهى لرفع الدرجات
وبلية الأبرار : وهى تمحو الخطايا
وبلية الغافلين : وهى لازدياد العقوبة.
.
ولهذا قال الجنيد -رحمه الله - :
" البلاء سراج العارفين، وتنبيه للمريدين، وهلاك الغافلين ".
لأن الغافل إذا ابتلى بشىء كاد أن ينكر التقدير قولًا أو فعلًا، يعنى : يظن أن البلاء من غير تقدير، ويزيد فى الغضب والفحش، فيعاقب بالهلاك.
.

كما قال سهل :
" البلاء على وجهين : بلاء رحمة، وبلاء عقوبة.
فبلاء الرحمة : يبعث صاحبه على إظهار فقره إلى الله.
وبلاء العقوبة : يترك صاحبه إلى اختياره، وتدبيره.
.
فمن المعلوم : أن ما ابتلى به الحسن والحسين -رضى الله عنهما- لرفع درجاتهما عند الله، وعند الناس.
.
كما روى : أن النبى -صلى الله عليه وسلم- قال :
« أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ؛ يبتلى الرجل على حسب دينه, فإن كان في دينه صلب اشتد بلائه، وإن كان في دينه رقةٌ ابتلى على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد, حتى يتركه يمشى على الأرض, وما عليه من خطيئة ».
.
وقال -صلى الله عليه وسلم- : « إن الله ادخر البلاء لأولايائه كما ادخر الشهادة لأحبائه ».
وقال -صلى الله عليه وسلم- : « إذا أحب الله صب عليه البلاء صبًّا كما يصب الوابل المطر».
وقال -صلى الله عليه وسلم- : « لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده، حتى يلقى الله تعالى وما عليه من خطيئة ».
.
قال -صلى الله عليه وسلم- : « لَيَوَدُّنَّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّ جُلُودَهُمْ قُرِضَتْ بِالْمَقَارِيضِ مِمَّا يَرَوْنَ مِنْ ثَوَابِ أَهْلِ الْبَلَاءِ ».
.
وقال -صلى الله عليه وسلم- : « أبلغ عقوبات العاصى سلامته فى المعاصى »
أى : لا ينزل عليه البلاء.
.
قال لقمان لابنه : يا بنى لا تضطرب عند نزول البلاء، فإن الذهب يجرَّب بالنار، والمؤمن يجرب بالبلاء.
.
وقال الثورى -رحمه الله- : من لم يعدَّ البلاء نعمة، والرخاء معصية فذلك الذى لم يفقه شيئًا.
وقال أيضًا : لا يجد العبد حلاوة الإيمان حتى يأتيه البلاء من كل مكان.
وقال أيضًا : البلاء عطية لأهل الخطية.
وقال أيضًا : البلاء ملح أحوال المؤمن، إذا عدم البلاء فسد حاله.

.

وقال الله تعالى فى الكتب المنزلة : [من طلب ما لنا أعطيناه سؤله، ومن طلبناه صببنا عليه البلاء صبًّا امتحانًا واختيارًا].

والله تعالى منزه عن امتحان العبد، فإنه يعلم ما كان، وما لم يكن، لكن يمتحن العبد نفسه عند نزول البلاء، ومرتبته.

.

قال أهل التحقيق : إن الله تعالى أنزل آدم -عليه السلام- إلى الدنيا عقوبة له، وسجنًا، وأنه نزل إلى الدنيا باكيًا، فكيف يتصور السرور فى السجن مع العقوبة والبكاء ؟

وما عده الناس سرورًا ؛ كالأكل والشرب .. إنما هو رفع الألم فى لحظة، لا للسرور.

والدنيا عدو للعاصى والمطيع، فإنها للعاصى غرة، وللمطيع غمة، وإذا لم يفقه رجل ما هذه الدنيا وبليتها، كفى له علمه بالموت، وبفناء الدنيا وأهلها.

.

وكما أن جمع الأختين بنكاح لا يجوز، فكذا لا يجوز لأهل الآخرة أن يطلبهما معًا، فإن الدنيا والآخرة أختان.

وكما أن مطلقة النبى -صلى الله عليه وسلم- لا يجوز نكاحها للغير، فكذا لا يجوز نكاح الدنيا : أى محبتها لأن نبينا -عليه الصلاة والسلام- طلقها.

.

ويؤيد ذلك قوله تعالى : { مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ }.

.

وقوله -صلى الله عليه وسلم- : « الدنيا حرام على أهل الآخرة، والآخرة حرام على أهل الدنيا ».

.

فالحاصل : أنه لا يمكن لأحد النجاة من البلاء فى هذه الدنيا، فإن الله تعالى لم يخلق سرورًا فيها.

.

وقال العلماء : أن الثواب الجزيل لأهل البلاء إذا كان صابرًا، ولم يشك لأحد، إلا أن يسألوا عنه، فيحكى للمدافعة، ولم يترك الفريضة، وما وجب لأجل الدنيا بغير عذر شرعى، ولم يسىء إلى الخلق بحد تجاوز عن حد الشرع، ولم يعلم ذلك من أحد إلا من الله، ولم يطلب النجاة إلا من الله.

فانظر أيها السالك : فى بلاء الأنبياء، والأولياء، والصالحين، وهم يريدون بها حظوظ الآجلة الأبدية المزيدة، وأنت تريد دائمًا حظوظ العاجلة، ولا تطلب أذية نفسك من شىء.

.

فكيف تسلك مسالكهم، ولا تصبر على الفقر، وذم الناس، وأذية الجار والقريب، ومن أذاك مرة واحدة تريد أن تؤذيه بعشرة أمثالها انتقامًا.

.

فكيف تكون سالكًا أو صوفيًا، وأنت لا تصبر على طعن المنكرين عليك مع قصورك فى أعمالك، فكيف تصبر على ما عداه، بل لا تصبر أن تتحمل خدمة شيخك فى أمر دينى أو دنيوى، مع أن طاعته واجبة عليك، فتخالفه فى أمره، فيخشى عليك أن تكون من الهالكين لا من السالكين.

.

كما قال فى " المفاتيح فى شرح المصابيح " : من قال لشيخه لِمَ يفلح أبدًا.
لأنه من قال لشيخه لم قلت هذا، أو لم فعلت هذا لن يفلح لأنه ضعيف الاعتقاد فى الشيخ كما مر.

.

وإذا رأيت رجلًا فقيرًا تجتنب عنه، وتعتقده كريهًا وتقول : قد أبغضه الله.
وكذا تعد فقر نفسك من غضب الله، وغنى نفسك من لطف الله.
قال الله تعالى :
{ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ }.

.

بل إذا كنت ذا سعة تكتمها، وإذا كنت ذا شدة تكشفها.
قال الله تعالى : { إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا}.

.

ومع هذا تدعى بدعوى الصالحين، والصبر أحد شرائط العشرين للمريد التى ألفها الشيخ العسكرى -رحمه الله- فى الوصية فاطلع عليها.

[أَمِيرَىِ الْمُؤمِنِينَ] لم يتم شرحها بالمخطوط

.

[أَبِى مُحَمَّدٍ الْحَسَنِ]

روى : أن كنيته أبو محمد العابد النقى، والطيب الزكى، والسيد، والولى، والسبط.
وأشهرها الزكى، والسبط.

.

وأولاده الذكور أثنى عشر أكبرهم محمد الأكبر كنى به.
كلهم قتلوا مع الحسين بكربلاء.

.

[وأَبِى عَبْدِ الله الحُسَيْنِ]

كنيتة أبو عبد الله، وألقابه : الرشيد، والطيب، والوفى، والسيد، والزكى، والمبارز، والتابع لرضاء الله، والسبط، والشهيد، وأشهرها السبط.
وأولاده الذكور أربعة أكبرهم عبد الله كنى به.

.

[رَضِىَ الله ُعنهُما]

.

[وَعَلَى العَمَّيْنِ]

أى : عمى النبى -صلى الله عليه وسلم-، وأعمامه تسعة فلم يدخل الإسلام منهم إلا حمزه والعباس، فلذا خصهما بالذكر، ولا شبهة أنهما أفضل وأكرم عند الله والناس.

.

لما روى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال :
« عم الرجل صِنْوُ أبيه ».
ثم قال : « من أذى عمى فقد آذانى ».

.

وقال -صلى الله عليه وسلم- فى العباس وولده :
« اللهم اغفر لعباس وولده مغفرة ظاهرة وباطنة لا يعادينا، اللهم احفظه فى ولده ».

.

وقيل : أن حمزة أخ من الرضاعة، استشهد يوم أحد، وهو سيد الشهداء والسعداء.

[الكَرِيمَيْنِ المُكَرَّمَيْنِ]
بالمال والنفس فى شأن النبى -صلى الله عليه وسلم-، وأصحابه المجاهدين فى الدين والطاعة.

.

[الشُجَاعَيْنِ]
عند مقاتلة الكفار شدادًا وغلاظًا، لا يحترزان عن أن يقتلا، يهجمان على الكفار كما يهجم الأسد على فرق الحيوانات، لم يطلبا عوضًا فى الدنيا من أحد إلا رضاء الله تعالى.

.

[المُعَظِمَيْنِ]
أى : ذوى استحقاق التعظيم، والتفخيم، فإنهما عمى النبى -صلى الله عليه وسلم-وعترته، مع أنهما صاحبا خصائل حميدة، وشمائل جميلة.

.

[المُحْتَرَمَيْنِ]
عند الله : بمثوبات كثيرة، ومقامات علية، وعند الناس : بالترضية والدعوات لهما، وبكونهما مذكورين بالخير والثناء إلى يوم الدين.

.

[حَمْزَةَ وَالْعَبَّاسِ] عطف بيان لما سبق.

.

[وَعَلَى جَمِيعِ الصَّحَابَةِ]
الذين رأوا وجه النبى -صلى الله عليه وسلم-, وسمعور قوله، وتبعوه فى أفعاله، وأحواله، وجهاده، وائتمروا بأمره، وانتهوا بنهيه، وكانوا إخوانًا للمسلمين.

.

واتفقت الأمة على أن الصحابة أفضل من عامة الناس.
وقيل : أن أصحاب النبى -صلى الله عليه وسلم- أربعون ألفًا، وقيل ثلاثة وثلاثون ألفًا.

سواء كانوا [مَنْ الْمُهاجِرينَ] :
أى الذين هاجروا مع النبى -صلى الله عليه وسلم- من مكة، وتركوا بيوتهم حبًّا لله ورسوله، وأقاموا فى المدينة وهم أهل مكة، وهم أفضل الأصحاب.

.

وفى مدحهم آيات وأحاديث، وصارت لهم هجرتين : الهجرة الأولى، وهجرة الأخرى.
أما الهجرة الأولى :
فهجرة الأصحاب إلى الحبشة ممن ليس له يد القبائل، لما آذتهم قريش أشد الأذى.
وهذه الهجرة بعد خمسة عشر سنة من البعث.

.

والهجرة الأخرى :
فهجرته -صلى الله عليه وسلم- مع المسلمين إلى المدينة.
وهذه الهجرة بعد ثلاثة عشر سنة من البعث، أقام فى مكة ثلاثة عشر سنة، وأقام فى المدينة عشر سنين.

.

وسواء كانوا من [الْأَنْصَارِ] :
الذين استقبلوا النبى -صلى الله عليه وسلم- ومن معه، وعزروه، ووقروه، وأكرموه، وأعطوا البيو والبساتين، ونصروا فى الدين بالإخلاص، والاجتهاد.
وهم : الأوس والخزرج من أهل المدينة، وهم أفضل من عامة الناس.

.

فالحاصل :
أن فضل الأصحاب لا يعد ولا يحصى، وقد مدحهم الله تعالى فى قوله :
{مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا }.

وقال النبى -صلى الله عليه وسلم- فى الأنصار :
« لَو أنَّ النَّاسَ سَلَكوا شِعبًا وسَلَكتِ الأنصارُ شِعبًا ، لسَلَكتُ شِعبَ الأنصارِ »٠

٠

وقال -صلى الله عليه وسلم- :
« لا يحبُّهم إلَّا مؤمنٌ ، ولا يبغضُهم إلَّا منافقٌ ، فمن أحبَّهم أحبَّهُ اللهُّ ، ومن أبغضَهم أبغضَهُ الله »٠ رواه الشيخان٠

٠

وقال -صلى الله عليه وسلم- :
« أوصيكم بالأنصارِ، فإنهم كَرِشي وعَيبَتي، وقد قَضَوا الذي عليهم وبَقيَ الذي لهم، فاقبَلوا من مُحسِنِهم وتجاوَزوا عن مُسيئِهم »٠ رواه البخارى

٠

وقال -صلى الله عليه وسلم- : « اللَّهمَّ اغفِرْ لِلأنصارِ ولِأبناءِ الأنصارِ ولِأبناءِ أبناءِ الأنصارِ»٠
رواه الشيخان٠
وانفرد مسلم بقوله، وقال فى حق الأنصار : « اللهم إنهم من أحب الناس إلى قالها ثلاثًا»٠
رواه مسلم٠

٠

وقال -صلى الله عليه وسلم- : « خيرُكُم قرني ، ثمَّ الَّذينَ يلونَهُم ، ثمَّ الَّذينَ يلونَهُم »٠
رواه الشيخان٠
وغير ذلك من الدلائل فى فضائل الأصحاب، والأنصار كثير٠

٠

[وَالْتَابِعِينَ]
الذين لم يروا النبى -صلى الله عليه وسلم- لكن أدركوا بعض الأصحاب، وصحبوهم، وأخذوا من كلامهم٠

٠

[الْأَخْيَارِ]
صفة لكل واحد من المهاجرين، والأنصار، والتابعين، ليخرج بذلك الأشرار مثل المنافقين٠

٠

[وَالْأَبْرَارِ] عطف على الأخيار٠

[رَضْوَانُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْنَا وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِيَن]
رضاءً تامًا لاَ يسخط عليهم أبدًا، كما وعدهم الله تعالى رضاه.
.
ومن آداب الدعاء للغير : أن يدعو بزيادة ما فيه شرفًا، أو بإزالة ما فيه قبحًا.
كما يقال للعالم : زاد علمه، وللعابد : زاد تقواه، وللعاصى : عفى عنه.
فلذا يقال لعلىٍّ : -كرم الله وجه- لما فى شأنه من الكرامة.
.
[وَسَلِّم تَسْلِيمًا]
والتسليم بعد الصلاة أمر لازم، كما قال الله تعالى : { صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا }.
.
[وَعَظِّمْ تَعْظِيمًا دَائِمًا أَبَدًا]
بغفرانه، ورضوانه وإعطائه مقالم الشفاعة، فيشفعون فيمن أحبهم، ودعا لهم بالخير، واجتهد فى ترضيتهم.
.
[وَحَمْدًا]
منصوب بفعل واجب اضماره سماعًا، أى : وحمدت حمدًا.
.
وقوله : [كَثِيرًا]
تأكيد لفظى للحمد، أى : الحمد لله كأعداد رمال الدنيا، والأمطار، وأعداد ما فى السنابل، والنباتات، والقطرات والذرات.
.
بل أكثر من جميع ذلك على ما جعلنى من أمة سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم-، ومحبًّا لجميع الأصحاب، والأتباع الأخيار، ووفقنى لبيان فضائلهم ومدحهم، سيدما توفيق تلاوة هذا الورد الشريف، وفيه بيان مدحهم، فلله الحمد والمنة، ولرسوله أفضل التحية.
.
[إِلَى يَوْمِ الْحَشْرِ وَالْقَرَارِ]
أى : أن حمدى على ذلك مستمر إلى يوم القيامة، لو كنت حيًّا إلى ذلك الوقت، وهذا القول من طريق فرض المحال، والتقدير كما مر فى بيان [ونحمدك].

اللهم اجعلنا من سلك محبتهم، وارفعنا برفعتهم، والطف بنا بلطفهم، وأكرمنا بكرامتهم، وارحمنا برحمتهم، واجعلنا من الداعين المادحين لهم، واجعلهم شافعين مشفعين لنا برحمتك يا أرحم الراحمين.

.

ثم اعلم أنه إذا انتهت التلاوة جهرًا إلى ههنا، يُنصَت ويقرأ هذا الدعاء سرًّا، إما لكونه دعاء خالصًا، والدعاء الخالص بالسر أفضل، لقوله تعالى : { ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً } والتضرع لا يحصل إلا فى السر.

.

كما قال سادات الصوفية فى سبب اخفاء هذا الدعاء : أنه عمدة هذا الورد، وعماده، وروحه، ومداره، وهو بمثابة الروح للجسد، والسرِّ للروح، لأن استمطار الأسرار الإلهية من الغيب المطلق غيب الحق، إلى الغيب المقيَّد غيب الإنسان، ينبغى أن يكون سرًا دون الجهر.

.

أو للفرق بين السابق والآتى، فإن هذا الورد من قوله [يا سَتَّار] إلى قوله [والقرار] تعليم النبى -صلى الله عليه وسلم للشيخ المعروف كما سبق فى ديباجة هذه الرسالة.
وما بعده ليس بتعليمه -صلى الله عليه وسلم-، بل من ورد الشيخ، ففرق بينهما بالسكوت تعظيمًا، وأدبًا.

.

وهذا هو الدعاء :
[اللَّهُمَّ زَيِن ظَوَاهِرَنَا بِخِدْمَتِكَ]
اللائقة لجنابك القدوس ؛ من أعمال، وأذكار، وأوراد، وأدعية، واعتبارات.

.

[وَبَوَاطِنَنَا بَمَعْرِفَتِكَ]
بعد طهارة نفوسنا من الآفات، وتزكيتها بقطع العوائق والعلائق التى المنتجة معرفة الرب.
كما قيل : " من عرف نفسه فقد عرف ربه ".

.

[وَقُلوبَنَا بِمَحَبَتِكَ]
حتى لا يبقى فيها محبة سوى الله تعالى ؛ من الأموال، والأولاد، والأنفس، ونؤثر طاعتك على غيرها، ونرضى بالبلاء.

[وَأَرْوَاحَنَا بِمُعَاوَنَتِكَ]
بعد أن تتخلص من الكدورات البشرية، والموانع الطبيعة، فتصل إلى الفناء التام الذى هو : الفناء عن الفناء، وهو مقام التجلى للأرواح الخالى عن الإنسانية البشرية النفسانية.
.
[وَأَسْرَارَنَا بِمُشَاهَدَتِكَ]
فى الدنيا والآخرة فى جميع أحوالهما.
.
[اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِى قَلبِى نُورًا]
لطاعتك ومحبتك.
.
[وَفِى سَمْعِى نُورًا]
فى استماع الخير، وامتناع الغير.
.
[وَفِى بَصَرِى نُورًا]
فى استبصار ما يليق لرضاء جناب الملك القدوس.
واعلم :
أن القلب مقر الفكر فى آلاء الله، والبصر محل النظر فى آيات الله، والسمع محل استماع الحق، والشيطان يأتى للناس فى هذه الأعضاء، فيوسوس لهم بوسوسة شبهة بظلمة.
.
كما قال الله تعالى حكاية عن إبليس :
{ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ }
فدعا -صلى الله عليه وسلم- أن يدفعها الله باثبات النور فيها.
والمراد به : استعمالها على سبيل الصواب، كذا فى " شرح المشارق ".
.
[وَعَنْ يَمِينِى نُورًا، وَعَنْ شِمَالِى نُورًا]
وإنما أورد فيهما عن، لأن الأنوار تتجاوز عن قلبه، وبصره، وسمعه إلى من عن يمينه، وشماله من الخلف، كذا " فى شرح المصابيح " لابن الملك .

[وَعَنْ يَمِينِى نُورًا ، وَعَنْ شِمَالِى نُورًا ، وَفَوْقِى نُورًا ، وَتَحْتِى نُورًا ، وَأَمَامَى نُورًا ، وَخَلْفًى نُورًا]
حتى لا تبقى جهة من الجهات الست يصل بها الأعداء إلىَّ، وأكون متحصِّنًا موفقًا، محاطًا بالإنارة من ظلمات الجبلة من كل جهة، وذلك لا يتم إلا بالأنوار الإلهية.

.

[وَاْجعَلْ لِى نُورًا]
أصل به إلى قرب حضرتك.

.

[وَاجْعَلْنِى نُورًا]
أخلص من كثافة الوجودية البشرية، وهذا إجمال بعد التفصيل أراد به نورًا عظيمًا جامعًا للأنوار كلها.

.

[بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِيَن]
قيل : إنما عبر فى كل ذلك بالنور اقتباسًا من قوله تعالى :
{ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ }.

.

روى عن ابن عباس -رضى الله عنهما- أنه قال : أن النبى -صلى الله عليه وسلم- كان يدعو بهذا الدعاء فى أكثر الأوقات، وعقيب الصلوات، ووقت الأسحار.
كذا فى " المصابيح ".

.

وقيل فى شرحه : المراد من النور ضياء الحق.

.

واعلم أن دأب القوم ههنا جرى أن يتلوا هذا الدعاء جملة إذا عرفوه، وأما من لم يعرفه يتعلمه، وإذا لم يتعلم يقول فى سكوته آمين مرارًا، عملًا بقوله تعالى :
{ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ } فإن قولهم : آمين عند الدعاء، من أقوى المعاونة للإستجابة، مع أن المستمعين بصفات القلب، يدخلون فى فضيلة القارئين، بل أزيد من القارئين لآدائهم الفرض.

كما قال الله تعالى : { وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ }.
وقوله -صلى الله عليه وسلم- : « كن عالمًا أو متعلمًا أو مستمعًا ».
فاستماع القرآن فرض على الكفاية.

.

ثم ابتدأ الداعى جهرًا بقوله :
[وَالحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِين]
على ما يسر حفظ هذا الورد، وتلاوته مع الإخوان، أو بالإنفراد.

.

[وَاسْتَجِبْ دُعَانَا]
الذى دعوناك، ناجيناك من أول هذا الورد إلى هنا، سرًا وجهرًا مع التقصير، فلا تضرب به وجوهنا، ولا تؤاخذنا فيما أخطأنا وحرَّفنا فى تلاوته، وتجاوز عما أخطأنا فيه، كما بشرتنا بقولك : { ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ }.

.

[وَاشْفِ مَرْضَانَا]
الذين لم تحضر آجالهم ليستطيعوا العبادة والطاعة مع القيام، لأن الشفاء منك لا من الأدوية، واشف أيضًا بعنايتك ولطفك مرض قلوبنا حتى نسلم من الآفات.

.

[وَارْحَمْ مَوْتَانَا]
أى ضاعف حسناتهم، وتجاوز عن سيئاتهم، وارحمهم بفضلك ولطفك، وارحم أيضًا موت قلوبنا بإحيائك إياهم بعنايتك، ولطفبك.
ومن آداب الداعى أن يدعو الله لاستجابة دعائه، وللمرضى، والموتى، وغير ذلك.

.

[لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ]
ويكرروها ثلاثًا امتثالًا لما علَّمَ النبى -صلى الله عليه وسلم- عليًا -رضى الله عنه- كلمة التوحيد، حيث لقنه ثلاثًا.

.

ثم عقب الداعى ذكر النبى -صلى الله عليه وسلم- لأنه شعار التوحيد، فقال :
[سَيِّدَنَا مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ حَقًّا وَصِدْقًا]
مصدر لفعل محذوف، وتقديره حقت رسالته، ونبوته حقًا.

[وَصَلِّ عَلَى كُلِّ نَبىٍّ وَوَلىٍّ وَمَلَكٍ]
من الأنبياء والملائكة، وقد عرفت مما تقدم أن الصلاة تجوز على غير الأنبياء تبعًا٠
٠
ثم دعا بدعاء مخصوص، وهو يتعلق بعصمة القلب واللسان عما يزيل به الإيمان، وذلك هو المقصد الأقصى لأهل الإيمان، وأخَّر هذا الدعاء إلى آخر الورد تفاؤلًا على ختمه بالإيمان٠
فقال :
" اللهمَّ إنا نعوذُ بك مِن أن نُشْرِكَ شيئًا نعلَمُه ونستغفِرُك لِما لا نعلَمُهُ "٠

أى : نعتصم ونلوذ بلطفك وأمانك٠
قال ملا خسرو فى شرحه المسمى " بالدرر " :
من قال هذا الدعاء بعد الفجر، أمنه الله تعالى من كلمة الكفر٠
٠
وقال الفاضل البركلى فى كتابه :
يجب للمؤمن أن يعرف أولًا :
آفات الكفر بعد الإيمان :
من حَبط الطاعات كلها، وذهاب النكاح، وحل دمه، وحرمة ذبيحته، والعذاب المخلد فى النار، ولو مات بدون التوبة٠
ثانيًا :
آفات اللسان، ثم ملازمة الصمت والسكون، وحفظ اللسان والأعضاء، والجد، والتضرع لله تعالى أن يحفظه من الكفر، خصوصًا الدعاء الذى رواه أبو موسى الأشعرى، أنه -صلى الله عليه وسلم- قال :
« يا أيُّها النَّاسُ اتَّقوا هذا الشِّركَ فإنَّه أخفى مِن دَبيبِ النَّملِ٠
فقال له مَن شاء اللهُ أن يقولَ : وكيف نتَّقيه وهو أخفى مِن دَبيبِ النَّملِ يا رسولَ اللهِ ؟
قال: قولوا : اللهمَّ إنا نعوذُ بك مِن أن نُشْرِكَ شيئًا نعلَمُه ونستغفِرُك لِما لا نعلَمُهُ »٠
٠
من أن أشرك بك شيئًا :
أى : من أن أقول بلسانى، أو أعتقد بقلبى شيئًا يجانب الإيمان، عمدًا وسهوًا فى حال حياتى، وحال مماتى، وبعد مماتى، فاحفظ قلبى ولسانى عن اتيان مثل هذا الكلام أو الخواطر التى توجب الشرك جليًا أو خفيًا٠

وأنا أعلم :
أى : والحال أنى أعلم أن ذلك شرك، فأعوذ بك من اتيانه باللسان أو بالقلب٠
وإنما استعاذ من الشرك المعلوم لأن كثيرًا من السلف وقع فى الكفر بعد أن كان مقربًا، مع علمه الكفر ؛ كإبليس، وبلعام، وبرصيصا، وقصصهم مشهورة٠
٠
كما مر فى بيان ذلك فى قول الداعى [ولكل هم وغم ما شاء الله]٠
فوجب على كل عبد أن يستعيذ بالله على الدوام من شر ذلك، بالأعمال الصالحات، وترك آفات القلب، نعوذ بالله تعالى٠
٠
وأستغفرك : أى : أسألك المغفرة٠
لما : أى لشرك خفاء دخلناه٠
لا أعلم : أى لا أعلم دخولى لشرك خفاء علىَّ٠
٠
ثم أعاد الاستغفار لكونه من أهم المهمات فى تدارك محو الخطايا، سيما كبيرها، فقال :
[أَسْتَغْفِرُ اللهَ]
كرر ذلك ثلاثًا، مع الوتر لكون تكرار الاستغفار مرغوبًا، وكون الوتر محبوبًا، لقوله -صلى الله عليه وسلم- : « إن الله وتر يحب الوتر »٠
٠
أى : أسألك المغفرة لما أعلم، ولما لا أعلم من الذنوب كبيرة وصغيرة، وتبرأت من الكفر الجلى والخفى٠
٠
وأستغفر الله [مِنْ جَمِيعِ مَا كَرِهَ اللهُ]
الكره عبارة عما لا يرضاه الله مجازًا، فإنه فى الحقيقة بمعنى : الجبر والمشقة٠
تعالى الله عن أن يكون مجبورًا، ومحكومًا ٠
٠
فمعناه : أستغفر الله من جميع ما لا يحبه الله ولا يرضاه، سواء كان ذلك المكروه صدر من لسانى : [قَوْلًا]، أو من جوارحى [فِعْلًا] ومن سرى وعلانيتى وقلبى [خَاطِرًا] ومن عيناى [نَاظِرًا]٠
٠

وهذا المكروه ليس مما يعتبر فى الفقه، فإنه إلى الحرام أقرب، بل هو مما يكون نهيًا مطلقًا.

[وَأَتُوبُ إِلَيْهِ]
وقد يقال : كان من الأفضل أن يقدم التوبة على الاستغفار، على ما هو مذكور فى كتب الفقه، حتى قالوا : الاستغفار بعد التوبة أقرب إلى القبول.

.

والإجابة عن ذلك : أن التوبة مقدمة هنا على الاستغفار فى الحقيقة، لأن : « اللهم إنى أعوذ بك ..»
بمعنى التوبة، فتكون التوبة مقدمة، وبيان فضيلة الاستغفار مر مرارًا.

.

ثم قال : [سُبْحَانَ الله (٣٣) [الْحَمْدُ لله] (٣٣) [الله أَكْبَرُ] (٣٣).

.

[اللهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا [وَالْحَمْدُ للهِ كَثِيرًا] [وَسُبْحَانَ اللهِ العَظِيمَ وَبِحَمْدِهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً]
وقد مرّ معنى هذا التسبيح.

.

روى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال : « إذا مررت برياض الجنة فارتعوا، قال الصِّدِّيق : قلت يا رسول الله : ما رياض الجنة ؟ قال : المساجد.
قلت : وما الرتع فيها ؟ قال : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ».

.

وروى عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال : « لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله ألا الله والله أكبر، أحب إلىَّ مما طلعت عليه الشمس ».رواه مسلم

.

وروى عنه -صلى الله عليه وسلم- أنه قال : « أحب الكلام إلى الله أربع ؛ سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت ».

.

وقال -صلى الله عليه وسلم- : « من قالها كتب له بكل حرف عشر حسنات ».
وقال -صلى الله عليه وسلم- : « هى أحب إلى الله مما طلعت عليه الشمس ».

.

وقالهن -صلى الله عليه وسلم- مع لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، فإنهن الباقيات الصالحات، وهن يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها.
وهن كنز من كنوز الجنة.

[وَتَعَالَى اللهُ مَلِكًا جَبَّارًا قَهَّارًا سَتَّارًا سُلْطَانًا]
[مَعْبُودًا قَدِيمًا قَدِيرًا] [وَلاَ حَوْلَ وَلَا قُوَةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِّى الْعَظِيمِ]

.

ثم قال : [وَاعْفُ عَنَّا يَا كَرِيم]
أى : تجاوز عن سيئاتنا ، خطيئاتنا ، سرًا وجهرًا ، عمدًا وسهوًا ، غلطًا أو تحريفًا ، عند اتيان الأذكار ، والأوراد ، وتلاوة القرآن ، وعند إقامة الصلاة ، وعند معاشرة الناس ، فإنك كريم لا غاية لكرمك ولطفك ، وأنت أكرم الأكرمين .

.

[واغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا يَا رَحْمَنُ يَا رَحِيمُ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ]
وقد جاء فى الحديث : « من قال ثلاثًا يا أرحم الراحمين نادى منادٍ : إن أرحم الراحمين أقبل عليك فاسأل ما شئت » .

.

فيا أرحم الراحمين ، ويا أرحم الراحمين ، ويا أرحم الراحمين اغفر جميع ذنوبنا ، عمدًا وسهوًا ، خطأً ونسيانًا ، سرًا وجهرًا ، كبيرة وصغيرة ، فى صلاتنا ، وأذكارنا ، ومعاشرتنا لإخواننا ، لا تؤاخذنا بذلك فإنك رحمن رحيم تحب العفو والرحمة ، وتقبل دعاءنا ، ولا تضرب به وجوهنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا فى الدنيا والدين ، وأعصمنا عما يشين بالدين ، ويهدم الإيمان ؛ من قول ، أو عمل ، أو اعتقاد ، واجعل عاقبتنا بالخير ، واختم لنا بالحسن والعافية ، مع زمرة أهل الإيمان ، يا رحمن يا رحيم برحمتك وفضلك ولطفك يا أرحم الراحمين ، ويا أكرم الأكرمين ، ويا هادى الضالين ، ويا دليل المتحيرين ، ويا غافر ذنوب المذنبين .
آمين آمين .

* تتمات *

اعلم أيها السالك وفقك الله وإيانا : أنه لا تنفعك الأعمال بدون التقوى ؛
وهى : الاجتناب عما نهى الله تعالى، لقوله تعالى : { إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ }.

.

وغير ذلك من الآيات أكثر من مائة وخمسين آية عن التقوى.

يسمونها الصوفية : بالتخلية، أى : تخلية الظاهر عما لا يرضاه الله، وتخلية الباطن عما يشغلك عن الله تعالى.

.

ثم التقوى على ثلاثة أقسام : اتقاء من الكفر، واتقاء من الكبائر، واتقاء من الصغائر :

١- أما الاتقاء من الكفر :

فهو أن يؤمن العبد، ويصدق بأن الله واحد لا ثانى له، منزه عن الصاحبة والولد، لا شريك له فى ملكه، موجود بذاته من غير افتقار إلى موجد، بل كل موجود مفتقر إليه فى وجوده، فالعالم كله موجود به، وهو تعالى موجودًا بذاته، لا افتتاح لوجوده، ولا نهاية لبقائه، بل وجوده مطلق، قائم بنفسه، ليس بجوهر فيقدر له المكان، ولا بعرض فيستحيل عليه البقاء، ولا بجسم فتكون له الجهة، مقدس عن الجهات والأقطار، مرئى بالقلوب والأبصار، لا فى مكان، استوى على عرشه على المعنى الذى أراده، كما أن العرش وما حوله به استوى، وله الآخرة والأولى، ولا يجب عليه شىء، ولا يحل فيه حادث، حكيم لا يفعل شيئًا إلا بحكمة وفائدة، فعال لما يشاء بلا إيجاب، منزه عن صفات النقصان كلها، متصف بصفات الكمال، وليس له كمال متوقع، قديم أزلى أبدى.

.

له صفات قديمة قائمة بذاته تعالى، لا هو ولا غيره، هى :

الحياة، والعلم، والقدرة، والسمع، والبصر، والإرادة، والتكوين، والكلام الذى من جنس الحروف والأصوات، ليس له مثل معقول، ولا دلت عليه العقول، لا يحده زمان، ولا يقله مكان، بل كان ولا مكان، وهو الآن على ما عليه كان، خلق المتمكن، وأنشأ الزمان، وقال :

أنا الحى الواحد الذى لا يؤده حفظ المخلوقت، ولا يرجع إليه صفة لم يكن عليها من صفات المصنوعات.

تعالى أن تحله الحوادث، أو يحملها أو تكون قبله، أو يكون قبلها، بل يقال :

كان ولا شىء معه، لأن القبل والبعد من صنع الزمان الذى أبدعه، فلا يطلق عليه تعالى ما لا يطلق على نفسه، لأنه أطلق على نفسه : الأول، والآخر، لا القبل والبعد.

فهو القيوم الذى لا ينام، والقهار الذى لا يرام، خلق العرش وجعله حد الاستواء، وأنشأ الكرسى وأوسعه الأرض والسماء، اخترع اللوح والقلم الأعلى، وأجراه كاتبًا فى (كلمة غير واضحة) من خلقه إلى يوم الفصل والقضاء، أبدع العالم كله على غير شأن سبق، وخلق الخلق، وأنزل الأرواح فى الأشباح أَمَنًا، وجعل هذه الأشباح فى الأرض خلقًا، وسخر لها ما فى السموات وما فى الأرض جميعًا منه، فلا تتحرك ذرة إلا عنه، خلق الكل من غير حاجة إليه ولا موجب، ولكن علمه بذلك سبق فلابد أن يخلق ما خلق.

.

فهو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو على كل شىء قدير، أحاط بكل شىء علمًا، وأحصى كل شىء عددًا، يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين، وما تخفى الصدور، كيف لا يعلم شيئًا خلقه، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير.

.

يعلم الأشياء قبل وجودها على حد ما علمها، فلم يزل عالمًا بالأشياء، لم يتجدد له علم عند تجدد الأشياء بعلمه اتفقت الأشياء وأحكمها، وبه حكم عليها من شاء، ويعلم الجزيئات والكليات على الإطلاق، فهو عالم الغيب والشهادة، تعالى عما يشركون.

.

فعال لما يريد، فهو المريد للكائنات فى عالم الأرض والسموات، لم تتعلق قدرته بإيجاء شىء حتى أراده، كما أنه لم يرده سبحانه، حتي علمه فيما فى الوجود من طاعة، ولا عصيان، ولا ربح، ولا خسران، ولا عبد، ولا حر، ولا برد، ولا حَر، ولا حياة، ولا موت، ولا حصول، ولا فوت، ولا نهار، ولا ليل، ولا اعتدال، ولا ميل، ولا بر، ولا بحر، ولا شفع، ولا وتر، ولا جوهر، ولا عرض، ولا صحة، ولا مرض، ولا فرح، ولا ترح، ولا روح، ولا شبح، ولا ظلمة، ولا ضياء، ولا أرض، ولا سماء، ولا تركيب، ولا تحليل، ولا كثير، ولا قليل، ولا غداة، ولا أصيل، ولا قوى، ولا ذليل، ولا بياض، ولا سواد، ولا سُهاد، ولا رقاد، ولا ظاهر، ولا باطن، ولا متحرك، ولا ساكن، ولا يابس، ولا رطب، ولا قشر، ولا لُب.

.

ولا شىء من جميع المتضادات، والمختلفات، والمتماثلات، إلا وهو مُراد للحق تعالى، وكيف لا يكون مرادًا له وهو أوجده، وكيف يوجد المختار ما لا يريد، ولا راد لأمره، ولا معقب لحكمه، يؤتى الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويهدى من يشاء، ويضل من يشاء، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يريدوا شيئًا لم يرده الله تعالى ما فعلوه، ولا استطاعوه، ولا قدروا عليه.

من الكفر، والإيمان، والطاعة، والعصيان، من شيئته وحكمه وإرادته، ليس فى الكفر والعصيان رضاه، ولم يزل سبحانه وتعالى موصوفًا بهذه الإرادة أزلًا، والعالم معدوم، ثم أوجد العالم من غير تفكر، ولا تدبر عن جهل، فلا مريد فى الوجود على الحقيقة سواه، إذا هو القائل سبحانه :

{ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللهُّ رَبُّ الْعَالَمِينَ }.

.

وأنه تعالى كما علم فأحكم وأراد، فخص وقدَّر فأوجد، كذلك سمع ورأى ما تحرك أو سكن، أو بطن فى الورى من العالم الأسفل والأعلى، لا يحجب سمعه البعد فهو القريب، ولا يحجب بصره شىء، يسمع كلام النفس فى النفس، وصوت المماسة الخفية عند اللمس، يرى السواد فى الظلمات، والماء فى الماء، لا يحجبه الامتزاج، ولا الظلمات، ولا النور، وهو السميع البصير.

.

تكلم من لا صمت تقدم، ولا سكون متوهم بكلام قديم أزلى كسائر صفاته ؛
من علمه، وإرادته كلم به موسى -عليه السلام- من غير تشبيه ولا تكييف، إذ كلامه تعالى من غير شفاه، ولا لسان، ولا حروف، كما أن سمعه من غير صمخة، ولا أذن، كما أن بصره من غير حدقة ولا أجفان، كما أن إرادته من غير قلب ولا جنان، كما أن علمه من غير اضطرار ولا نظر ولا برهان، كما أن حياته من غير تجويف قلب عن امتزاج الأركان.

.

كما أن ذاته لا تقبل الزيادة والنقصان، فسبحانه سبحانه عظيم السلطان، عميم الإحسان، جسيم الامتنان، كل ما سواه فهو من جوده الفائض، وعدله الباسط، والقابض، أكمل صنع العالم وأبدعه حين أوجده، واخترعه، لا شريك له فى ملكه، ولا مدبر معه فيه.

.

إن أنعَم فنعَّم فذلك فضله، وإن أبلى فعذب فذلك عدله، لم يتصرف فى ملكه غيره، كل ما سواه فهو تحت سلطان قهره، ومتصرف عن إرادته وأمره، فهو الملهم لنفوس المكلفين للتقوى، والفجور، أى : لتعمل بالتقوى، وتجتنب الفجور، وهو المتجاوز عن السيئات، وفى يوم النشور لا يحكم عدله فى فضله، ولا فضله فى عدله.

.

تقدم بصفاته كلها تنزيهًا عن الحدوث، اخترع العالم قبضتين، وأوجدهم منزلتين، وقال :
هؤلاء للجنة ولا أبالى، وهؤلاء للنار ولا أبالى.خالق الخير والشر، لكن لا يرضى للشر.

فسبحان من لا فاعل سواه، وكما شهدنا بالوحدانية، وما يستحقه من الصّفات العلى، كذلك نشهد لنبينا وسيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- بالرسالة إلى جميع الناس كافة، بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه، وسراجًا منيرًا، وأنه بلغ جميع ما أنزل إليه من ربه، وأدى أمانته، ونصح أمته، ونؤمن بكل ما جاء به سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم-، ونؤمن أنه لا يموت أحد إلا بأجله الذى قدره الله، ونؤمن أن منكرًا ونكيرًا فى القبر حق، وعذابالقبر حق، والبعث والعرض على الله تعالى، والحوض، والميزان، وتطاير الصحف، والصراط، والجنة، والنار، كل ذلك حق.

.

وكذلك فريق فى الجنة، وفريق فى السعير، وأن الملائكة، والكتب المنزلة على الأنبياء، وشفاعة الأنبياء، والملائكة، وصالحى المؤمنين حق، ونؤمن بأن إيمان أهل البأس غير مقبول، وتوبتهم مقبولة، وأن جماعة من أهل الكبائر من الموحدين يدخلون جنهم ثم يخرجون بالشفاعة حق، وأن كل ما جاءت به الكتب، والرسل من عند الله عُلم أو جُهل حق.

.

وكذلك نؤمن بأن التأبيد للمؤمنين فى النعيم المقيم، والتأبيد للكافرين، والمنافقين، والمشركين (أعتقد أنه نسى أن يكتب فى العذاب) ونؤمن أن من انطوى قلبه، وذل بها لسانه، واطمأن بها قلبه فهو مؤمن من أهل الجنة بفضل الله، ونؤمن أن السعادة والشقاوة مكتوبتان، وكل ميسر لما خلق له، فالسعيد ميسر لعمل أهل الجنة، وبه يعمل، وعليه يختم أمره بلطفه تعالى، والشقى كذلك.

.

ونؤمن أن أفضل الناس بعد النبيين أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علىٍّ، ثم سائر الصحابة، ثم التابعين، ثم تبع التابعين، ثم القرن فالقرن.

.

هذه عقيدة القوم، وعقيدتنا عليها حيينا وعليها نموت كما هو رجاؤنا من الله تعالى، واويلاه للمفترى على هؤلاء القوم بالكفر مطلقًا لغرض فاسد، ووامصيبتاه للمتنابز بهم بألقاب قبيحة، وإنما اجترأ ذلك المفترى على مثل هذه الجنايات لكونه غير مميز يمينه عن شماله، ولعدم خوفه من وعيد من كفَّر أهل القبلة، فهو كافر، ولعدم مبالاته من نهى " { ولا تنابزوا بالألقاب } فلو كان فى قلبه خشية قدر ذرة، لما يشتغل بعيوب الناس، وبالإفتراء عليهم، نعوذ بالله من ذلك.

فاجتهد أيها السالك، تشمَّرَ فى إصلاح عقيدتك فإنك لو عملت عملًا صالحًا بقراب الأرض، ثم وُجد فى قلبك مثقال ذرة من الشك، أو الظن، أو الإنكار، أو الاعتقاد الذى لا ينبغى للملك القدوس، لما نفعتك هذه الأعمال٠

٠

قال بعض إهل الإشارة من المفسرين فى قوله تعالى : { اتَّقُواْ اللهَّ حَقَّ تُقَاتِهِ }
أن حق الاتقاء : هو تخليص الاعتقاد من الباطل بجهد تام٠
كما يدل على ذلك تمام الآية، وهو قوله تعالى : { وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ }
فوجب بذل الجهد، وكمال الهمة فى معرفة الإيمان كما هو حق، وفى معرفة سبب زواله ليجتنب عنه، لأن الشرك فى الإنسان أخفى من دبيب النمل، فلا تفيدك الأعمال بدون قلب سليم٠

٠

٢- وأما الاتقاء من الكبائر :

—

فهو أن يجتنب عما نهى الله تعالى، وحرمه فى القرآن، أو حرمه النبى -صلى الله عليه وسلم-، أو على حرمته الإجماع أو القياس، سواء كان عملية ؛ كالقتل والزنا، أو عدمية كترك الفريضة٠

٠

٣- وأما الاتقاء من الصغائر :

—

فهى أن يجتنب من جميع ما فيه عقاب أو عتاب، سواء كان عملية كسرقة خبزًا، أو عدمية كترك السنن والمستحبات٠

أما التقوى الأولى : فهى تقوى القاصرين الموسومة بظالمى أنفسهم.
وأما الثانية : فهى تقوى السابقين الموسومة بالمقربين.
قال الله تعالى فى شأن هؤلاء الثلاثة :
{ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ }.

.

فالسالك إذا استكمل الأولى يجب عليه أن يسير إلى الثانية ثم الثالثة.
ثم أن السالك لا يكون متقيًا إلا بحفظ الأعضاء التسعة المعينة : قلب، ولسان، وأذن، وعين، ويد، وبطن، وفرج، ورجل، وبدن.
لأن الكفر والعصيان يتولدان منها، فإن لكل واحدة منها آفات معدودة، ستون أو سبعون أو ثمانون.

.

نذكرك آفات القلب واللسان معدودات دون غيرهما ؛ لكون إصلاحهما أقدم من غيرهما، ولكونهما مهلكة كبرى، وقد عرفت، ولذلك قيل : " المراد بالأصفرين : القلب واللسان " فإن القلب لإنشاء المعانى، واللسان ظهرهما.

.

وأما آفات القلب فستون وزيادة :
كفر، وبدعة، رياء، كبر، عجب، حسد، بخل، إسراف، جهل، كفران النمج، تسخط القضاء، جزع، أمن، يأ»، حب ظلمة، بغض الصالحين، تعليق القلب بأسباب، حب جاه، حب رياسة، خوف ذم، حب مدح، اتباع هوى، تقليد، طول أمل، طمع، تذلل، حقد، شماتة، عداوة، جبن، تهور، عذر، خيانة، خلف وعد، سوء ظن، طيرة، حب مال، حب دنيا، حرص، سفه، بطالة، عجلة، تسويف عمل، فظاظة، وقاحة، حزن فى أمر الدنيا، خوف فى أمر الدنيا، غش، فتنة، مداهنة، أنس بمخلوق، خفة، عناد، تمرد، حلف، نفاق، جربزة، غباوة، شره، خمود، اصرار.

وأما آفات اللسان فستون أو زيادة أيضًا :
كلمة كفر، ما فيه خوف كفر، كذب، بهتان، خطأ، غيبة، نميمة، سخرية، سبّ، فحش، لعن، طعن، نياحة، مراء، جدال، خصومة، تعريض، غناء، اقتناء سر، خوض فى الباطل، سؤال مال ومنفعة دنيوية، سؤال عوام عما لا يبلغه فهمهم، سؤال عن الأغلوطات، خطأ فى التعبير، نفاق قولى، كلام ذى لسانين، شفاعة، أمر منكر، نهى عن المعروف، غلظة كلام، سؤال عن عيوب الناس، تكلم عند الآذان والإقامة، كلام فى صلاة، كلام دنيا بعد طلوع الفجر، كلام فى الخلاء، كلام عند الجماع، دعاء على المسلم، دعاء للظالم بغير صلاح، كلام عند قراءة القرآن، كلام دنيا فى المساجد، نبذ بالألقاب، يمين غموس، يمين بغير الله، كثرة يمين، سؤال امارة وقضاء، سؤال تولية، سؤال وصاية، دعاء الإنسان على نفسه وتمنى الموت، رز عذر أخيه، تفسير القرآن برأيه، اخافة مؤمن، قطع كلام غيره ونفسه ونحوه، رد كلام تابع متبوعه، سؤال حل شىء فى طهارته فى غير محله، مزاح، مدح، شعر، سجع، فصاحة، ما لا يعنى، فضول الكلام، تناجى، تكلم مع شابة أجنبية، سلام على الذمى والفاسق المعلن، سلام على المتغوط والبائل، دلالة على طريق المعصية، إذن فيما هو المعصية. انتهى.

.

ثم اعلم أيها السالك : أن أمر اللسان من أعظم الأمور، وأهمها، كما أن القلب أعظم من اللسان، وهما أكثر مجارى التقوى، فلذا كثر اهتمام السلف بهما من بين سائر الأعضاء.

.

فعليك بصيانة اللسان عن جميع هذه الآفات، وصيانة القلب عن منكراته، إذ لا تقوى بدونهما.

.

أما الكذب والغيبة : فهما فى آفات اللسان ؛ كالرياء والكبر فى آفات القلب.
فكما أن من نجا منهما بعد النجاة من الكفر والبدعة، يرجى أن ينجو من سائر آفات القلب سهلًا وتيسيرًا.

.

فكذلك يرجى أيضًا أن من نجا من الكذب والغيبة بالكلية، بعد النجاة من تلفظ الكفر،
يرجى أن ينجو من سائر آفات اللسان سهلًا وتيسيرًا بإذن الله تعالى.
فلذا ورد فيهما الأخبار، والآثار، والاهتمام من السلف، ما لم يرد فى غيرهما.

.

ولكل آفة من هذه الآفات غوائل، مهالك صرح بها فى المطولات.

فالحاصل : أنه ينبغى للسالك أن يجتهد بالمجاهدة، والتضرع إلى الله تعالى أن يزيل هذه المنكرات.
وإذا تكلفت أيها السالك بإزالة آفة واحدة، يوفق لك إن شاء الله تعالى بإزالة الآفات.
وأما إن عملت بإذن مرشد فيكون أسهل، وفقك الله وإيانا فى أمور طاعاته ورضاه.

.

ولا تغفل فإن الموت ليس بغافل عنك، ولا تضيع عمرك بما لا يفيدك، فإن ضياع العمر حسرة وندامة، لأن الغافلين يقولون يوم القيامة بعدما علموا شآمة الغفلة فى الدنيا :
كما قال الله تعالى :{ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا }.

.

وأنت تقول أيها السالك : أن الأولاد والأزواج موانع علىَّ، ألا تعلم أنهم خصوم عليك يوم القيامة، كما قال الله تعالى :{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ }.

.

وأن نفسك التى تستكرمها كل ساعة، وهى عدو لك.
قال الله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ }.
وقال الله تعالى : {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ }.

.

وأنت دائمًا فى رضاهم بغير التفات إلى رضا الله تعالى، وما ميزت من الحبيب ومن العدو.
وقال -صلى الله عليه وسلم- : « من أتي عليه أربعون سنة فلم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار ».

.

فكيف إذا هدمت الأعمال بالمنكرات الظاهرية، والباطنية، اتقوا الله وتزودوا، فإن خير الزاد التقوى، ليس لك صديق غير التقوى ؛ فإن أموالك لورثتك، وأولادك وزوجتك لغيرك، وأن بدنك غذاء لديدان القبر، وأن روحك لعزرائيل، لا ينفعك من هذه إلا الإيمان إن خلصته من مكر الشيطان، ولو سعيت للجنة مثل ما سعيت للدنيا، أو خفت من الله مثل ما تخاف من الفقر أو الظلمة، أو رأيت رضا ربك مثل ما رأيت رضا أصحابك، لنجوت.
وقد استقامت السموات والأرضين مع قوتهم باسم من أسماء الله تعالى، وأنت لم تستقم بالكتب المنزلة عليك.

أيها السالك :
قد فات وقت الصبا بالجهل، وبانعدام التكليف، وفات وقت الشباب بالسفاهة، وفات وقت الشيخوخة بالضعف، ففى أى وقت تعبد ربك، وأنت فى هذه الدنيا مسافرًا، والسنون مراحل، والشهور فراسخ، والأيام أميال، والأنفاس خطوات، والطاعة والأوقات رأسمال، والشهوات قطاع الطريق، والربح الفوز بلقاء الله، والخسران البعد عن الله، وأخر المنزل الجنة أو النار٠

٠

اعتبر من هذا، لا تغرنك الدنيا الدنيئة فإنها سريعة الزوال، اعتبر ممن أبقاها٠
لو قيل مثلًا : أن بناء الجنة من الأحجار والتراب، وأطعمتها من خبز الشعير، وأن بناء الدنيا من الذهب، وأطعمتها من السكر والعسل، لكان يجب أن نبغض الدنيا، ونحب الجنة لبقاء الجنة، وفناء الدنيا، فكيف الأمر بالعكس !!

٠

يا أسفاه نقول أن الدنيا زائلة فانية، ثم نميل إليها، ولا نسعى للجنة، فإن سرور الدنيا ينتهى إلى مطعم، وملبس، وطيب، لا غير عند جميع الأطباء والحكماء٠

٠

فأنفس الطعام هو العسل مبدأه ما ادخره النحل، وأجمل الملبس هو الحرير مبدؤه دودة القز، وأطيب الطيب هو المسك ومبدؤه دم الظبى، فانظر كيف كان خسيسًا ما اعتدته جميلاً٠

٠

وقس على ذلك سائر أسباب السرور أيها المعتبر، وكيف يتكبر الإنسان فى هذا المنزل، ولا يعلم تحقيقًا دخوله الجنة، وكيف يتكبر من خرج من مخرج البول، وأن أصله ماء نجسُ، وأصل أصله تراب، وأخره جيفة، وبينهما يحمل النجاسات والمكروهات، لما أن فى بطنه نجاسات رقيقة وغليظة، وفى عروقه دماء نجسة، وفى لحومه صديد وقيح، وفى فمه ريح وبزاق، وفى عينيه دنس ورمد، وأنواع المياة المنتنة، وفى رأسه شعرات ووساخات دنيئة، وفى أذنيه خباثات، وفى لحيته دنس ووسخ، وفى أنفه مخاط، وفى حلقه بلغم، والبول والغائط وأنواع المياة النجسة، وفى أعضاءه درن، وعرق، وأنواع الأمراض المختلفة، وفى جسده قمل وبراغيث، ونوم غالب عليه، وغير ذلك مما يستقذره الطبع ويستنفرها٠

والإنسان فى إزالة جميع ذلك عاجز، فهذه المغلوبية والعجز يكون التكبُّر من غاية الحمق.
قد أعطى الله تعالى للحيوانات النفس، والملائكة العقل، وللإنسان كلاهما، فإذا كنت مغلوبًا للعقل، فأنت أشرف من الملائكة، وإن كنت مغلوبًا للنفس فأنت أشرَّ من البهيمة.

.

تفكر أيها السالك أين ذهب أقرانك، وأنت فى أثرهم، توجَّه إلى الله تُصَن عن شر الشيطان، كمن حمل عليه كلب الراعى فلا نجاة منه إلا بالتوجه إلى الراعى.

.

تذكر يوم تفزع فيه القلوب، وتزل فيه الأقدام، وتفر الأنبياء من الخصوم، ولخشية هذا اليوم اعترف الأنبياء والصالحون بالعجز، كما فى شرح :
[واغفر ذنوبنا] وشرح [لكل هم وغم] فاطلع هناك.

.

فيا أيها الإخوان ذو الاحترام انظروا إلى هؤلاء الأعلام الكرام، والمشايخ العظام كيف حاموا وليس فينا عشر عشرها، ونحن أحق بها منهم بمراتب لا تحصى، ولا سبب لهذا إلا أن قلوبنا قاسية، وقلوبهم ذاكرة ذكية، فما بقى فينا سبب رجاء إلا أننا كلنا شوق إليهم وحب.
وقد قال -صلى الله عليه وسلم- : « المرء مع من أحب ».

أو يرحمنا إلهنا، وذلك أوسع من كل شىء، وأسبق على غضبه.
فيا غياث المستغيثين، ويا مجيب المضطرين، ويا أرحم الراحمين، ويا غافرًا للمذنبين، بحرمة حبيبك المصطفى، ونبيك المجتبى -عليه من الصلوات أزكاها ومن التحيات أوفاها- ، وجميع الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين -عليهم السلام- أجمعين.

.

وأصحاب حبيبك السابقون رضيتَ عنهم، وعنك هم راضون، والتابعين لهم بإحسان -عليهم الرحمة والغفران-، وارحمنا فإنا مجرمون، وبالآثام والخطايا معترفون، واغفر لنا ذنوبنا، وكفر عنا سيئاتنا، وتوفنا مع الأبرار، إنك أنت الرحيم الغفار، ولعيوب عبادتك المذنبين ستار.
آمين أمين يا أرحم الراحمين، ويا أكرم الأكرمين.

هذا آخر ما قصدنا، ونتيجة ما سعينا، أرجو من الإخوان الأحرار أن يطالع هذا الشرح فى الليل والنهار، ويتتبع جميعه بغير إهمال، ليحصل له الفحوى على الكمال، لعل هذا يكون له مرشدًا، أو يثبت فى طريق الله معتمدًا، فإنى التقطته من الكتب المعتبرة، ونظرها بعين الكمال الفحول البررة، خلص الله قلوبنا من الآفات، وجوارحنا عن جميع المنهيات، وبشرنا بالرضوان مع الأصدقاء والإخوان، ويرزقنا جنة النعيم والإحسان.
.
ثم الرجا من الخلان أن يصلحوا ما كتبنا بالخطأ والنسيان، فإن الله يحب المصلحين، ويبغض المتعصبين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

تم الكتاب بعون الملك الوهاب ليلة الخميس رابعة ليلة من شهر رجب سنة ثلاثين وثلاث ومائة على يد أفق العباد، وأحوجهم إلى مغفرة من إليه المعاد.
محمد بن محمد بن زياد، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين والمسلمات أجمعين.
وقد كتب بيده الفانية الخاطية بهذه النسخة ثلاثة نسخ، يرجو ممن يطالع فيهم دعوة لعل الله سبحانه وتعالى يمحو بها زلله، ويعفو عن خطاياه، إنه كريم عفو.
والحمد لله وحده.